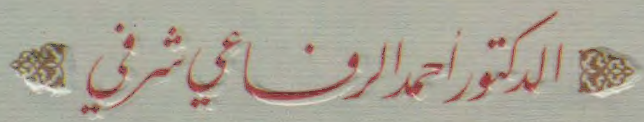
القسم الثاني : الأدب الإسلامي

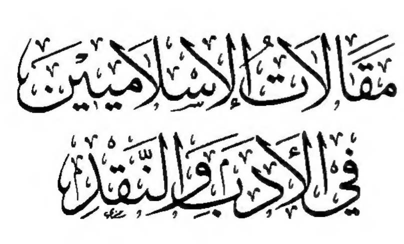
مقالات الإسلاميين في الأدب والنقد





دار ابن حزم




مقالات الإسلاميين
في الأدب والنقد
القسم الثاني : الأدب الإسلامي



مقالات الإسلاميين في الأدب والنقد

الدكتور أحمد الرفاعي شرفي

القسم الثاني: الأدب الإسلامي



دار ابن حزم



حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبعَة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ردمك : 1- 3- 9833 -9961- 978

رقم الايداع : 518 – 2009

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



4 شارع الهواء الجميل، باش جراح - الجزائر العاصمة
هاتف : 266016 - 267152 (021)
فاكس: 267165 (021)

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb




مقدمة

مقولة «أثر الإسلام في ضعف الشعر» خاصة والأدب عامة تتردد هنا وهناك في أقوال القدماء والمحدثين، حتى بلغت مبلغ العقيدة الراسخة التي لا تكاد تقدر على نقضها أية حقيقة أخرى مهما كانت شواهدها وأدلتها! وقد ذاعت أقوال المستشرقين خاصة الذين راحوا يسوقون بين يدي هذا الزعيم أسباباً مختلفة، ويرتبون عليه نتائج خطيرة تتصل بموقف الإسلام من الفنون عامة[1]، وخلاصة تلك النتائج ما يلي:

١ ـ تكريس القول بالتناقض بين الدين والفن عامة، وبين الإسلام والشعر خاصة.

٢ ـ الفصل بين الفن والأخلاق عامة وبين الأدب والإسلام خاصة.

٣ ـ توظيف هذه المقولة للحكم باستحالة ظهور أدب إسلامي.

والمقولة المشار إليها مبنية على رأي أورده ابن قتيبة ونسبه للأصمعي يقول فيه:

«الشعر نكد، بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره»[2]. وفي رواية أخرى: شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر فقطع متنه في الإسلام

---

(١) قضايا الشعر في النقد العربي، ص١٧٥.

(٢) الشعر والشعراء، ج١، ص٢٤٤.

لحال النبي ﷺ[1]. وهذا الرأي يناقش من الوجوه التالية:

١ ـ أن المرزباني الذي أورد المقولة نفسها وعزاها كذلك للأصمعي يرويها بصيغة مخالفة تماماً لما ذكره ابن قتيبة. يقول المرزباني: قال الأصمعي: طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لاَن. ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير لاَن[2].

ففي هذه الرواية الثانية، لا نجد أي صلة بين ضعف شعر حسان وبين الإسلام، بل إن العبارة صريحة في أن شعره علا في الجاهلية والإسلام. بينما نجد رواية ابن قتيبة تربط بين الإسلام وحسان وضعف شعره، والتناقض بين الرأيين واضح ومن المستبعد أن يصدر كلا الرأيين عن الأصمعي.

٢ ـ نجد السيوطي بقدر ما وثق الأصمعي[3] ووصفه بالتدين والتثبيت، يقول عن ابن قتيبة: إنه خلط علمه بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات[4]. ومن المحتمل جداً أن يكون ابن قتيبة روى هذا الرأي عمن لا يؤخذ عنه.

وما يرجح هذا الاحتمال أن كارل بروكلمان المستشرق الذي لم يتردد في الكذب على الأمير عبدالقادر[5]، وغيره من أعلام المسلمين اعتماداً على أضعف الروايات وأوضحها ضعفاً.

---

(١) م.س، ن.ص.

(٢) الموشح، ص٨٥.

(٣) المزهر، ج٢، ص٤٠٩.

(٤) المرجع السابق، ص٤٠٤.

(٥) يقول في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية: «وفي شباط خسر الأمير مدينة سبدو، آخر مدنه المحصنة، ومن ذلك الحين اضطر إلى أن يضرب في البلاد مع جيشه، وكانت عدته نحو/ من خمسين ألف رجل» ص٦٢٥، وهذا الرقم الذي ذكره عن الجيش الجزائري لو كان نصفه فقط مع الأمير عبدالقادر لتغير وجه التاريخ، وإنما هو الكذب والتحامل على الإسلام والمسلمين.

هذا الرجل لم يتردد في القول بأن الأصمعي اجترأ على حسان[1].
مما يوحي بشك الرجل في صحة نسبة هذا الرأي للأصمعي، بدليل أنه يثبت في رأيه هذا بإيراد رواية ابن قتيبة لولا أنه أدرك تفاهتها وسقوطها أصلاً. وعلى فرض أن رواية ابن قتيبة صحيحة النسبة إلى الأصمعي، فإنها لا تكفي للقول بوجود تناقض ما بين الفن والدين عامة ولا بين الإسلام والشعر خاصة للأسباب التالية:

أ ـ أن الأصمعي ليس ناقداً أو إماماً من أئمة الفكر والدين، وإنما هو رجل لغة ونوادر، وقوله في قضايا الأدب والنقد ليس حجة على كل حال.

ب ـ أن رأيه غير مبني على منهج دراسي ـ لا استقرائي ولا استنتاجي ـ وإنما هو مجرد انطباع ذاتي أساسه تشبع الأصمعي بالرؤية العربية غير الإسلامية بسبب كثافة مروياته الجاهلية، والمؤهل للحكم على شاعر مخضرم تتمثل في شعره رؤيتان متناقضتان، رؤية أساسها إنكار وجود الله، وأخرى أساسها الكون كله لله، ينبغي أن يستوعب استيعاباً كاملاً، وذلك ما لم يتمكن منه الأصمعي بكل تأكيد، وإلا لجمع مع رواية اللغة رواية الحديث أو الاهتمام بعلوم القرآن مثلاً.

جـ ـ أن حسان أحد الشعراء المخضرمين، وشعره من حيث الكم أو المستوى لا يكفي لإثبات ظاهرة فكرية وفنية ذات أبعاد حضارية كبرى.

د ـ أن الظاهرة المشار إليها تتعلق بحسان نفسه وقدراته الشعرية وخاصة مدى استعداده للتطور الفكري وليس بالإسلام وتأثيره في الشعر.

هـ ـ أن الظاهرة المذكورة وضعف شعر حسان في الإسلام تجد تفسيرها الصحيح في حسان نفسه وظروفه الشخصية النفسية والعائلية وليس في عقيدته، بدليل أن المعاصرين له من الشعراء استوعبوا النقلة الإسلامية وتمثلوها بعمق وانعكست إيجابياً على شعرهم، مثال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه.

---

(١) تاريخ الأدب العربي، ج١، ص١٥٣.

و ـ أن نوابغ الشعراء في تاريخ الأدب العربي إنما يرجع تفوّقهم ونبوغهم إلى عمق تصورهم واستيعابهم للفكر الإسلامي وما يفتحه من آفاق نفسية وفكرية لا مثيل لها.

والخلاصة، أن مقولة: (أن الشعر نكد، بابه الشر) مقولة غير صحيحة في ذاتها ولا في نسبتها إلى الأصمعي، وإنما هي تمثل رأياً لأحد الزنادقة والدعار دسه على الأصمعي حتى يروج في أوساط المتأدبين، ومن المعلوم أن ابن قتيبة لم يدرك من حياة الأصمعي إلا تسع سنوات، لم يثبت أنه اتصل خلالها به، مما يرجح القول بأن هذه المقولة موضوعة من أساسها. إن هدم هذه المقولة الموضوعة يؤدي حتماً إلى تهاوي كل ما بني عليها من آراء للقدماء والمحدثين لا صلة لها بالأدب والفن. وذلك يؤدي إلى النتائج التالية:

١ ـ أنه لا تناقض مطلقاً بين الفن والدين عامة ولا بين الشعر والإسلام خاصة. بل نجد العكس هو الثابت الصحيح، وهو أن الإسلام أثر إيجابياً عبر التاريخ، ذلك أن عظمة الأدب الإسلامي (المتمثل للقيم الإسلامية الفكرية والجمالية) المكتوب باللغة العربية أو غيرها، إنما هي في الحقيقة انعكاس صادق للعقيدة، والفكر الإسلامي ونظرته للإنسان والكون ومفاهيمه ومدى ما تتسم به من أصالة وعمق وشمولية وشفافية تعكس مقولة: إن الإسلام عقيدة للإنسان في كل زمان ومكان، ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1].

٢ ـ أن عصور الانحطاط والجمود في الميدان الأدبي خاصة إنما تجد تفسيرها المنطقي السليم في ضعف الثقافة الإسلامية لدى الشعراء والنقاد، مما جعل الشعراء والنقاد يتبنون مفاهيم اجتماعية انتهازية فردية على حساب الرؤية الإسلامية حتى ظهر أدب الكدية وظهر شعراء السُّخْفِ والمجنون أمثال: ابن حجاج، وابن سكرة وغيرهم ممن ذكرهم الثعالبي في يتيمة الدهر[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) انظر: ج٣، ص٣ ـ ٩١.

٣ ـ أن خلو الساحة الأدبية العربية من شاعر يستطيع أن يشغل الناس ويلهيهم عن أنفسهم بفنه الرفيع وخلقه الجميل إنما يعود إلى ضعف الثقافة الإسلامية وإلى القيم السياسية المفروضة على حرية الفكر في كثير من البلدان العربية الإسلامية.

٤ ـ أن سقوط الأدب العربي الحديث (فكراً وفناً) وانزوائه في البلديات بعد أن كان الكون مسرحه، إنما يعود إلى طغيان الثقافة اللادينية، ويوم يثوب الناس إلى رشدهم ويدركون أنه لا بديل للإسلام الضامن للتقدم والرخاء والعز إلا الكفر والفقر والذل ويعودون إلى الإسلام (الفكر والرأي والجد)، يومئذ يستأنف الشعر العربي الإسلامي رسالته ودوره. ويومئذ يظهر من جديد: أمثال المعري والمتنبي وأبي تمام وشوقي والشابي ومفدي زكرياء ومحمد العيد آل خليفة وغيرهم وغيرهم، وأن الحياة إرادة، وأن الشعر إرادة، والإرادة نور من الله، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[2]، والحمد لله رب العالمين.

الدكتور أحمد الرفاعي شرفي



---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

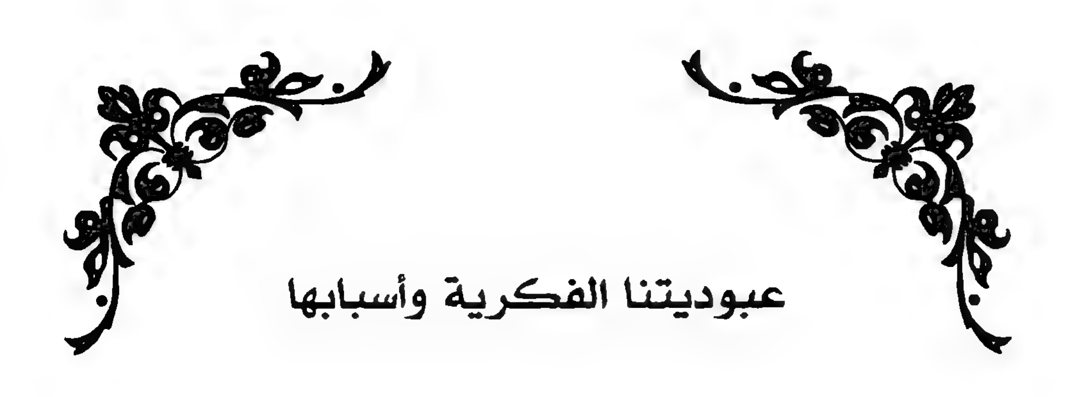
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٠٨.



المؤلفون لهذا القسم

- أبو الأعلى المودودي.
- عون الشريف قاسم.
- محمد الشوفاني.
- نجيب الكيلاني.
- محمد إقبال عروي.
- محمد قطب.
- أبو علي حسن.
- محمد حسن بريغش.
- مأمون فريز جرار.
- صالح آدم بيلو.
- عبدالقادر عبار.
- عبدالباسط بدر.
- عباس محجوب.
- أحمد عروة.
- جعفر شهيدي.

- جماعة من الأساتذة.
- أمير عبدالعزيز.
- حلمي محمد القاعود.
- محمد يحيى بيلاهي.
- فوزي صالح.
- أحمد شوقي.
- أبو علي حسن.
- عماد الدين خليل.



عبوديتنا الفكرية وأسبابها

إن الحكم والسيادة والغلبة والاستيلاء نوعان، أحدهما: الغلبة المعنوية والخلقية، والآخر المادية والسياسية. فأما الغلبة من النوع الأول، فهي أن تتقدم أمة من حيث قواها الفكرية والعلمية تقدماً يجعل سائر الأمم تؤمن بأفكارها، فتتغلب نظراتها على الأذهان، وتستولي منازعها ومعتقداتها على المشاعر، وتنطبع بطابعها العقليات. فتكون (الحضارة) حضارتها و(العلوم) علومها و(التحقيق) ما تقوم به هذه و(الحق) ما هو عندها حق و(الباطل) ما تحكم هي عليه أنه باطل. وأما الغلبة من النوع الآخر، فهي أن تصبح أمة من شدة الصولة والبأس باعتبار القوى المادية بحيث تعود الأمم الأخرى لا تستطيع أن تحتفظ باستقلالها السياسي إزاءها، فتستبد هذه بجميع وسائل الثروة عند تلك الأمم وتسيطر على تدبير شؤونها كاملة أو إلى حد ما. وكذلك الهزيمة والخنوع نوعان، أحدهما: الهزيمة الفكرية، والآخر: السياسية. وقس بيان هذين على ما سبق من بيان نوعي الغلبة.

وهذان النوعان من الغلبة والاستيلاء منفصل بعضهما عن بعض، فلا يلزم أن توجد الغلبة المعنوية حيثما كانت الغلبة السياسية، كما لا يلزم أن تكون الغلبة المادية مصحوبة بالغلبة المعنوية في كل حال. على أن القانون الطبيعي هو أن كل أمة تستعمل ما أتاها الله من قوى الفكر والعقل، وتمضي قدماً في طريق البحث والتحقيق والاكتشاف تتمتع إلى جانب رقيها الفكري بالرقي المادي أيضاً. وكل أمة تتقاعد في السباق في حلبة التفكير والتعمق في العلم تصاب مع انحطاطها العقلي بالتقهقر والاضمحلال المادي كذلك.

ثم إنه لما كانت الغلبة نتيجة القوة، والهزيمة عاقبة الضعف، فإن الأمم المتخلفة من الجهتين: المعنوية والمادية كلما تهبط في دركات الضعف والفتور، تكون أصلح للعبودية وأكثر استعداداً للخنوع، وتصبح الأمم القوية بالاعتبارين المادي والمعنوي حاكمة على عقولها وأجسامها معاً.

إن المسلمين يعانون اليوم هذه العبودية المتضاعفة، فمن أوطانهم ما توجد فيه العبودية بنوعيها جميعاً. ومنها ما يقل فيه جانب العبودية السياسية ويرجح جانب العبودية المعنوية.

ومن سوء الحظ أنه ليست لهم على ظهر الأرض رقعة إسلامية واحدة مستقلة تمام الاستقلال من الوجهتين السياسية والمعنوية. أما البلاد التي قد حصلت لهم فيها الحرية والاستقلال السياسي فهم ليسوا متحررين فيها من ربقة العبودية الفكرية؛ فها هي ذي مدارسهم ومكاتبهم وبيوتهم وأسواقهم ومجتمعاتهم حتى وأجسامهم وأشخاصهم تشهد كلها بأنه قد استولت عليهم حضارة الغرب وامتلكت نفوسهم علومه وآدابه وأفكاره. فهم لا يفكرون إلا بعقول غربية، ولا يبصرون إلا بأعين غربية، ولا يسلكون إلا الطرق التي قد مهدها لهم الغرب. وقد رسخ في نفوسهم، سواء شعروا به أم لم يشعروا، أن الحق هو ما عند أهل الغرب حق، والباطل ما يعدونه هم باطلاً، وأنه المقياس الصحيح للحق، والصدق، والآداب، والأخلاق، والإنسانية، والتهذيب، والأخلاق. فكل ما يطبق منها ذلك المقياس يطمئنون إلى صدقه ويفتخرون بمجيء أمر منهم موافقاً للمعيار الأوروبي، وأما ما لا يطابقه منها فيظنونه خطأ وباطلاً شعروا بذلك أم لم يشعروا، ثم يأتي المتعسف منهم فيتبرأ منه ويرفضه علناً. ويقف المقتصد منهم باخعاً نفسه عليه، أو يعود يعالجه جذباً ومداً حتى ينطبق على المعيار الغربي بوجه من الوجوه.

❋ ❋ ❋

وإذا كانت هذه حال الأمم المستقلة منا فحدث ولا حرج عن حال العبودية الفكرية في الأمم المستقلة التي هي واقعة تحت حكم الغرب. أما

السبب لهذه العبودية فموضوع يحتاج إلى كتاب خاص، ولكنا نستطيع أن نختصره ونلمّ به في كلمات معدودة:

إن الغلبة والاستياء المعنوي يقوم بنيانه في الحقيقة على الاجتهاد والتحقيق العلمي. فكل أمة تسبق غيرها إليه تتولى قيادة العالم وزعامة الأمم، وتستولي أفكارها هي على العقول. وأما الأمة التي تتخلف في هذا الطريق فلا تجد مناصاً من اتباع الغير وتقليده، إذ لا يبقى في أفكارها ومعتقداتها من القوة والأصالة ما يكسبها السيطرة على الأذهان، فيجرفها تيار الأفكار القوية والمعتقدات الراسخة التي تتقدم بها الأمة الباحثة المجتهدة، وهي تكون في وجهه كغثاء السيل، لا تستطيع أن تدافعه أو تثبت أمامه.

إن المسلمين عندما كانوا يتقدمون في مضمار التحقيق والاجتهاد بقيت جميع الأمم تابعة لهم وسائرة في ركابهم، وما برح الفكر الإسلامي غالباً على أفكار النوع الإنساني بأجمعه، وكل ما اتخذه الإسلام من المقياس للخير والشر والحسن والقبيح والخطأ والصحيح يُقدر مقياساً أصيلاً لكل تلك الصفات عند جميع أهل الأرض سواء عرفوا أم لم يعرفوا. وما زالت الدنيا تحاول أن تطبق أفكارها وأعمالها على ذلك المقياس الإسلامي طوعاً أو كرهاً. ولكنه لما انقطع في المسلمين نوع أهل الفكر وأصحاب التحقيق؛ ولما ترك القوم مزاولة التفكير والبحث والتدقيق، وقعد بهم اللغوب عن موالاة الاجتهاد وتحصيل العلم، فلكأنهم تنازلوا من تلقاء أنفسهم عن مكانتهم من قيادة العالم، ونهضت من جانب آخر أمم الغرب تتقدم في هذا السبيل، تستعمل ما آتاها الله من قوى الفكر والتدبير وتنقب عن أسرار هذا الكون وتبحث عن ذخائر القوى النظرية المتكونة في جوف الأرض وأعماق البحار، فكانت نتيجة ذلك ما يجب أن تكون، وهو أن انتقلت قيادة العالم إلى أمم الغرب، واضطر المسلمون إلى الخضوع لسلطتها كمثل ما خضعت الأمم ـ من قبل ـ لسلطتهم. ما زال المسلمون يتقلبون في أعطاف العز والمجد والنعيم الذي ورثوه عن آبائهم مدة أربعة قرون أو خمسة. وبقيت الأمم الغربية في أثنائها تعمل وتسعى وتجتهد. . . وعن غير بعيد تدفق سبيل

السلطة الغربية فجأة وجعل يمتد إلى الشرق والغرب حتى غمر ربوع الأرض في مدة قرن واحد.

ولما تنبَّه هؤلاء الغافلون النيام من سباتهم الطويل وفتحوا أعينهم ليتبينوا ماذا طرأ على الدنيا في أثناء ذلك، رأوا العجب العجاب، رأوا أمامهم أوروبا المسيحية متسلحة بالقوتين قوة العلم والسيف معاً، ومستبدة بالحكم والسيادة في الأرض بالقوتين جميعاً. عند ذلك انبرت من بين المسلمين فئة تحاول صد نفوذها ودفع تيارها عن بلاد الشرق، ولكنها ما كانت من هاتين القوتين ـ العلم والسيف ـ على شيء يذكر، فظلت تفشل وتنهزم في وجهها. وأما السواد الأعظم من الأمة المسلمة فسلكوا ما كان منذ الأزل مذهب أهل الضعف وأبناء الهوان، وذلك أنه كما جاءهم من قبل الغرب من الأفكار والمبادئ والنظريات مدعماً ببأس الحديد ومعززاً بقوة الحجاج وشواهد العلم ومزخرفاً بمفاتن الألوان أنزله ذوو العقول الفاترة والعقليات المغلوبة هؤلاء منزلة الحقائق التي يجب الإيمان بها. وأما المعتقدات الدينية والمبادئ الخلقية والقوانين المدنية العتيقة التي كانت باقية فيهم على أساس من التقليد والآثار فحسب فقد ذهب بها هذا التيار الجديد القوي، واستقر في سويداء قلوبهم ـ من حيث لا يشعرون ـ أن كل ما يأتي من الغرب هو الحق وهو المقياس للصحة والصواب.

إن الأمم التي عارضت حضارة الغرب وزحامتها كانت من أنواع ثلاثة:

١ ـ أمم لم تكن لها حضارة مستقلة مختصة بها.

٢ ـ وأخرى كانت لها حضارة مخصوصة، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع أن تحاول الحفاظ على خصائصها بإزاء حضارة قوية أخرى.

٣ ـ وثالثة لم تكن حضارتها تختلف في مبادئها كثيراً عن هذه الحضارة الطارئة.

كل هذه الأمم ذابت بكل سهولة في الحضارة الغربية وتلونت بلونها بدون أن يقع بين هذه وتلك كبير احتكاك. ولكن المسلمين كانت حالهم

غير حال تلك الأمم جميعها، لأنهم حاملو حضارة مستقلة تماماً ذات دستور واضح مكتمل شامل لجميع شعب الحياة الإنسانية من ناحيتي الفكر والعمل، تختلف اختلافاً كلياً عن مبادئ الحضارة الغربية. فكان ـ بطبيعة الحال ـ أن جاءت هاتان الحضارتان تتزاحمان في كل مجال وتصطدمان على كل صعيد، ولا يزال هذا التصادم قائماً بين القوتين إلى هذا اليوم يؤثر في كل شعبة من شعب حياة المسلمين العملية والاعتقادية أسوأ الآثار.

إن الفلسفة والعلوم التجريبية (Science) اللتين نشأت في أحضانها المدنية الغربية ما زال اتجاههم إلى الدهرية والإباحية والإلحاد وحب المادة منذ خمسة أو ستة قرون. لذلك ما إن ظهرت هذه المدنية إلى حيز الوجود حتى قامت تعارض الدين وتخاصمه. بل الأصح أنها كانت وليدة صراع العقل والتجربة مع الدين والإيمان.

ومع أن الدين لم يناقض شيئاً من مشاهدة آثار الكون والتنقيب عن أسرارها واكتشاف قواعدها الأصولية، ولا خالفت تعاليمه عملية التفكير في مظاهر تلك الآثار واستخراج النتائج منها بعد ترتيبها وأعمال القياس والاستدلال فيها، إلا أنه كان من سوء المصادفات أنه لما ظهرت الحركة العلمية الجديدة في أوروبا على عهد النهضة الجديدة (Renaissance)، وقع عراك شديد بينها وبين القسس النصارى الذين كانوا قد بنوا عقائدهم الدينية على أسس الفلسفة والحكمة اليونانية القديمة، كانوا يزعمون أنه إن جاء التحقيق العلمي والاجتهاد الفكري الجديد يصطدم بتلك الأسس ويهدم ركناً من أركانها، فإن الدين بنفسه سيهدم ويتسوى بنيانه مع الأرض. فهذا الزعم الخاطئ جعلهم يخالفون الحركة العلمية الجديدة ويستخدمون القوة والعنف لمنعها والصد عنها. فأقيمت محاكم التفتيش (Inquisitions) لمحاكمة القائمين بتلك الحركة التي كانت نتيجة نهضة حقيقية راسخة الأصل بقيت تقوى وتنمو على رغم أنف الشدة والقهر، إلى أن طغى سيل الحركة الفكرية في البلاد وذهب تياره بالسلطة الدينية.

وكان الصراع في بدء أمره بين دعاة حرية الفكر وبين الزعماء

الدينيين. ولكن هؤلاء الزعماء لما كانوا يحاربون أنصار الحرية الفكرية باسم الدين، لم يلبث أن تحول هذا الصراع إلى حرب بين حرية الفكر والنصرانية، ثم جعل الدين في نفسه ـ أياً كان ـ خصيم هذه الحركة وندها المحارب، وأصبح التفكير على الطريقة العلمية المنسقة شيئاً مضاداً لطريق الفكر الديني ومختلفاً عنه. ووجب على كل من يفكر في مسائل هذا الكون بالطريقة العلمية المنطقية أن يشق لفكره طريقاً آخر مغايراً للنظرية الدينية في تلك المسائل. إن التصور الأساسي للنظرية الدينية في هذا الكون هو أن كل ما لهذا العالم الطبيعي (Physical World) من المظاهر والآثار يجب أن ترد علتها إلى قوة أعلى وأرفع من هذا العالم. ولكنه لما كانت هذه نظرية أعداء الحركة العلمية الجديدة قرر أصحاب الحركة العلمية أن يحاولوا حل لغز هذا الكون بدون أن يفرضوا وجود إله أو ذات فوق الطبيعة (Supernatural)، وأن يعدوا كل طريقة تبحث في مسائل الكون بغرض وجود الإله طريقة رجعية غير علمية (Uniscientifiic). وبذلك نشأ في قلوب أهل الحكمة والفلسفة في هذا العصر الجديد تعصب على الوجود الإلهي والروح والروحانيات وكل ما فوق الطبيعة، لم يكن آتياً من ناحية العقل والاستدلال، بل كان نتيجة لثورة العواطف وغليانها. فكان هؤلاء الحكماء والفلاسفة المستنيرون لا يتبرأون من ذات الله بحجة أنه قد ثبت لهم عدم وجوده أو عدم وجوبه بالأدلة والبراهين، بل كانوا ينفرون منه لكونه معبود خصومهم وإله المخالفين لحرية فكرهم. ومن ثم كان كل ما أتت به عقولهم وأفكارهم وأنتجته مساعيهم العلمية في القرون الخمسة التالية نابتاً من جذور هذه النزعة غير المنطقية.

إن الفلسفة والعلوم التجريبية لما بدءا سفرهما في مضمار العمل فمع أنهما كانتا تتجهان إلى الجهة المخالفة للإيمان بالله، كانتا بحكم الوسط الديني الذي يكتنفهما تتكلفان الموافقة بين المذهب المادي والإيمان بالله بادئ ذي بدء. ولكنه كلما تقدما في المسير ظل المذهب المادي يتغلب الإيمان حتى خلت تلك الفلسفة والعلوم من تصور وجود الإله وكل ما فوق الطبيعة. وانتهت بهما الحال إلى أن لم يبق شيء من أشياء هذا الوجود، سوى المادة والحركة، حقيقياً عندهم. وأصبحت العلوم التجريبية

(Naturalism) مرادفة للمذهب المادي، وقر اعتقاد أصحاب الحكمة والفلسفة على أن كل ما لم يكن قابلاً للوزن والذرع فهو خيال لا حقيقة له.

يشهد بهذا كله تاريخ الفلسفة والعلوم الغريبة. فهذا ديكارت (Descartes)[١] الذي يعد أبا عذر فلسفة الغرب يؤمن بوجود الله أحر ما يكون من الإيمان ويقر بوجود الروح مستقلاً عن المادة. ثم هو الذي يبتدع ـ بجانب آخر ـ تعليل آثار العلم الطبيعي على الطريقة الميكانيكية ويضع الصخرة الأساسية لذلك الطريق الفكري الذي تحول فيما بعد إلى مادية خالصة (Materialisme). ويتلوه هوبز (Hohbes)[٢] فيتقدمه في هذه الجهة خطوة يخالف ما فوق الطبيعة علناً ويعد نظام العالم وكل شيء من أشيائه قابلاً للتعليل الميكانيكي، ولا يقول بوجود قوة نفسية أو روحية أو عقلية تملك التصرف في هذه الدنيا المادية. ولكنه مع ذلك كله يعتقد بالله وذلك من حيث أن الاعتقاد يمثل هذه العلة للعلل ضرورة يستلزمها العقل؟ وفي هذا العهد يظهر سبينوزا (Spinoza)[٣] زعيم حاملي راية النزعة العقلية (Rationalism) في القرن السابع عشر، فلا يفرق بين المادة والروح والوجود الإلهي بل يجمع بين الإله والكائنات ويجعل منهما كلاً واحداً ولا يقر هذا الكل بسلطة الله المطلقة. كذلك يجيء ليبنتز (Lebnits)[٤]، ولوك (Locke)[٥] الإنجليزي كلاهما يقول بوجود الله وينزع مع ذلك إلى المذهب المادي.

هذه فلسفة القرن السابع عشر التي كان الإيمان بالله يتماشى مع المذهب المادي فيها جنباً لجنب، وكذلك كانت العلوم التجريبية أيضاً لم يغلبها طابع الإلحاد الكامل إلى هذا العهد، فلم يكن كوبرنيكوس (Copernicus) وكيبلر (Kepler) وجيليلو (Galilio) ونيوتن (Newten) وغيرهم

---

(١) المتوفى سنة ١٦٥٠.
(٢) المتوفى سنة ١٦٧٩.
(٣) المتوفى سنة ١٦٧٧.
(٤) المتوفى سنة ١٧١٦.
(٥) المتوفى سنة ١٧٠٤.

من أساطين العلوم الطبيعية، لم يكن أحد منهم منكراً للوجود الإلهي، ولكنهم كانوا يقصدون من بحثهم عن أسرار هذا الكون بقطع النظر عن النظرية الإلهية أن يعثروا على تلك القوى التي تدير هذا النظام، وعلى القوانين التي هو جار عليها، وهذا النفور من النظرية الإلٰهية كان هو النواة للدهرية والمادية اللتين طلعتا من شجرة حرية الفكر فيما بعد. غير أن حكماء القرن السابع عشر لم يشعروا بذلك. وما استطاعوا أن يضعوا الحد الفاصل بين الإيمان بالله والمادية، وإنما ظلوا يزعمون أنهما عقيدتان متآخيتان قد يجمع المرء بينهما في الوقت الواحد، حتى جاء القرن الثامن عشر. فتبين فيه لأهل النظر أن كل أسلوب للفكر يبحث عن نظام هذا الكون بصرف النظر عن وجود الإله لا بد أن يصل إلى الإلحاد والمادية واللادينية، وفي هذا القرن نبغ أمثال جان طولند (J.Toland) وداود هارتلي (David Hartley) ويوسف بريستلي وفولتير (Voltaire) ولامتري (Lamettric) وهولباخ (Holbach) وكيبانس (Cabanis) ودينس ديديرو (Danis Didro) ومونتسكيو (Montesquieu) وروسو (Roussau) من أقطاب الفكر الحر من الحكماء والفلاسفة الذين جاؤوا إما ينفون وجود الله علناً أو يصدقونه من حيث هو حاكم دستوري (Constitutionnal monarch) ليس إلا. وقد انزوى في ملكوته السماوي بعد أن أعطى هذا الكون خلقه وحرك دولابه، فليس له الآن في تدبير هذا النظام يد. كأن هؤلاء لا يعتقدون بشيء خارج الطبيعة وفوق عالم المادة الحركة، وكانوا لا يعتقدون الحقيقة لشيء سوى ما يأتي تحت مشاهدة الإنسان وتجربته.

وجاء هيوم (Hume) يؤيد هذا الطريق الفكري أقوى ما يكون التأييد بنظريته التجريبية (Emiricism) وفلسفته التشكيكية (Septicism)، وأعاد وأبدأ في الدعوة لجعل التجربة هي المقياس لصحة العلوم العقلية. وقام بركلي (Brukeley) إلى هذا التيار المادي المتدفق يزاحمه ويدافعه بكل ما في وسعه، إلا أنه لم يوفق. وكذلك ابتغى هيغل (Hegel) أن يعارض المادية بإشاعة المثالية (Idealism) بين الناس، ولكن قل من عكف على هذا المذهب الخيالي اللطيف منصرفاً عن المتجسمة المرئية، وحاول كانت

(Kant) أن ينهج طريقاً وسطاً بين المادة والروح، فقرر أن وجود الإله وبقاء الروح وحرية الإرادة كل أولئك ليس مما يقع تحت علم الإنسان ومشاهدته، ولذلك فمن غير المستطاع إدراكه بالحواس. إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نؤمن بكل ذلك إيماناً بالغيب، وتتقاضانا المحكمة العلمية (Pratrical Wisdom) أن نفعل.

هذه كانت آخر محاولة للموافقة بين الاعتقاد بالله والمذهب المادي (Naturalism) ولكنها باءت بالفشل، ذلك بأن الضلال الفكري والعقلي لما جعل الوجود الإلهي نتيجة وهم وخيال أو أنزله ـ على أكثر تقدير ـ منزلة وجود منعزل عن التدبير، ولا أمر له ولا سلطان، عند الاعتقاد به والخشية منه والرغبة في رضاه لمجرد الأخلاق والآداب شيئاً عبثاً لا يرضى به العقل.

وفي القرن التاسع عشر بلغت المادية منتهاها، إذ جاء كل من فوغت (Vogt) وبوخنز (Bhonez) وزولبي (Cxalbi) وكومت (Comte) ومولشات (Molschotte) ومن لف لفهم من الحكماء والفلاسفة يبطل وجود كل شيء ما خلا المادة وخصائصها. وقام مل (Mill) بإشاعة التجريبية (Empiricisme) في الفلسفة النفعية (Utilitarianisme) في الأخلاق. وعرض سبنسر (Spencer) بكل قوة وشدة النظرية القائلة بحدوث هذا الكون بدون خالق، وظهور هذه الحياة من تلقاء نفسها. وجاءت موجة الاكتشافات العلمية في مختلف العلوم والفنون كعلوم الحياة (Biologie) والعضويات (Physiologie) والحيوان (Zoologie) وطبقات الأرض (Ceologie) وتقدم العلوم التجريبية وتكاثر الوسائل المادية جاء بكل ذلك يؤكد ويثبت في نفوس الناس أن هذا الكون قد حدث من نفسه ليس له خالق، وهو سائر في طريقه على قوانين معلومة وليس من ورائه مدبر، وقد بقي يتدرج في منازل الرقي بدون أن يكون لذات فوق الطبيعة أثر يعرف في هذه الآلة المتحركة بنفسها. وأن النمو والحركة التابعة للإرادة والإحساس والشعور والفكر كل أولئك خصائص لتلك المادة المرتقبة. وكل من الحيوان والإنسان آلات تجري وتتحرك بحسب قوانين الطبيعة، وتصدر منها الأفعال والحركات على حسب التركيب

الذي قد ركبت عليه أجزاؤها وآلاتها. وهي ليست على شيء من الاختيار الذاتي والإرادة المستقلة.

وأما إذا اختل نظام تلك الآلات أو نفذت قوتها، فعندئذ يحدث الموت، وهو بمثابة الفناء الأبدي، لأن الآلة إذا انكسرت وتفرقت أجزاؤها بطلت أيضاً خصائصها، ولم يعد من الممكن جمعها وإعادة تركيبها مرة أخرى أبداً.

ثم كان لنظرية دارون (Darwin) في الارتقاء أوفر النصيب في تدعيم هذا المذهب المادي وإحلاله محل النظرية العلمية القائمة على الأدلة والبراهين.

ويعد كتابه أصل الأنواع (Origin of Species) الذي ظهر سنة **١٨٥٩** لأول مرة كتاباً انقلابياً عجيباً. فاستدل دارون بالطريقة التي كانت أمتن الطرق للاستدلال عند العقول المستنيرة السانتيفيكية في القرن التاسع عشر، وصدق النظرية القائلة بأن نظام هذا الكون يمكن أن يجري بدون الإله. ولم تكن آثار الطبيعة ومظاهرها لتكون لها علة أو مرجع غير قوانين الفطرة نفسها، وأن ارتقاء الموجودات من أبسط مراحل الحياة إلى أعلاها وأقصاها نتيجة عمل تدريجي لقوة طبيعية متجردة من صفات العقل والحكمة. وليس خالق الإنسان وخالق سائر الأنواع الحيوانية بصانع حكيم، بل الأمر أن تلك الآلة الحية التي كانت في بداية أمرها دوداً يدب قد أصبحت بفعل العوامل المختلفة كتنازع البقاء وبقاء الأصلح والانتخاب الطبيعي إنساناً ناطقاً ذا إحساس وشعور.

المصادر التي تعود إليها الحضارة المادية:

هاتان هما الفلسفة والعلوم التجريبية اللتان قد نتجت عنهما الحضارة الغربية، وهي كما ترى لا دينية بحتة ولا مجال فيها للإيمان بإله في السماء عليم وقدير، ولا وزن فيها لنبوة أو وحي وإلهام، ولا تصور فيها لحياة الدنيا كما لا وجود فيها لمسؤولية ملقاة على الإنسان، ولا إمكان فيها لمقصد أو غاية أجلّ وأسمى من المقاصد الحيوانية لحياة الإنسان. هذه

حضارة مادية تماماً يخلو نظامها من كل ما تقوم عليه حضارة الإسلام من خشية الله واتباع القصد وحب الصدق وطلب الحق وطهارة الأخلاق والنزاهة والأمانة والبر والحياء والتقوى والنظافة، ونظريتها على نقيض من نظرية الإسلام، وطريقها واسع في الجهة المعاكسة لطريق الإسلام. فكل ما يبني عليه الإسلام نظام الأخلاق الإنسانية والتمدن، تكاد هذه الحضارة تأتي عليه من القواعد. كما أن الأسس التي ترفع هذه الحضارة عليها قواعد السلوك الفردي والنظام الاجتماعي لا يمكن أن يقوم عليها بنيان الإسلام ولو ساعة من الدهر. فكان الإسلام والحضارة الغربية سفينتان تجريان في جهتين متعاكستين، فمن ركب إحداهما هجر الأخرى ولا بد. ومن أبى إلا أن يركبهما في الوقت الواحد، فاتتاه معاً وانشق بينهما نصفين[١].

***

ومن سوء المصادفات أن القرن الذي بلغت فيه هذه الحضارة الجديدة أوج كمالها من المادية والدهرية والإلحاد، كان هو القرن الذي ابتليت فيه ممالك الإسلام من لدن مراكش إلى الشرق الأقصى بغلبة أمم الغرب لها في الحكم والسياسة. فكان هجوم الغرب على الشعوب المسلمة في ميدان القلم والسيف معاً. وأصبح مجالاً للعقول التي راعتها غلبة الغرب السياسية وبهرتها أن لا تتأثر بروعة الفلسفة والعلوم الغربية وببريق المدنية التي نشأت في أحضانها.

وساءت الحال خاصة في الأمم المسلمة التي دخلت تحت حكم دولة من دول الغرب، لأنها اضطرت لأجل الحفاظ على مصالحها الدنيوية إلى

---

(١) وهذا هو واقع عامة المسلمين المنبهرين بالغرب الملحد وصناعاته من جهة، والجاهلين لدينهم وقيمهم من جهة أخرى، وذلك ما جعلهم في الواقع يعيشون تيهاً حضارياً وفكرياً عاصفاً جعلهم يفقدون خصائصهم من جهة، ويعجزون عن الاندماج في الحضارة الأوروبية من جهة أخرى. ولا مخرج من هذا المأزق إلا بالرجوع إلى الذات المتمثلة في عقيدة الإسلام وحضارته المبنية على الروح والمادة كما يتمثل ذلك في أصل الإنسان. طين + روح الله عز وجل، والذي لم يدركه المسلمون بعد هو: فشل الحضارة المادية في إيجاد الحلول المناسبة لحياة الإنسان كما هي في القرآن والسنة.

تحصيل علوم الغرب. ولما لم يكن هذا التحصيل مقصوداً من ورائه طلب العلم مجرداً، وكان يجلس التلامذة الشرقيون أمام أساتذتهم الغربيين بعقول مرتاعة مفتتنة، درج النشء المسلم الجديد على أشد ما يكون من الانفعال والتأثر بالأفكار الغربية والنظرية العلمية. وظلت عقلياتهم تتلون بلون الغرب وبقي يمتد في نفوسهم نفوذ المدنية الغربية ولم يفتح الله عليهم بالبصيرة الناقدة التي تميز بين الصحيح والزائف فتجعلهم يختارون الصحيح دون الزائف، ولا هم وجدوا في أنفسهم من الأهلية والكفاءة ما يفكرون به تفكيراً حراً مستقلاً ويرون آراءهم في مسائل حياتهم بالاجتهاد الشخصي. وكان من عواقب ذلك ما نشاهده اليوم من أن الحضارة الإسلامية قد تزلزلت أركانها، وأن العقليات التي كانت حَرِيَّة بأن تفكر التفكير الإسلامي الصحيح قد فسد تكوينها، وأن العقول التي تعودت أن تفكر بأسلوب الغرب وتؤمن بمبادئ حضارته لا تصلح بحكم مزاجها وتركيبها المخصوص أن تستقر فيها مبادئ الإسلام، وإذا هي لم تتسع للمبادئ فما أحراها أن تنفر من الجزئيات والفروع، وتخالجها في بابها أنواع الشكوك.

ما من شك في أن السواد الأعظم من المسلمين لا يزال إلى هذا اليوم يعتقد بصدق دعوة الإسلام ويريد أن يبقى مسلماً. ولكن كثيراً من العقول الناشئة لا تزال تتأثر بالفكر الغربي والحضارة الغربية وتنحرف عن جادة الإسلام انحرافاً هو إلى الزيادة والانتشار كل يوم. وأن سيطرة الغرب الفكرية وتمكنه العلمي - بصرف النظر عن غلبته واستيلائه السياسي - قد غمر الجو الفكري العالمي وغيَّر من وجهات نظر الأبصار بحيث أصبح لا يتأتى لأولي النظر أن ينظروا بعين المسلم، ولا لأولي الفكر أن يفكروا بأسلوب الفكر الإسلامي. وهذا الوضع الحرج لن يخرج عنه المسلمون ما لم ينبغ فيهم عباقرة من أهل الفكر الحر. وبعبارة أخرى أن الإسلام في أوقاتنا هذه لفي حاجة إلى نهضة جديدة (Renaissance)، وأن إنتاج المفكرين والمحققين من أسلافنا القدامى لم يعد ذا غناء وكفاية، لأن الدنيا قد بعدت في سيرها إلى الأمام، ولم يعد من الممكن أن يرجع بها القهقرى إلى المراحل التي كانت جاورتها قبل ستمائة سنة. وأن الزعامة في ميدان العلم

والعمل اليوم لا ريب مكفولة لمن يتقدم بالدنيا إلى الأمام لا لمن يجذبها إلى الوراء، فإذا كان الإسلام يريد أن يعود إلى مكانته من سيادة العالم فلا سبيل إليه إلا أن ينبغ في المسلمين رجال من أصحاب الفكر والتحقيق، يهدمون بقوة فكرهم ونظرتهم وبحثهم واكتشافهم تلك الأسس القائم عليها صرخ الحضارة الغربية، ثم يمارسون مشاهدة الآثار والفحص عن الحقائق على هدي الأسلوب القرآني للفكر والنظر، ويبنون بذلك نظاماً للفلسفة جديداً منتزعاً من الفكر الإسلامي الخالص، ويرفعون قواعد علوم طبيعية (Natural Science) جديدة تنهض عمارتها على الخطوط المرسومة في القرآن الكريم، ويبطلون النظرية الإلحادية إبطالاً، ويؤسسون الفكر والتحقيق على النظرية الإلهية، ثم يتقدمون بهذه الحركة ـ حركة الفكر والتحقيق الجديد ـ بقوة وعزيمة تضمنان السيطرة على جميع العالم، وتقوم في الدنيا حضارة الإسلام الحقة مكان حضارة الغرب المادية.

***

كل ما قلناه آنفاً؛ نستطيع أن نفهم مغزاه بالتمثيل الآتي: أن هذه الدنيا قطار تسيرة قاطرة الفكر والتحقيق، ومقاليد هذه القاطرة بأيدي المفكرين والمحققين والنوابغ، والقطار جَارٍ لا محالة إلى حيث يريد سائقه أن يجري والسفر الراكبون فيه مضطرون بطبيعة حالهم أن يسيروا معه كيف سار، سواء رضوا أو سخطوا، فإذا كان من ركب القطار من لا يريد أن يسافر في الجهة التي هو سائر فيها، فقصاراه أن يغير وجهة مقعده من القدام إلى الخلف أو إلى اليمين أو إلى اليسار، على حين أن القطار يجري وهو بعد قار في موضعه فيه، ولكنه لا شك ليس بمغير وجهة سفره بتغيير وجهة مقعده على هذا النحو. لأن ما هناك من سبيل إلى تبديل وجهة السفر إلا أن يسيطر على مقاليد القاطرة ويدار وجهها نحو الجهة المطلوبة. فالذين هم قابضون الآن على أزمة الجهاز المحرك هم كلهم معرضون عن الله، أجانب عن الفكر الإسلامي، لذلك لا يزال القطار يسير بمن فيه إلى المادية والإباحية والإلحاد وجميع الراكبين فيه يزدادون بعداً عن غاية الإسلام ومقصوده، فإن

أريد تبديل هذا الاتجاه المنحرف وتصحيح الجهة الخاطئة التي يسعى إليها قطار الإنسانية فلا بد من رجال أولي همة وعزيمة صادقة ينهضون من صفوف أهل الإيمان ويمارسون العمل الجدي والسعي الدؤوب والاجتهاد المتواصل، حتى ينتزعوا مقاليد الأمور من أيدي الملحدين، ومن البديهي أنه ما لم يتحقق ذلك وما دامت الحال على ما هي عليه، فلا شك أن القطار لن يزال يسير في هذا الطريق الخاطئ الذي يسوقه إليه أصحابه اللارباويون مهما كان من ضجر الركاب منه وغضبهم له واحتجاجهم عليه[1]!.



(١) نحن والحضارة الغربية، أبو الأعلى المودودي، صفحات: ٩ ـ ٢٨.

تعليق: إن المعاني الحضارية التي تضمنتها الصفحات السابقة تبين للمسلمين حقيقة أساسية تتمثل في كون الاستقلال السياسي، والعَلَمْ، والجيوش الوطنية، كل ذلك يظل مجرد وهم ما لم يتحقق الاستقلال الفكري الحضاري، وتتوقف التبعية بكل أنواعها ومستوياتها بما في ذلك التبعية الأدبية. وتصبح حياة المسلمين بكل جوانبها المادية والمعنوية تجسد في الواقع حاجاتهم، ومقوماتهم، وخصائصهم في دولهم، وغذائهم، ومنتجاتهم، وكل مظاهر وجودهم، بذلك وحده يتحرر المسلمون التحرر الحقيقي غير المغشوش ولا المزيف الذي ما جر إليهم إلا التأخر، والفقر، والفوضى ومزيد الأزمات لكونهم لا يعيشون بذواتهم، وإنما يعيشون حسب سيطرة ووصايات غيرهم.



نحو فهم صحيح لحضارتنا... وحضارة الغرب

كيف نتخلص من الأوهام وننهض من جديد؟

إن ما يشهده عالمنا المعاصر من إنجاز حضاري شامل، أمر لم تشهد له البشرية مثيلاً من قبل. وليس مبلغ العجب فيه أنه في مجموعه جديد على البشر، إذ أن ماضي الإنسان القريب مليء بكثير من الأفكار والنظم التي تعتمد عليها حياتنا المعاصرة، ولا فضل لنا في معظمها سوى تطبيقها. فمعظم هذه النظم الفكرية والفلسفية والاجتماعية قديم قدم الفكر البشري، كان كل مجتمع يتناول ما يتهيأ له منها بالقدر الذي يستقيم وظروف بيئته الزمانية والمكانية، مضيفاً على ما يتناول طابعه الخاص وصبغته المميزة. ولهذا السبب اختلفت لغات البشر وعاداتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية، وإن التقوا جميعاً حول أفكار محددة معروفة، هي التي لخصتها لنا تعاليم الأديان وحفظتها لنا آثار الفلسفة والمفكرين على مر الزمان.

ليس الجديد هو هذا التطور في حياة البشر، بل الجديد هو الطريقة التي يتم بها هذا التطور. فقد أحدث تقدم العلم الطبيعي واستثمار نتائجه في خدمة الحياة تغيرات جوهرية في مسيرة البشر، كان أهمها وضع طاقات جبارة في أيدي الأمم الغربية التي سبقت بقية العالم إلى الثورة الصناعية، فتقدمت وسائل المواصلات، وتطورت أساليب التجارة والزراعة، وكان لا بد من اكتشاف الأسواق وضمان موارد المواد الخام، فتطورت بالتالي أدوات

التسلط والقهر من أسلحة ومعدات، وانتهت في نهاية القرن الماضي بسيطرة الدول الغربية على معظم شعوب العالم. وكانت هذه الأمم الغربية بحكم هذا الوضع هي التي تصنع الحضارة[1] ثم تصدر أدواتها وأشكالها إلى الشعوب الواقعة تحت سيطرتها. ومن ثم عمت هذه الحضارة الغربية وأدواتها المختلفة كل العالم بحيث يندر أن نجد مكاناً في العالم أخطأه الراديو أو التليفون أو السينما أو السيارة أو الطائرة وما إليها من مستلزمات الحياة الحديثة.

وكان يصحب هذه الأدوات المادية أفكار بعينها، وتواكبها مفاهيم اجتماعية وليدة البيئات التي عاشت تجربة التحول الاجتماعي في بلاد الغرب. وقد مكن الاستعمار الغربي، بحكم سيطرته على مقدرات الأمم والشعوب، لكثير من هذه الأفكار والمفاهيم أن تجد طريقها إلى حياة الأمم والشعوب، وإلى حياة الأقوام المستعمرين وتسلك سبيلها إلى مناهج التعليم وأحكام القانون، فحلَّت بذلك محل ما ألفه الناس في حياتهم الموروثة من تقاليد وأحكام.

❊ ❊ ❊

وحدة الحضارة الغربية

ومما ساعد على طغيان هذه النظم الغربية، ومكن لكثير من مظاهرها على التسلط أنها وليدة حضارة واحدة رغم اختلاف الأمم الغربية المتسلطة، فإن مما يميز الحضارة الغربية وحدتها الفكرية والروحية رغم اختلاف الشعوب المنتجة لها. هذا في حين أن معظم الحضارات التي غزتها هذه الحضارة لا يربط بينها إلا أوهى الروابط، كما هو الحال في آسيا مثلاً حيث الحضارة الإسلامية والهندوكية والصينية واليابانية وما إليها، وقُلْ مثل ذلك في إفريقيا وفي بقية أنحاء العالم غير الغربي. وقد

---

(١) للمؤلف.

ساعد تركز الثروات في ديار الغرب كما أدى استغلال طاقات الشعوب في الاستثمار التجاري والصناعي إلى هذه الثورة العارمة في مجال إنتاج سلع الاستهلاك بأثمان زهيدة، مما أحدث آثاره البعيدة في حياة البشرية جمعاء، وكل ذلك يستدعي تحولات كبيرة في دورة الحياة التقليدية الرتيبة، ويتطلب تطوراً حثيثاً في حياة الناس الفكرية والاجتماعية يتلاءم وتطور ظروف الحياة المادية، وانتقال الناس من وضع اجتماعي بعينه إلى وضع آخر مختلف عنه.

ولم تكن معظم هذه الشعوب التي تستهلك هذه الأدوات الحضارية ولا تنتجها، وتتأثر بها كل هذا التأثر، وتتعرض لكل هذه الهزات الاجتماعية العنيفة التي تتطلب الكثير من الروية والتفكير حتى يجيء التغيير في هياكل الحياة الفكرية منسجماً مع حياة الأمة الشعورية، متجاوباً مع ضميرها الاجتماعي، لم تكن معظم هذه الشعوب مالكة لأمرها وهي تمر بأدق المراحل حساسية في حياتها ووجودها، كان المستعمر المتسلط هو الحاكم بأمره في مصيرها. فهو الذي أتى بأدوات الحضارة، وهو الذي راقب ما تحدثه من أثر، وهو الذي سعى إلى فرض حلول لمشاكل هذه الشعوب نابعة من تجربته هو لا من تجارب هذه الشعوب الاجتماعية وكيانها الشعوري. وكانت هذه الحلول النابعة من تجربة الغرب الذاتية تقدم لهذه الشعوب المستضعفة بحسابها حلولاً إنسانية صالحة لكل زمان ومكان، وعلى أساس أن هذه الحضارة التي يتحدثون باسمها هي حضارة عالمية، وهي الكلمة النهائية وفصل الخطاب في كل ما يتعلق بالتقدم البشري، أليس أصحابها هم سادة العالم وهم المنتجون للحضارة وكل العالم عالة عليهم؟ أوَليست أدواتهم وآلاتهم ووسائلهم إنتاجهم هي التي تتحكم في حياة الشعوب، وتحدث فيها كل هذه التحولات الاجتماعية الكبيرة؟ إذن فما الذي يمنع هذه الحلول التي يقدمون بها لعلاج المشاكل الناجمة عن آلاتهم من أن تكون هي الفيصل والقدر المحتوم الذي لا يستطيع له الناس دفعاً أو يجدون عنه متحولاً؟؟!!

* * *

وهم الحضارة الغربية

لقد ظل الناس ردحاً من الزمان وهم يعيشون هذا الوهم الحضاري الذي مكن له الاستعمار بسيطرته على حياة الناس الفكرية والاجتماعية، وما يزال كثير من المتعلمين يرددون شعارات الدعاية الوطنية لأمم الغرب التي نجح الاستعمار الغربي في فرضها على كثير من هذه النظم الغربية في ديار الغرب، ونجاح الغرب في فرضها على كثير من الشعوب المستضعفة لا يعني عالميتها، بل يعني أن الغرب بحسبانه أعظم المناطق الحضارية حيوية وفاعلية في الوقت الحاضر، هو الذي فرض هذا الفهم، وأن كثيراً من المجتمعات الأخرى قد تقبلت هذا الفهم طوعاً أو كرهاً بحكم جمودها وتخلفها الحضاري، فهي على أحسن الفروض تقلد ما يقدمه المتقدمون من البشر، وتحسب أن ما صلح لهم لا بد أن يصلح لها، خاصة وهي عاجزة عن البديل. ثم إن كثيراً مما يأتيها عن هذا السبيل في شكل سلع وبضائع وأدوات صالحة بالفعل لكل الناس مهما اختلفت أشكالهم، أو تباعدت أوطانهم فالراديو عالمي، والسيارة عالمية وهكذا كل المنتجات الصناعية، ومعنى هذا أن عالمية أدوات الحضارة لا تعني عالمية الحضارة، وكل ما تعنيه أن الثورة العلمية التي تفجرت في العصور الحديثة ومنحت أمم الغرب هذه القوة التي فرضت بها سطوتها وأفكارها على بقية شعوب العالم هي العنصر المطلق الوحيد في كل هذه المظاهر الحضارية.

إن التقدم العلمي الذي أسهمت فيه كل البشرية، وطورت أساليبه كافة الشعوب خلال القرون، هو العامل العالمي في هذه الحضارة السائدة، أما تقارب وجهات النظر في كثير من القضايا الفكرية والاجتماعية، التي تصدر عن أمم الغرب وكأنها رجع الصدى لعامل واحد مشترك، فليس مرده إلى الزعم القائل بأن تطبيق أدوات العلم على حياة الناس يصدر عنه بالضرورة ما صدر في حالة التجربة الغربية، ومن ثم يكتسب عالميته وحتميته الموضوعية. وإنما مرده إلى وحدة المصدر الحضاري التي نبعت منه الحضارة الغربية، المرتكز على التراث اليوناني الروماني، المصطبغ في كثير

من جوانبه بالأثر المسيحي، فإن كثيراً من أفكار القوم في المسلك والحياة الاجتماعية هو رجع الصدى لما كان يجري في أثينا أو إسبارطا أو روما، وقد لطفت منه تعاليم المسيحية الغربية، فظروف أوروبا الحضارية والتاريخية والجغرافية والبشرية كان لها النصيب الأوفر في منح حضارتها مظهر التوحد الذي برز به العالم، وكان التقدم العلمي والصناعي الذي بسطت به سطوتها على العالم بمثابة النهر الجارف يحمل الري للناس، ولكنه ينقل على صفحته الطمي والأعشاب والمراكب والبواخر وما أشبهها من الأدوات التي تتغير بتغير المناطق والأقوام الذين يمر بهم النهر.

وحتى مظهر التوحد هذا، الذي تبدو به الحضارة الغربية، توحد على شكل لا يتعدى بعض الأسس العامة، التي لا تحول دون بروز الشخصية القومية والوطنية للشعوب والأقوام الأوروبية، كما هو واضح في الفروق الثقافية بين المجموعات الرومانسية والمجموعات الأنجلو سكسونية في غرب أوروبا، إذ ما أبعد الفرق بين الشخصية الإنجليزية والشخصية الإيطالية، وكلاهما ينبع من مصدر حضاري واحد.

* * *

انحسار المد الاستعماري

إن انحسار المد الاستعماري المباشر عن كثير من بقاع العالم يستتبع بالضرورة انحسار كثير من الأفكار المضللة التي زرعها المستعمرون في عقول رعاياهم حتى يضمنوا السيطرة الفكرية على حياة الناس ويشكلونها بطريق غير مباشر، بحيث يضمنون استمرار مصالحهم القومية باستمرار نفوذهم الحضاري على عقول الناس وحياتهم. ومن أولى هذه الأفكار المضللة اعتبار تجربة الغرب الذاتية في مجابهة تحديات الثورة العلمية والصناعية تجربة موضوعية مطلقة عالمية، على كل الناس احتذاؤها وتقليدها لحل مشاكلهم القومية.

إن فكرة ديمقراطية الحكم مثلاً فكرة إنسانية قديمة، سعى الناس منذ عهد الإغريق لتطبيقها وفرضها كنظام سياسي، والنظام البرلماني ما هو إلا تطبيق للفكرة كما تهيأ للشعب الإنجليزي أن يطبقها، فهو على أحسن الفروض نظام خاص صلح لشعب بعينه، ولكنه حين انتقل إلينا في كثير من دول العالم الثالث صوّر لنا وكأنه الحل النهائي المطلق لمشكلة الحكم في العالم الثالث. وقد تبين لنا الآن كما تبين للكثيرين غيرنا في بلاد العالم الثالث سطحية هذه الدعوى، وأدركنا أن ما أنجزه غيرنا في مجال العمل السياسي والاجتماعي لا يعفينا من مهمة السعي والتجريب للوصول إلى ما يصلح لنا، ويتجاوب مع ظروفنا، ويتلاءم وتجربتنا الحضارية، غير مغفلين لتجارب غيرنا من البشر، وما اكتشفنا ضلاله في مجال العمل السياسي يمكن أن نكتشف الكثير مثله في مجالات حياتنا التعليمية والقانونية والاجتماعية، ومعظمه نابع من تجربة غيرنا، وفرض علينا كنظام موضوعي أمثل، وهو نظام ذاتي يعبر على أحسن الفروض عن حالة القوم الذي نقلناه عنهم أو نقلوه إلينا، وقد يكون في تراثنا ما هو خير منه وأصلح لحاجتنا منه، ولكننا صرفنا عما عندنا لنرد مما هو دونه.



الطريق إلى المستقبل

إننا نعيش في كثير من أوجه حياتنا بمفاهيم ونظم نابعة من حياة غيرنا بحكم التسلط الاستعماري الذي جثم على صدورنا حقبة من الزمن، فانفصلنا بذلك عن مصدر أصالتنا وروح تراثنا التي ما تزال حية في أعماق شخصيتنا، وكل ذلك مما يصيب حياتنا العامة بهذا القلق والتمزق والحيرة والتخبط بين ما هو كائن في حياتنا ولا نرضى عنه، وبين ما يجب أن يكون ولسنا قادرين بفعل هذه الحيرة والتخبط عن إدراكه. إن انصرافنا عن تراثنا هذه الحقب الطويلة وجمودنا القرون عن الحركة، يثير في نفوس كثير من الناس الفزع والخوف والقلق والنفور، ويحسبون الرجعة للتراث وهو على

هذه الحالة نكوصاً على الأعقاب، ورجعة للوراء إن لم تكن قفزة في فراغ، وهم محقون في بعض ذلك، لأن الرجعة للماضي وحدها لا تحل قضايا الحاضر، ولا تسهم في بناء المستقبل، ولكننا إن أردنا التقدم الحقيقي فلا بد من أن نبدأ من حيث انتهينا قبل أن تدهمنا الغزوة الاستعمارية وتحولنا عن خط سيرنا حتى تهنا كل هذه السنوات وتخبطنا في دروب الآخرين.

إننا نرجع إلى طريقنا القديم لا لنرجع به القهقرى، ولكن لنواصل منه السير في الطريق الحضاري الذي يتصل فيه ماضي الأمة بحاضرها، مستعينين في ذلك بثمرات العلم والمعرفة من منطلق قيم حضارتنا، حتى نحقق ما حققه الغربيون في نهضتهم الأخيرة حين رجعوا لماضيهم في القرون الوسطى بعد أن سلكوا سبيل الحضارة الإسلامية فترة من الزمن قدحت في نفوسهم جذوة البحث عن الذات، حتى اهتدوا إلى هذه الصيغة التي يلتقي فيها الماضي بالحاضر وتحقق بها الشخصية القومية، فيتصل إبداعها وتتطور دون أن تمزقها هذه الحيرة، أو يبدد جهودها تقليد تجارب الآخرين[1].

بقلم: د.عون الشريف قاسم



(١) مجلة الدوحة، العدد: ٩٣، ذو الحجة ١٤٠٣هـ ـ أكتوبر ١٩٨٣م.



الأساس النظري للحضارة الإسلامية

لا قيام لحضارة بدون أساس نظري، وهذا ما يبرر تمسك الإسلام بمبادئ ذات طبيعة فلسفية كركيزة مفهومية للواقع الاجتماعي والمادي.

ومن صفات النظرة الفلسفية اتجاهها إلى الشمول في تكوين نظريات وعقائد، وصياغة مفاهيم جامعة، وصور عامة للكون والحياة الإنسانية، فبدون مفهوم عام للوجود يسقط الكون المادي والروحي للإنسان في فوضى.

والتساؤل عن مفهوم فلسفة مّا وتصورها عن الحضارة هو تساؤل أولاً عن نظرتها إلى الكون.

يقول بتريم سوركين: «إن الفرق الأساسي بين الحضارات ينشأ من مفاهيمها العامة للإنسان وللوجود، وأن ميزات كل حضارة تستخلص من الجواب الذي يعطيه أبناؤها إلى السؤال التالي: ما هي طبيعة الأصل الذي ينبثق منه الوجود وتتحدد به القيم؟».

إن الأجوبة تختلف حول السؤال برد الوجود إما إلى أصل متعال، وإما إلى الوجود ذاته، أي أن حقيقة الوجود صادرة منه ومنبثقة عنه، وإما أصل حسي محض أي أن حقيقة الوجود صادرة منه ومنبثقة عنه، وإما أصل حسي محض أي أن هذا الاتجاه يرى أن لا حقيقة ولا قيم خارج الحس.

وباختلاف الأجوبة على السؤال تختلف أنماط الحضارات، وتتنوع العقبات.

ومن هذا المنطق، نجد الإسلام واضحاً في تصوره للحضارة،

وتأسيس مفهوم عام للإنسان، وإذا لم يكن القرآن الكريم بالضرورة كتاب فلسفة[1]، فإن الدين الإسلامي في مجموعه فلسفة، لأنه يمثل خطة سير ومنهج حياة.

إن الإنسان هو موضوع الرهان في جميع الحضارات. والإسلام يكرم الإنسان عقلاً وجسماً وسلوكاً، وهو تكريم ينطلق من مبدأ شمولي يربط بين الإنسان والعالم.

فما هي مبادئ الإسلام ذات الطبيعة الفلسفية؟ إننا نستعرضها في نقاط مركزه نقلاً عن كتاب (الثورة والدين) للرئيس الغيني أحمد سيكوتوري، المفكر والفيلسوف.

(ترجم الكاتب صاحب المقال):

العالم لم ينشأ من العدم ومن ذاته وإنما يؤكد الدين أنه من إبداع الإله الحكيم الموجود في كل مكان.

إن الله وحده، هو الوحيد المطلق لم يلد ولم يولد.

إن الكون معقد ومنسجم ومسير تسييراً حكيماً في الحركة اللانهائية التي تميزه، وأن كل شيء يخلق ويفني في إطار هذا الكون.

إن الإنسان هو المخلوق المحظوظ، خلقه الله وأنعم عليه بالعقل وبالقدرات التي تتيح له التفكير والتمعن والتقرير وإنجاز كل شيء، متحكماً في جزء من المكان وفي جزء من الزمان الذي يشمل وجوده.

وأنه بدون عقل وبدون وعي وبدون إرادة لا يمكن للإنسان أن يكون أسمى من كائنات أخرى تمثل كتلة من المواد أكثر ثقلاً وأكثر كثافة من تلك التي تعطي للإنسان شكله المعقول.

وأن الروح والعقل والشعور وليست من المادة في شيء «تكون من العنصر الأسمى» والمحرك الديناميكي للكائن الحي.

تلك نظرة الدين للإنسان وللعالم، وعلى أساسها يمكن بناء حضارة

---

(١) القرآن الكريم أعني: معانيه الربانية عن الإنسان، ووظيفته في الكون أكبر من الفلسفة وأعظم، فالفلسفة منتوج بشري محدود الزمان والمكان. بينما القرآن الكريم يتضمن الكون كله بقسميه: عالم الغيب والشهادة، والزمان بأقسامه، والمكان قبل وجوده.

كاملة.

تصوران متطرفان:

كثير من الفلاسفة يقدمون تصوراتهم النظرية عن الحضارة الإنسانية، نذكر من بينهم على سبيل المثال أرنولد توينبي، وأشبنغلر، وألبرت أشفيتسر، وهيجل، وأنجلز، وغيرهم، وكل من هؤلاء الفلاسفة، على ما بينهم من اختلاف كبير في نوع النظرة وعمقها ودقتها، يؤكد على جانب معين بالذات كمبدأ للحضارة.

يرى أشفيتسر، أن الحضارة في جوهرها أخلاقية من حيث ماهيتها وطبيعتها، وفي رأيه فإن تأثير المعتقدات الأخلاقية كان حاسماً في تكوّن مختلف العلاقات في المجتمع البشري على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو بطريقة مثالية.

ويربط أشفيتسر بين كل تقدم إنساني وحضاري وبين امتلاك نظرة إلى الكون، ومن نفس المنظور، يربط الحرية المادية بالحرية الفكرية والروحية لأن طبيعة الحضارة روحية أساساً ما دامت هي النتيجة لسيادة العقل على الطبيعة من ناحية، والسيادة على نزوات الإنسان وأهوائه الهوجاء من ناحية أخرى.

وأهم الواجبات الملقاة على الفكر الفلسفي هي صياغة نظرة إلى العالم تتضمن جذور كل الأفكار والمعتقدات وألوان النشاطات الإنسانية المتصلة بالعصر. فهذه النظرة الفلسفية المكتملة إلى العالم هي الأساس النظري للحضارة، أنها تقصٍّ عميق ومتبصر لمعنى المجتمع والإنسان وعلاقته بالعالم، وغاياته في العالم.

ولكل ذلك، فإن (الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان وتحسين الأوضاع الاجتماعية والسياسية للشعوب في مجموعها، وأن تكون عادات التفكير خاضعة لهذه المثل بطريقة حية ثابتة).

أما بالنسبة لماركس وأنجلز، فإن الحضارة ذات مبدأ مادي محض،

والوضع المثالي الذي يسعى نحوه الإنسان، كما يظهر في نموذج أشفيتسر أو عند هيجل قبله مثلاً، لن يكتمل أبداً، لأن النظم الاجتماعية التي تتعاقب في التاريخ ليست إلا مرحلة مؤقتة لتطور المجتمع الإنساني الذي لا نهاية له[١]، من درجة دنيا إلى درجة عليا.

المجتمع الكامل، والدولة الكاملة، بالنسبة لماركس وأنجلز (إنما هما شيئان لا يمكن لهما وجود إلا في المخيلة).

والحضارة مرتبطة بتطور المجتمع الطبقي وتمثل مجموع النتاجات المادية والفكرية التي ترجح بدورها إلى أصل مادي، والشكل الذي تتجلى فيه الحضارة في مجتمع من المجتمعات هو شكل تاريخي مرتبط بنمط الإنتاج الطبقي المسيطر في التركيب الاجتماعي، ولهذا لا يمكن الكلام بالنسبة لهذين المفكرين إلا عن حضارة إقطاعية أو رأسمالية أو اشتراكية.

أي أن الحضارة هي (تلك الدرجة من تطور المجتمع الذي بلغ فيه تقسيم العمل، والتبادل الناجم عنه بين الأفراد، والإنتاج الصناعي الذي يجمع هاتين الظاهرتين، الازدهار التام، وتؤدي فيه العوامل الثلاثة إلى انقلاب في عموم المجتمع السابق).

مفهوم الحضارة بالنسبة لماركس وأنجلز يتعين في أشكال محددة من الإنتاج الاجتماعي في نطاق علاقات إنتاجية محددة تختلف باختلاف نمط الإنتاج.

الحضارة ومنظور الإسلام:

قدمنا هذين النموذجين المتطرفين في تصور الحضارة ليتبين لنا موقع الدين الإسلامي في خريطة التفكير الفلسفي حول الحضارة، ومن السهل الحكم على الإسلام بأنه يقف موقفاً وسطاً، فالإسلام هو دائماً دين الوسط:

---

(١) لا نهاية الحياة مفهوم وتصور غير إسلامي نابع من عقيدة غير صحيحة، بينما يبين القرآن الكريم أن التطور الإنساني له نهاية حتمية هي الفناء دون شك والكاتب لا يعبر عن معتقداته الخاصة، وإنما يعرض تصوراً لفيلسوف ملحد كان ينبغي عرضه بأسلوب أكثر تحفظاً. والله أعلم.

و﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1]، ولكن ما هي بيانات هذا الموقف الوسط من الناحية النظرية؟

إن الإسلام في أصله ذو نزعة إنسانية، وقبل أن نستمر في حديثنا، ينبغي أن يرجع لهذه الصفة الإنسانية اعتبارها بعد كل الهجوم الذي تعرضت له من طرف فلاسفة يعتبرون كل نزعة إنسانية قد بلغت نهايتها.

فلقد خضعت القيم التي تدور حول الماهية الإنسانية، ومفهوم الإنسان الكلي إلى الانتقاد والتشكيك، بتهمة التزييف، وتأليه الإنسان باتخاذه مرجعاً لحل جميع المشاكل السياسية والأخلاقية والعلمية، واستخلاص الدلالات وعلاقات الأشياء منه وحده، إلى حد الطموح إلى إضفاء الطابع الإنساني على الطبيعة.

وتمردت بعض الاتجاهات الفلسفية على هذه النظرة إلى الإنسان، بدعوى أنه ليس مركزاً للكون، وأنه لا تطابق بينه باعتباره عالماً صغيراً، وبين العالم الكبير.

وبلغ هذا التمرد على الإنسان قمته مع نيتشه وماركس وفرويد حتى أصبحت كل نزعة إنسانية مرفوضة وكأنها عملة مزيفة.

لكن هذه النزعات الفلسفية التي أصبحت مفاهيمها عن الإنسان اليوم عتيقة ومتجاوزة، وبقي مفهوم الإسلام عن الإنسان خالداً، ساعدت على هدم الإنسان بطرق مختلفة، وأكدت على هذا الاتجاه خصوصاً التطبيقات الماركسية التي عجزت حتى الآن ودائماً عن الوفاء بوعودها البديلة عن مفهوم الدين للإنسان. ولم يدر الفلاسفة الذين ساعدوا على هدم نظرة الدين إلى تكريم الإنسان أنهم يساعدون الدولة على الجور والطغيان، والتحطيم لكل ما هو إنساني، وخصوصاً بالنسبة للماركسية، ولكننا لا نعفي نيتشه وفرويد من جنون القضاء على الإنسان.

وربما طرح سؤال: ما هي نظرة الإسلام إلى الإنسان، لتكتمل صورة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

المقارنة؟

والجواب بالإضافة إلى المسلمات التي أوجزها الرئيس أحمد سيكوتوري، بل واستخلاصاً من تلك نفسها، الجواب هو أن الإنسان هو الغاية دائماً.

فالماركسية استعدت عليه الدولة.

والنيتشوية تدعو إلى فناء الضعفاء باسم الحب للإنسانية.

والفرويدية تقرن قيام الحضارة بشقاء الإنسان، لأن السعادة عنده ليست قيمة حضارية، أي أنه لا يمكن أن تقوم الحضارة وأن يسعد الإنسان في نفس الوقت والإسلام؟

يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1].

أي أنه تحمل أمانة الله رغم طبيعته الميالة إلى الظلم ورغم أنانيته الجهولة، وما هي هذه الأمانة؟

إنها خلافة الله على الأرض وإقامة العدل فيها.

تلك هي مبادئ الإسلام، وذلك هو تصوره للإنسان، وذلك هو الأساس النظري لقيام الحضارة العربية ـ الإسلامية الآتية لا ريب.

وللحضارة شروط مادية أصلاً، ولكن المحرك لهذه الشروط المادية هو تطلع الإنسان وحنينه الدائم إلى وضع مثالي يتجاوز فيه ذاته، تلك هي أمانة الله للإنسان.

والحضارة هي حصيلة جهد الإنسان في اتجاهه نحو الكمال المشروع والتأثير على الطبيعة، والتسامي بالأوضاع القائمة.

ومن الطبيعي، طبقاً لهذا التصور، أن يهتم الدين الإسلامي بوضع

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

الفرد في المجتمع محدداً المنزلة التي ينبغي أن يتبوأها، والرسالة التي عليه أن يؤديها في المجتمع رسالة الوعي، الوعي في الإسلام هو مبدأ كل رفعة، والرفعة تحضُّر وحضارة، والوعي رفض للأهواء وتحكيم للعقل:

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾(١).

الوعي والفعل العاقل، بدل التملص من المسؤولية واتباع الهوى، هما مبدأ تحقيق الحضارة في صورتها الإنسانية.

الحضارة على العمل العاقل:

من هذا المنظور الديني يمكن أن نفهم تصور الإسلام لطبيعة إنسانية سامية على كل الكائنات، ولا نبغي الدعوة إلى تأمل الماهية الإنسانية الدائمة والثابتة، وإنما لا يبلغ الإنسان مستوى إقامة العدل على الأرض وتأسيس الحضارة إلا بالسعي إلى تحقيق أسمى ما في طبيعته الإنسانية بالعمل المتواصل، لتجاوز الذات عن طريق الفاعلية الروحية والمادية معاً.

الدين الإسلامي يحث على السعي نحو غاية إنسانية مثلى، ويعترف بأن الإنسان لا يحقق أهدافاً مثالية إلا بالصراع، فمن العبث تصور عالم إنساني أفضل أو وضع إنساني أمثل، وأكثر قابلية للتحقق بدون نضال مادي.

لو شاء الله لرفع الإنسان بآياته، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه... فرفعة الإنسان تتحقق عن طريق الوعي والسعي العاقل.

الإنسان في مفهوم الإسلام ليس ذاتاً مفكرة واعية فحسب، يرث آيات القرآن ويخلد إلى السكون، ولكنه فوق ذلك وبعده، حركة حية يؤكد ذاته

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

عن طريق النضال[1] في المجتمع، إنه الخلية الحية في جسم أكبر من ذاته.

وعلى هذا، فالمفهوم الإسلامي للحضارة ليس أخلاقياً محضاً ولا مادياً محضاً، لأن الدين الإسلامي لا يتضمن تعاليم النهي فحسب، وإنما يوجه نحو العمل الإيجابي.

إن مبدأ الحضارة هو الفاعلية البشرية المتجهة نحو غاية، والمحرك للفاعلية البشرية هم الناس الواعون، والوسط الذي تتم فيه الفاعلية البشرية هو المجتمع، ونتيجة هذا التفاعل هو ما يشكل الحضارة.

أفبعد هذا يبحث الإنسان العربي الإنسان المسلم عن مصادر أخرى للوعي بالذات، وتأسيس الحضارة؟!

وإذا كان لا بد للعالم العربي من أيديولوجية، فلتكن الأيديولوجية هي الإسلام، فلقد برهن على صموده وصدق تعاليمه في الوقت الذي بهتت فيه كل الفقاقيع الفكرية والفلسفية، ومصيرها النهائي أن تصبح نسياً منسياً[2].

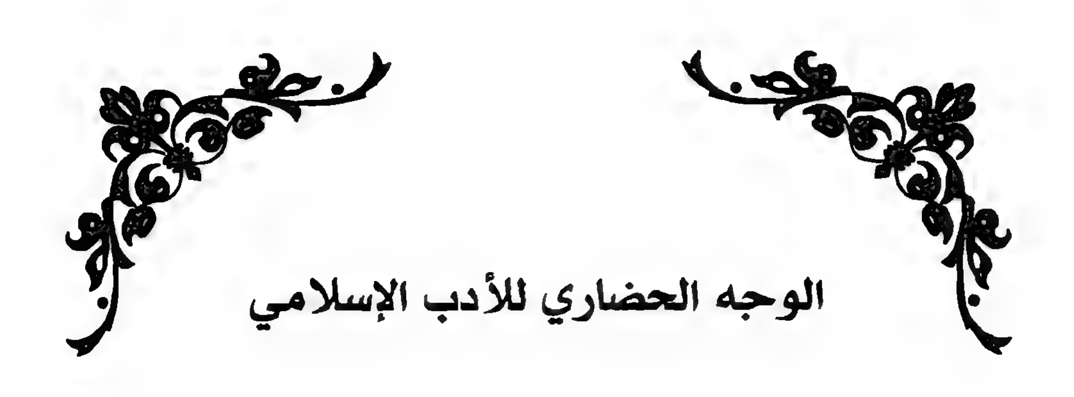
بقلم: محمد الشوفاني ـ الرباط



---

(١) عبارة النضال عبارة حزبية مستهلكة، وأجمل منها وأفضل عبارة: الجهاد النابعة من الجهد المادي أو المعنوي، وبهذا المعنى جاء حديث: «**المجاهد من جاهد نفسه، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» وفي المسند ج٦ ص٢١. «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب**».

(٢) مجلة الدوحة، العدد: ٤٢، السنة الرابعة، رجب ١٣٩٩هـ ـ يونيو ١٩٧٩م.



الوجه الحضاري للأدب الإسلامي

إن الفن والأيديولوجية، يشكلان قضية تبدو معقدة، لأن النظرة السطحية تتوهم تنافراً أو تضاداً بينهما، انطلاقاً من المفهوم السائد لدى البعض، حين يقولون: إن الفن حرية، والعقيدة التزام، والعلاقة بين الحرية والالتزام حسبما يتوهمون، علاقة بين قطبين متنافرين، والواقع أن الذين روجوا لهذا التصور السقيم وقعوا في خطأ التجزئة، وخرجوا عن صميم التجربة الحية، والممارسة التاريخية. ونسوا ـ أو تناسوا ـ أن روائع الفن ارتبطت بما تحمله من مضمون فكري رائد، أو عقيدة مؤثرة. وشاركت بإيجابية في تطوير نمط الحياة والسلوك، وساهمت في إثراء الحضارة الإنسانية بمظاهرها المتعددة، وهم أنفسهم لو تعمقوا مفهوم الحرية ذاتها لوجدوا أنها ضرب من الالتزام والانتماء. وهنا يجب أن ندرك أن الحرية ليست الانفلات والعبثية والتحلل من كافة القيم، والانطلاق في تيه من الرغبات والنزوات، والتعويل على صور من السلوك تمثل الأنانية والانغلاق الذاتي...

والأدب الإسلامي كلون بارز من ألوان الفنون، ينظر إلى الكون ومفرداته، أو إلى الحياة وحركتها، وإلى المخلوقات وصراعاتها، نظرة يحكمها التصور الإسلامي والالتزام العقائدي، ويحلل بصدق همسات النفس وأشواق الروح، وتفاعل الفكر وتوهجات السمو الإنساني، وتدنيات اليأس والألم والحبرة، وينتصر لقيم الحق والخير والجمال، في الإطار الفني الناجح، وفي نسيج من الصدق، يجعل من الفن والالتزام كياناً واحداً، لا انفصام فيه ولا تمزق أو تضاد.

وانطلاقاً من هذا الفهم، تدفقت ينابيع الأدب الإسلامي، حافلة بالصور الحضارية المتماسكة، تلك الصور التي تتفاعل مع الواقع والتاريخ، في كل عصر وصقع.

لقد توهم البعض من أصحاب النوايا الحسنة، أن الأدب الإسلامي يحفل أساساً برصد البطولات الفردية وحدها، ونيران المعارك الحربية، وتدمير قوى الكفر ومعاقل الطغيان، وقد يكون لهذا الجانب أهميته، لكن الأدب الإسلامي الصحيح يركز أساساً على ما يمكن أن نسميه «قيم الحضارة الإسلامية».

إنها مفهوم أعم وأشمل، وهو في نفس الوقت تمثل، عميق، وشاسع، إنه يتناول صور الحياة الجديدة المثالية التي ترعرعت في جنباتها قيم الحرية الحقيقية، والشموخ العلمي الباهر، والسمو التشريعي المذهل، والتجربة الصادقة الحية، والانفتاح الواعي على تراث الإنسانية والعصور، والفهم الصحيح للعلائق التي تربط النموذج الإسلامي بغيره من التجمعات البشرية والأحداث. ولم يكن من قبيل الصدفة، أن يهتم مفكرونا الأقدمون بالاطلاع على تراث الإغريق والرومان والفرس والهند، ويدرسوه بإمعان، بل ويترجموه إلى العربية، ويستفيدوا من بعض مصطلحاته وكلماته، دونما عقد نفسية، أو موانع عصبية؛ لأنهم ببساطة أرادوا أن يرثوا العالم بفكرهم وعملهم، فكان ولا بد أن تبدأ المحاولات الجادة لفهم ذلك العالم وتراثه حتى يحسنوا التعامل، ويعرفوا كيف يدخلون إليه، ويعدون وسائل الإقناع العقلي لأنه لو كان الأمر مجابهات عسكرية أو حربية لما كانت تلك الحضارة الإسلامية ولما كانت تلك (الشخصية) المميزة للإنسان المسلم، رمز المعرفة والعقيدة والقوة الكمال التاريخي، إن صح التعبير، وأن من يقلب صفحات الشعر والنثر في تراثنا القديم، يجدها أيضاً في محاورات الفلاسفة، ونفحات الزهاد، وقصص الوعاظ وبحوث العلماء، وروايات المؤرخين، ودقة المحدثين وتصانيف الفقهاء والمجتهدين وعبقرية الرياضيين والأطباء، وقد نجد ذلك كله متجمعاً بنسب متفاوتة في بعض عمالقة الفكر الإسلامي، تلك حقيقة لا يصح أن يماري فيها منصف، ولا يصح أن ينال

أحد من ذلك بالتأكيد، لمجرد بروز نغمات نشاز في عالم الشعر والفكر لأن وجود مثل تلك (الاستثناءات)، هو دليل إثبات، أكثر مما هو دليل نفي تماماً، مثل إقامة الحدود على بعض الأفراد الخاطئين لا يعني أن المجتمع بكامله قد ساده الفساد، وانحرف به الجنوح والضلال.

وإذا حاولنا أن نمعن النظر في النماذج المعاصرة للأدب الإسلامي، سوف نجد ـ للأسف ـ غالبيتها، تهتم بإبراز البطولات الفردية والمعارك القديمة الطاحنة، وروعة التضحية والفداء، وأن عدداً قليلاً من كتاب العصر الإسلاميين يحاولون جاهدين إزالة الغبار عن القيم الحضارية للعقيدة، من خلال أشكال فنية وعصرية تشمل القصة والقصيدة والمسرحية والتمثيلية والرواية السينمائية وغيرها.

إن السر الأكبر في انتصار العقيدة، وهيمنتها بصورة معجزة. لم يكن بسبب الزحوف العسكرية الكاسحة وحدها، وكانت هذه الزحوف تتحرك أساساً من منطلق عقائدي، هذا المنطلق هو الذي صنع نماذج الرجال الأقوياء. وهو الذي زعزع أركان العدو، وهو الذي أقام حضارة جديدة، ومكّن لنمط جديد من السلوك، وأبان عن حقيقة العلاقات التي تحكم حركة المجتمع والأفراد، وأوضح الصلة بين القوى المختلفة، والسلطات القائمة، وحدد هدفاً لمسيرة الحياة والأحياء ومن هذا المنطلق أيضاً حاول الأدباء المحدثون الإسلاميون، أن يتناولوا أحداث زماننا، والهزات العنيفة التي تقتحم ديارنا، تناولاً صحيحاً من خلال المنظور الإسلامي.

إن الفكر الإسلامي ـ وكذلك الأدب ـ ليس انعزالياً بفطرته، وهؤلاء الذين يجسدون تلك العزلة، إنما يقعون في خطأ كبير، مهما كانت الدوافع، ومهما حسنت النوايا، وبديهي أن الأدب الحي لا بد وأن يتفاعل... نعم... يتفاعل مع أحداث العصر، ومنجزات العلم، ومع التغيرات الاجتماعية والبيئية، ويرصدها بوعي، ويقف معها في مواجهتها، أي يحدد موقفه منها على ضوء المعطيات الحضارية الإسلامية، لأن الموقف الانعزالي موت، والذوبان في خضم الغزو الثقافي فناء، واللامبالاة بما يجري ضياع

وإهدار لفاعلية العقيدة، ذلك الضوء الكاشف الذي يمدنا بالروافد الضرورية لتحديد المواقف.

وإذا كانت البطولات الحربية وحدها دليلاً على صدق الدعوة، فسوف نجد أنفسنا أمام أحداث مشابهة في كل زمان ومكان، ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول:

إن الشجاعة في القلوب كثيرة ووجدت شجعان العقول قليلاً

ولا أريد في هذه العجالة أن أتناول النماذج الساذجة من الأدب الإسلامي المعاصر، وما في ذلك النتاج من شخصيات مسطحة، ليس لها أبعاد نفسية أو اجتماعية أو فكرية، وما فيه أيضاً من إهدار للقيم الفنية، واستخفاف بعقول المتلقين، فهذه كلها أمور تفصيلية يستطيع النقاد أن يتناولوها بمقاييس عادلة دقيقة في تأن وتمهل...

ثم إلى متى يظل الأدب الإسلامي - في غالبيته - محصوراً في الواقع التاريخي؟ هل يفهم من ذلك أن القيم الحضارية للأدب كانت مرهونة بفترات النصر والغلبة؟

إن انحسار المد لا يعني ذهاب القيم، لأن القيم في واقع الأمر ليست تراثاً، بل حياة دائمة، مرتبطة بالأفراد والجماعات، يحملها الإنسان المنتصر والمهزوم، ويلتزم بها في وطنه ومهجره، ويحيا عليها إبان فترات القوة والضعف ولعلها في وقت الانتكاسات ألزم وأوجب، ويستطيع الأديب المسلم أن يتغنى بها شعراً ونثراً ويحلم بصورها المثالية ويرسمها بريشته العبقرية حتى تظل أملاً نسعى إليه، ونجاهد من أجله. وفي حياتنا المعاصرة، نجد في كل أرض نماذج مجسمة لتلك القيم العريقة تتألق في روعة بدور العلم والأبحاث، وعلى سفوح الجبال وشطآن البحار والأنهار وفي الحقول والمصانع والغابات، وفي لهيب المعارك الضارية، وفي أروقة السياسة والاقتصاد والفلسفة، أنهم في كل مكان في مدن أمريكا وأوروبا وآسيا وأستراليا..

وعلى الأقلام المقيدة أن تحطم القيود، وتنطلق إلى تلك الآفاق الرحبة، وتعبر بصدق وقوة وأمانة عن رجل التوحيد... وعن أمة التوحيد... وعن الآمال التي تخفق في قلب مليون مسلم[1]، ما زالت غالبيتهم تنهل من الينابيع الصافية التي تتدفق عبر الزمان بالخير والعطاء، والذين يتنكرون لهذه الحقائق من المؤرخين والنقاد والمحللين السياسيين إنما يتورطون في خطأ تاريخي فادح، ويجافون العدل، ويظلمون الواقع.

وإذا كانت الحضارة فكراً وممارسة، أو عقيدة وعملاً والتزاماً، فإن مسؤولية الأديب المسلم أخطر بكثير مما يتصور البعض، وإذا كنا قد قررنا في البداية أن الفصل بين الفن والأيديولوجية خطأ جسيم، وخروج عن منطق الممارسة والعلم، فإننا نقول أيضاً: إن الأدب الإسلامي الصحيح جزء لا يتجزأ عن الواقع وحركة الحياة والعمل الدائب: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾[2].

والواقع المرير أن محترفي النقد في أمتنا، لم يعطوا هذا الجانب حقه من الاهتمام والمتابعة والدراسة، فضلاً عن أن صفحات المجلات والصحف لا تفسح صدرها إلا للقليل جداً، وعلى الرغم من الملايين التي ترصد في مسابقات نجوم السينما والمسرح والفنون التي تتسم بالتبعية والمروق، إلا أن الأدب الإسلامي المعاصر يعاني من الإهمال والتجافي والعزلة، ولا يكاد يظفر بالتقييم الصحيح، والتشجيع الذي يستحقه، بالإضافة إلى أن الأدوات التي يملكها الكاتب المسلم لا تستطيع أن تنهض به للمستوى المنشود، وأعتقد أنه قد بات لزاماً على الغيورين على الأدب الإسلامي أن يبدأوا منذ اليوم بعمل الآتي:

أولاً: رصد جوائز سنوية للأدب الإسلامي في فروع:

---

(١) عدد المسلمين في العالم حسب آخر التقديرات يفوق المليار والنصف ويقترب من المليارين.

(٢) سورة الصف، الآية: ٣.

- القصة القصيرة.
- المسرحية.
- الرواية.
- الشعر.
- تاريخ الأدب الإسلامي.
- نقد الأدب الإسلامي.
- القصة التمثيلية أو السينمائية.

ثانياً: عقد مؤتمر دولي سنوي للأدب الإسلامي.

ثالثاً: وضع مواصفات معينة لمادة الأدب الإسلامي في مناهج المدارس.

رابعاً: إنشاء أقسام متخصصة للأدب الإسلامي في الجامعات.

خامساً: إنشاء دار نشر عالمية لتأليف وترجمة الأدب الإسلامي.

قد يكون ذلك منطلقاً جديداً، لتحديد ماهية الأدب الإسلامي، وارتباطه أساساً بقيم الحضارة الإسلامية، مع مراعاة الأشكال الفنية المعاصرة التي لا غنى عنها في أي عمل أدبي ناجح، ولا شك أن ترجمة الآمال إلى خطوات عملية قابلة للتنفيذ، يعتبر بحق مؤشراً من مؤشرات النجاح المرتقب(١).

بقلم: د. نجيب الكيلاني



---

(١) مجلة الأمة، جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، عدد ١٨.



انهيار الحضارات في الأدب الإسلامي

مدخل:

يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1].

ويؤكد ابن خلدون ومن بعده (أزوالد أسبنغلر) و(أرنولد توينبي) على سقوط الحضارات وفق الهرم الطبيعي الذي تحدثوا عنه كثيراً في مؤلفاتهم.

هذه الظاهرة ظاهرة السقوط الحضاري، كيف عبر عنها الأدب الإسلامي؟ كيف رصدها؟ كيف ضبطها في شكل تجربة إبداعية يشترك في الشهادة عليها كل من الشكل والمضمون؟

إشكالية البحث:

والحديث عن انهيار الحضارة في الأدب الإسلامي يستوجب، في اعتقادي، الإشارة إلى إشكاليتين أساسيتين تشكلان محوراً مركزياً لسيرورة هذا المقال... وطرحه لمجموع أبعاد القضية التي نروم معالجتها:

١ ـ إشكالية المصطلح.

٢ ـ وظيفة الأدب.

١ ـ إن التحليل الواعي للقضية التي حددها العنوان، يفرض علينا استيحاء مجموعة من المصطلحات التي تنتمي إلى حقل الآداب الغربية ومناهجها، ولا شك أن ذلك الاستيحاء يطرح حساسيات كثيرة، انطلاقاً من

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

خصوصيات الأدب الإسلامي، وصولاً إلى قضية الاستقلالية، مروراً بالتميز الفكري والإبداعي والخلفية العقائدية لكل ذلك.

كيف يمكن توظيف المصطلح الأجنبي؟ ما مشروعية ذلك؟ خاصة مع الأدب الإسلامي في مستواه التنظيري والتطبيقي؟ ومن أجل أن لا يشهد الأدب هو الآخر، اختلافاً لا جدوى من ورائه ـ ونحن نعاين مرحلة التأسيس وبلورة المفاهيم ـ يتوجب علينا الإنصات إلى معطيات الزمن المستقبلي، وتأجيل، أو إلغاء المواقف الرافضة إلى ما بعد الاستيحاء والتمثيل...

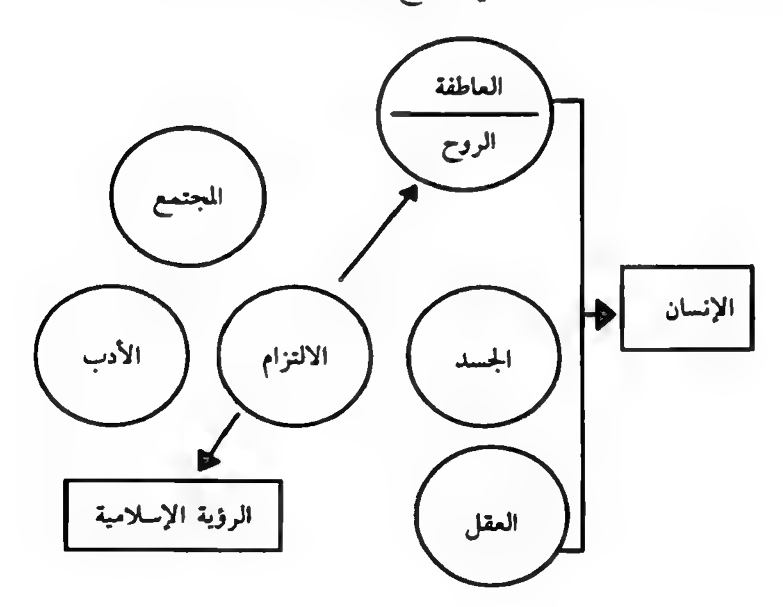
لكل هذه المبررات، سعى هذا البحث المتواضع إلى الاستفادة من بعض المصطلحات التي قد تنتمي إلى المنهج البنيوي أو النقد الواقعي أو النقد الأسطوري أو الرمزي بغية استجلاء حقيقة انهيار الحضارات كما يرصدها ويشهد عليها الأدب الإسلامي قديماً وحديثاً.

٢ ـ أما بالنسبة لوظيفة الأدب، فإن البعد التطبيقي للنماذج الواردة في هذا المقال يبرز ـ بما لا يقبل أدنى شك ـ أن للأدب وظيفته في الحياة التاريخية والاجتماعية... وظيفة الكشف والشهادة على كل القضايا المتفاعلة داخل الوجود الحياتي... وظيفة الإدانة والتبشير بما هو أفضل... إنه تجاوز للكائن الفاسد بغية استشراف الغد الأحسن، وهي وظيفة يشهد له بها النقد الأدبي الحديث برغم الدعاوى والتهم التي نسمعها، بين الآونة والأخرى، من دعاة الفن للفن أو الفن الخالص، ممن لا يرضون للأدب وظيفة فعالة في الحياة الاجتماعية، ويكفي للرد على هؤلاء أن نشير إلى ما قاله الناقد الروسي نيقولاي تشرنيشفكي في معرض رده على أصحاب تلك التقليعات (الجديدة/ القديمة)، لقد قال: «...إن الأدب يضع نفسه ضرورة، في خدمة تيار معين من الأفكار، وهو عاجز عن التملص من هذه الوظيفة التي تكمن في ذات طبيعته، وإن اتباع نظرية الفن الخالص، والذين يسعون إلى جعل الفن شيئاً بعيداً عن مشاغل هذا العالم، لهم إما على خطأ، وإما أنهم يضمرون مقاصدهم... إن تيارات الأدب التي ولدت تحت تأثير الأفكار السرية والنشيطة والتي تلبي حاجات العصر الملحة، هي وحدها التي

تستطيع تحقيق انطلاقة لامعة»[1].

والأدب الإسلامي يشهد للأدب بهذه الوظيفة، بل ويوجبها عليه، وإلا فإنه لن يخرج عن إطار ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[2]، ومن هنا تظهر قيمة الالتزام كما أسسته آيات القرآن في بداية الدولة الإسلامية الأولى...

غير أن خاصية الالتزام لم تفهم حسب سياقها الطبيعي داخل منظومة أخرى من الخصائص المميزة لهذا الأدب، مما أوقعنا في قبول «إبداعات» لم ترق قط إلى المستوى المطلوب فنياً، وإن تمثلت فيها الرؤية الإسلامية على مستوى المضمون. فتجسد فيها التعبير تقريرياً مباشراً، يملك التوهج الفني والصور الموحية والخيال الخصب... وللخروج من هذه الأزمة، لا بأس من اقتراح الرسم التالي الذي بإمكانه أن يساعدنا على تفهم عنصر الالتزام أو وظيفة الأدب داخل سياق طبيعي لا يفقد الأدب قيمته الفنية باعتباره إبداعاً وجدانياً يرتدي وهج الكلمات أولاً وأخيراً.



---

(1) مجلة «الثقافة الجديدة» المغربية، العدد التاسع، السنة الثالثة، شتاء ١٩٧٨، ص١٠٣ - ١٠٤.

(2) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٥. والعبارة مقتبسة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

إن غذاء الجسد معروف وغذاء العقل لا جدال فيه، ولكن تبقى عاطفة الإنسان فما هو غذاؤها؟

إن الفن الإسلامي عموماً والأدبي منه خصوصاً، هو المسؤول عن تغذية جانب كبير من تلك العاطفة، إذن، فالأدب الإسلامي ـ من جهة ـ مسؤول وملزم بهذه الوظيفة الذاتية، أن ينمي أشواق العاطفة ويهذبها ويرقى بعناصرها...

ومن جهة ثانية، فهو ملتزم بقضايا المجتمع، وبهذا يكسب وظيفته الاجتماعية ثم ـ من جهة ثالثة ـ فهو ملتزم بالأدب أي هو ملتزم بالمحافظة على العناصر الفنية للأدب عبر رحلته الطويلة في مشارب الزمان والمكان، والحرص على تنميتها وإمدادها بكل جديد يثري التجربة الفنية ويعمق صورتها...

وأخيراً، وهذا أمر طبيعي فإن الأدب الإسلامي ملتزم بالرؤية الإسلامية تجاه الكون والحياة والإنسان، فالالتزام كما ينبغي أن يفهمه الأدباء المسلمون، ذو أربع شعب، رؤيوي وداخلي وأدبي وخارجي، أي تصوري وذاتي وفني واجتماعي. إنه بؤرة تتجمع عندها جميع الجوانب المذكورة لتخلق معادلة تعطي كل جانب حقه في الوظيفة، فلا يغيب عنصر لصالح بقية العناصر، ولا يتم التركيز على جانب دون الجوانب الأخرى.

وفي ضوء هاتين الإشكاليتين، أسعى إلى مباشرة قضية انهيار الحضارات في الأدب الإسلامي. والسؤال الذي يطرح هنا: كيف استطاع الأدب الإسلامي قديمه وحديثه، أن يدرك لحظة الانهيار والسقوط بالنسبة للحضارة، وأن يتبع مساربها وفعلها، ويقتنص أبعادها ويعبر عنها في إبداعه، فتتجلى آنئذ حية بكل ثقلها ومرارتها على مستوى الشكل والمضمون (طبعاً إن كان هناك فصل بين شكل الإبداع ومضمونه).

للإجابة على هذا السؤال، كان لا بد من مقارنة عينة من النصوص الإبداعية تنتمي إلى أدباء مسلمين، قديماً وحديثاً، عبرت بكل فعالية وعمق عن انهيار الحضارات وفنائها، فاخترت لذلك همزية حسان بن ثابت

(رضي الله عنه) الشهيرة[١]، وقصيدة «شرق وغرب» للشاعر الشهيد هاشم الرفاعي[٢]، وقصيدة «النبي... وعصر التكنولوجيا» للشاعر العراقي المسلم حكمت صالح[٣].

أبعاد الانهيار الحضاري: جدلية الشكل والمضمون:

بالنسبة لقصيدة حسان، تواجهنا منذ البداية أسئلة ملحة: هل نظم الشاعر القصيدة بأكملها في عهده الإسلامي؟ أم أنه نظم الجزء الأول من الخمر والنسيب في الجاهلية، ونظم الجزء الثاني في الإسلام، ثم جمعهما الشاعر أو «الرواة»؟ أم أنه نظم الجزء الأول في جاهليته والجزء الثاني في إسلامه، ثم قرأهما معاً بين يدي رسول الله ﷺ؟

والحقيقة أن هذه الأسئلة أراقت مداداً كثيراً، لكن دون الوصول إلى أعتاب الحقيقة، وتم الاكتفاء فقط بطرح الفكرة القائلة بنظم القصيدة في مرحلتين مختلفتين (الجاهلية والإسلام)، كما يذهب إلى ذلك الدكتور شكري فيصل[٤] وجماعة من الدارسين، في حين اكتفى آخرون أمثال د. عبدالقادر القط[٥]، وغيره، باعتبار القصيدة جسداً واحداً قيل في العهد الإسلامي، ورغم المبررات والاحتمالات التي يطرحها الفريقان فإن أبعاد القضية تظل خارج إطار مناقشتهما.

ولا أدعي حسماً للنقاش، وإنما أرى بأنه لو تم بسط الإشكال في

---

(١) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق البرقوقي.

(٢) ديوان هاشم الرفاعي، جمع وتحقيق محمد حسن بريغش، مكتبة الحرمين، الرياض، ط١، ١٩٨٠.

(٣) «نحو آفاق شعر إسلامي معاصر»، حكمت صالح، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٧٩، ص٢١.

(٤) في كتابه «تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام»، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، ص٢٦٢.

(٥) في كتابه «في الشعر الإسلامي والأموي»، دار النهضة العربية، ١٩٧٩، ص٤٣.

إطار مقولة «انهيار الحضارة» لتم إدراك الحقيقة في أبعادها وسياقها الطبيعي دون حرج أو تأويل كيف ذلك؟

إن الشاعر ضمير الأمة ومجهرها، يعاين جميع الثوابت والمتغيرات داخل الحياة الاجتماعية، ويدرك بفضل عمق شعوره ورهافة إحساسه وتفتح وعيه، النواميس المسيرة لحركة المجتمع الذي يكتوي بناره ويتلظى بآلامه ويضبط تلك اللحظات في رحم الكلمات، فتتولد منها آفاق المستقبل الذي يدعو إليه الشاعر في كل وقت وحين، وحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ لا يخرج عن هذا الإطار ومن ثم فقد جسد في قصيدته الهمزية سيرورة المجتمع الجاهلي في وجه مجتمع جديد وحضارة جديدة هي حضارة الإسلام.

في لحظته يسقط عالم الخبرة واللهو والعبث المتجسد في الجزء الأول من القصيدة انطلاقاً من المقدمة الطللية إلى البيت العاشر، فالطلل الذي عفّ ودرس وصار خالياً من الأهل ما هو إلا رمز للماضي الجاهلي الذي يسير نحو الأفول ويصبح في خبر «كان» الواقع في البيت الثالث. ويتضح هذا السقوط أكثر في البيت العاشر الذي يقول فيه:

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

فالملك سمة للحضارة ـ على حد تعبير ابن خلدون ـ ولكنه هنا جاء بفعل الخمرة (أهم ميزة لسلوكيات المجتمع الجاهلي)، فهو ملك لن يدوم لأنه بفعل الخمرة، بفعل نشوتها، والنشوة زائلة، توهم الملك «تتركنا» ملوكاً؛ أي بعد الخمر، بمعنى آخر، أنهم ـ طيلة نشوة الخمر ـ يشعرون بالملك، وبصورة غير مباشرة، لكنها طبيعية، فإنهم عند زوال تلك النشوة، يشعرون بـ«اللا ملك»، بالضعة وبالسقوط. . . ومن الذي أيقظهم من نشوة الخمر؟ إنه الإسلام وحضارته. .

وفي نفس الوقت نجد لفظة الأسد المرتبطة، فهذا الملك كائن لكنه ملك الأسود، وهذه الصفة تنقلنا مباشرة إلى الحقل المعجمي الذي وفدت

منه لفظة «الأسد». والذي لا شك فيه أن الشاعر يستعير تلك اللفظة للدلالة على الشجاعة، هذا ما يقره البلاغيون منذ العصر اليوناني ولكن ـ ونحن نبحث عن انهيار الحضارة في قصيدة حسان ـ لماذا نُنَصِّصُ تأويلاتنا بقيود بلاغية أحادية الجانب؟ أليس في لفظة «الأسد» هنا، وبالإضافة إلى دلالة الشجاعة، تستعار للدلالة على «القانون» المهيمن في «الغاب» قانون الافتراس والظلم والاعتداء (يستحضر هنا رمزية الدلالة في حكايات كليلة ودمنة)، ومتى كان ذلك قانوناً؟ ومتى عاشت حضارة في ظل الافتراس والظلم والاعتداء؟ أليست لفظة «الأسد» هنا، تؤسس مفهوم الانهيار الذي يوافق ملك الخمرة وحضارتها؟

وليس من قبيل الصدفة أن يستعمل الشاعر مباشرة بعد هذا البيت فعل «عدمنا» للدعاء:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء

فهذا الفعل جاء هنا للدعاء، وتحققه مشروط بشرط أساسي، وهو إشارة الخيل للنقع في «كداء»، وهذه الإشارة كفاية بعيدة على دخول مكة والعمرة... وإبراز النصر المبين، والشاعر يدعو لخيله بالعدم إن لم يتحقق ذلك الشرط، والتاريخ يؤكد لنا ـ في وقائعه ـ أن التحقق كان طريقه، فالنتيجة ـ إذن ـ هي بقاء خيول المسلمين واستمرارها، ولكن من الذي أعدم؟ ولمن كان الدعاء؟ إنه الطرف الآخر الذي لم يستطع إيقاف (الخيول/ البذور) الإسلامية، طرف الجاهلية التي تلتقط أنفاسها الأخيرة بين يدي الحضارة الجديدة، حضارة (الخيل/ الجهاد/ والحد).

ومما يعمِّق هذا الفناء للحضارة الجاهلية كما يشهد عليها حسان، البيت الحادي والعشرون:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نخب هواء

أبو سفيان، هنا، لا نبحث عنه في تراجم الرجال... إنما هو مالك الحضارة الجاهلية وسادنها بما أنه وقف في وجه الحضارة الجديدة منذ

بدايتها ـ أن أبا سفيان ـ رمز لتلك الحضارة، وهنا تتجلى دلالة الأوصاف التي وسم بها الشاعر (أبا سفيان/ الحضارة الجاهلية). . . «مجوف، نخب، هواء» أوصاف تتحد في مصدر «الخلو» والفراغ من الفوائد والعقل، من الإيمان والعلم ركيزتي الحضارة الأساسيتين، فالحضارة الجاهلية/ أبو سفيان، خالية من كل ذلك، وبالتالي فهي لا تستحق البقاء فضلاً عن الاستمرار، لأن ميكانيزمات ذلك مفقودة لديها، فلا طريق لها، إذن إلا الفناء والانهيار، وقد كان.

ويزداد شعورنا بانهيار الحضارة الجاهلية كما ترصدها قصيدة حسان، في كلمة «الفتح»، فهذا الحدث فاصل بين عهدين متباينين، ترى ماذا حصل في هذا الحدث؟

يكفي أن نستحضر، هنا ظاهرة تحطيم الأصنام، فما كان لهاته الأخيرة أن تحطم لو بقي للجاهلية ملك وحضارة وقوة، فتحطيمها يشكل المرحلة الختامية من تحطم تلك الحضارة نفسها، وصعود بلال فوق ركامها معلناً أذان الحياة رمزاً لميلاد الحضارة الجديدة التي تشكل داخل القصيدة طرفاً للثنائية والضدية التي عبر الشاعر، من خلالها، عن انهيار الحضارة الأولى وتأسيس الحضارة الجديدة الثانية.

وبعد، ماذا عسانا أن نقول في شأن نظم القصيدة بقسميها معاً، بعد هذا التحليل الذي اتخذ من «انهيار الحضارة» محوراً تؤول إليه جميع الخيوط والعناصر المشكلة للنص الشعري؟

إن التأكيد على أنها قسمان قيلا في زمنين مغايرين، ما هو إلا ضرب من السطحية والدفاع عن أخلاقيات حسان والإسلام بسيف من ورق. والأجدر بنا أن نتفهم أبعاد الكلام السالف، ليتأكد لدينا بأنهما قسمان قيلا حول (وليس في) زمنين مغايرين، وحضارتين متقابلتين.

عندما نصل إلى العصر الحديث، ساعين إلى اختيار الأدب الإسلامي يشهد على الحضارة المعاصرة نفس الشهادة، لا شك أنه سيقفز سؤال جد مشروع كالتالي:

لماذا تم تجاوز مرحلة العصر الأموي والعباسي مع أنها مرت بنفس الضعف والانهيار اللذين يسعى المقال إلى اكتشافهما داخل الأدب؟

والجواب على مثل هذا السؤال ضروري، والإعراض عنه خيانة للمنهج وسرعة فهم لسيرورة الحضارة العربية الإسلامية، فلا بد ـ إذن ـ من ذكر كلمة ولو وجيزة في هذا الصدد...

لا جدال بين المؤرخين والأدباء المسلمين أن المرحلة المذكورة أتاها ضعف عارم وانهيار[1] تسرب في البداية خفياً إلى جسم تلك الحضارة، وقام بدورة السقوطي «في غالب المستويات» ولقد لعب الشعر دوره المسؤول في إدراك الحالة، غير أنّي بالرغم من نضج المستويات الفنية في هذا العصر، تجاوزت تلك المرحلة، وعذري الوحيد هو أنها لم تفرز لنا شعراً في مستوى الرؤية الإسلامية أفقياً وعمودياً، باستثناء (المتنبي) الذي جسد في شعره ذلك الانهيار، نرجسيته وتضخم «أناة» بالإضافة إلى قناعات أخرى، جعلتني أزور عن اختيار نموذج من شعره، ولم يبق لي سوى العصر الحاضر الذي أبحث فيه عن إبداع إسلامي يتقنص لحظة الانهيار الحضاري «الأوروبي القوي»، فتبين لي بعد البحث والتنقيب أن قصيدة الشاعر الشهيد هاشم الرفاعي «شرق وغرب»، وقصيدة الشاعر العراقي

---

(١) ملاحظات الدارس الفاضل تتسم بقدر كبير من العمق والأصالة. وما يشير إليه من الانهيار بدأ فعلاً أوائل العهد الأموي، وبخاصة منذ ولاية يزيد التي قامت على أساس جاهلي يتمثل في الملك الوراثي بدلالاته الجاهلية بدل الشورى الإسلامية بمعانيها القرآنية، فمنذ ذلك الحين إلى عصرنا الحاضر ونحن نتخبط في الرؤية الفرعونية الأحادية الملغية لما سواها [ما أريكموا إلا ما أرى]، ومنذ ذلك الحين توقف المد الحضاري الإسلامي، كما أسس له عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين، ولن يتحرك المد الإسلامي من جديد إلا عندما يشرق عصر الشورى المجسد لرؤية الإسلام للإنسان وحقوقه وقضاياه وواجباته باعتباره هو مركز الحياة ومركز الوجود بعد الله عز وجل الذي اختاره لهذه الوظيفة وكلفه بها تكليفاً إلزامياً لا بد منه. ففي إطار الشورى بدلالاتها تزدهر حقيقة الإنسان المبدع، الخير، وعندما تعتدي الجاهلية عليه، وتحوله إلى مجرد ملكية لملك، فإن ذلك يعني ميلاد جاهلية جديدة وتدميراً للإنسان والحياة وذلك ما حدث لنا منذ عهد بني أمية.

المسلم (حكمت صالح) «النبي وعصر التكنولوجيا» كفيلتان بتحقيق هذا الغرض المنشود.

(الشرق والغرب): موسم الانهيار المتبادل:

«شرق وغرب» التي تضم زهاء ثلاثة وسبعين بيتاً، والتي نظمها الشاعر في سبتمبر ١٩٥٤، تشكل «ملحمة» إسلامية، لكنها ترتبط بالواقع وتشهد على «نثر» أركانه وتفسخها، وفي شهادتها تلك تستعير منطق التداعي الخاضع للرؤية الإسلامية، سلباً وإيجاباً عربياً وغربياً، كما تبلوره القصيدة في مقاطعها، بل إن التشكيل المكاني لـ(القصيدة/ الملحمة) القائم على المقاطع من جهة والثنائيات الضدية[١] من جهة أخرى يجلي لنا، بدوره أبعاد ذلك الانهيار خاصة إذا اعتبرنا بأن النفسي شرط للفني ولازم له. فالشاعر في واقعه العربي، يعاني انهياراً وتقطعاً يشمل جميع المستويات ويخيم كله على المجالات، هذا الواقع الثقيل، يخلق لدى الشاعر تقطعاً نفسياً وتمزقاً وجدانياً مماثلين له، بالإضافة إلى التناقضات المهولة: (الجهل/ العلم)، (الظلم/ العدل)، (التخلف/ التقدم)، (اليأس/ الأمل)، (الموت/ الانبعاث)، كل ذلك يخلق نفس الثنائيات في وجدان الشاعر، فتتجمع تلك المعطيات لتشكل (القصيدة/ الفن) وفق معمارية (التقطيع والثنائية). أليس من قبيل الصدفة أن يعمل العنوان (باعتباره مفتاحاً لفهم القصيدة) على تحقيق تلك المعمارية وهنا بالضبط، تكمن فنية الشاعر وموقعه المسؤول.

ومنذ مطلع القصيدة يعبر الشاعر عن سقوط الحضارة الغربية، وذلك في قوله:

أيقظ الشرق وهز العربا فبريق المجد في الشرق خبا

---

(١) لا جدال في أن مصطلح «الثنائية الضدية» ينتمي إلى المنهج البنيوي، لكن يبدو لي أنه ليس غريباً في دلالته عن تراثنا البلاغي والنقدي، وبإمكانه أن يكتسب مشروعية انطلاقاً من فهمنا المتطور لـ«الطباق» و«المقابلة» في البلاغة العربية.

ليس من الصعب أن ندرك بأن البيت الأول اشتمل على ثلاثة أفعال، اثنان منهما: يتجهان جهة المستقبل، والثالث: جهة الماضي، «أيقظ، هز، خبا» وكلها تعبر عن حقيقة الانهيار والسقوط، ولا يمكن فهمها إلا في ضوء ذلك، فاليقظة والاهتزاز المأمور بهما يقتضيان فعل النوم السابق لهما... و«الخبو» يقتضي فعل الاشتعال السابق عليه كذلك... ولكن من هو الذي يحتاج إلى اليقظة والاهتزاز؟ يلاحظ هنا الاهتزاز الذي يذكر بالآية الكريمة: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[1] كدليل على الإخصاب والنماء اللذين افتقدهما الذي نسأل عنه ألا وهو الشرق!!

والشاعر (الشهيد/ الشاهد) لا يقف عند هذا الحد، بل إنه يربطنا، نفسياً، بجو الأطلال الموحي بالدمار وذلك في قوله:

قف على بغداد واندب من بها رفعوا للشرق ذكراً طيبا
وابك في الأيام من قال وقد أبصر الغيم تهادى صبيا
سر يميناً أو يساراً إن لي خرج هذا الماء آني سكبا

إن هذا المقطع يجسد جو الوقوف على الطلل والبكاء على الماضي الذي كان يعيش الخصب والعطاء:

وقديماً كان خصباً مثمرا وأراه اليوم أمسى مجدبا

فعفت معالمه وذرته الرياح، وأمست معالمه هباء «تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد»[2].

ويستمر الشاعر في تداعيه، يستعيد صورة الماضي المشرقة علماً وعملاً، جهاداً وتضحية، فكراً وأدباً، ولكن ماذا حصل فجأة:

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.
(٢) الشطر الأخير من قول طرفة:
لخولة أطلال ببرقة تهمد من تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
جمهرة أشعار العرب، ص١٤٩.

فأضعنا كل ما قد جمعوا   وهدمنا ما بنوا واحربا

ومن ثم يصبح من المستحيل، في لحظة الانهيار والسقوط، أن ننتمي إلى ذلك الماضي المتألق، وخير لنا أن نقطع صلتنا به ما دام البون شاسعاً بين الطرفين:

لا تقولوا نحن عرب إننا   لهم لا نستحق النسبا

ولا شك أن في تأجيل كلمة «النسب» إلى آخر البيت، تشكيلاً مكانياً للدلالة النفسية المعاينة للتباعد السحيق بين «العرب» و«النسب» من جهة، ولنفسيته الممزقة بين ماض ثابت وحاضر منهار.

ويلفت الشاعر في بقية القصيدة إلى الغرب الذي كان بإمكانه أن «يأخذ» الدورة الحضارية، ويخلص الإنسانية من انهيارها، ويبني حضارة تسير على رجلين مستقيمين، وليس على عكازة من أحقاد:

وأضاء الكون ما جاؤوا به   من فنون قد أثارت عجبا
سار من سار إلى العلياء لم   يأخذ اللهو إليها مركبا
ومضى في الغرب أبطال إلى   مجدهم لا يعرفون اللعبا
فلنا الأمس وهذا يومهم   ما أرى الأيام إلا قلبا

ولكن هيهات ففاقد الشيء لا يعطيه، كما قال، والحضارة الغربية، بشهادة مفكريها، لا تمتلك شروط البناء المستقبلي العادل، بل أنها تحتضن في طياتها جرثومة الفناء والانهيار، فتماسكها قلما يدوم والنتيجة المحتمة عليها، انطلاقاً من شروط ومقدمات موضوعية: هي الانهيار الذي اختصت به أكبر المقاطع في القصيدة والذي سنراه بصورة فعالة في قصيدة (حكمت صالح).

والشاعر الشاهد، انطلاقاً من عقيدته الإسلامية التي تشع في صاحبها أنوار الأمل، وتبعث في نفسه نسمات اليقين بالانبعاث الجديد الذي توجبه آي الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ، انطلاقاً من كل ذلك، يدعو قومه إلى

تحمل المسؤولية من جديد، والنهوض من وحدة السقوط للقيام بالدور الحضاري الثاني، وهو أمل فيه صرخة إيمان ودعوة فيها قوة دين، وذكرى فيها حكمة ويقين، بعيداً على أجواء اليأس والدمار التي لحقت الإنسان الغربي بعد الحرب العالمية، فأردته صريع المفاهيم الرومانسية والرؤى الموغلة في «الآهات».

يا بني الإسلام هبوا وانهضوا لا تناموا بلغ السيل الزبى
واذكروا عهداً سمت أمجادكم فيه حيناً إذ سموتم رتبا

وعندما نقترب من نهاية القصيدة يفجعنا الشاعر بمأساة فلسطين لأنه هو المجهر والضمير بالنسبة للأمة، قد أدرك بأن قضية فلسطين تشكل محور الانهيار المتبادل بين الشرق والغرب، فمن أجل أن يظل الشرق منهاراً، ضعيفاً وعاجزاً عن الانبعاث فلتكن هي الشوكة في حلقومه، والعرقلة في طريقه.

ففلسطين أضيعت وغدت يندب اليوم بها من قويا
جاءها كل يهودي بدا هائماً بين الورى مغتربا
فأقاموا شوكة في أوضاعها ذلك الشرق بها قد نكبا

ومن مميزات الشاعر أنه يمتلك طاقة جوانية خلاقة قادرة على تكثيف الحدث وبثه بصورة مركزة ولكنها مريرة، خاصة في المقاطع الأخيرة حيث يضعنا على مفترق الطريق لنختار، ولنتحمل مسؤولية الاختيار، وفي هذه اللحظة تتجمع خيوط القصيدة لتأخذ مسارها إلى نتيجة عميقة وموحدة تتحد في تفجع الشاعر وحزنه الأليمين وهو يشهد على انهيار الحضارة في مستواها الغربي والعربي.

إيقاع الانهيار والشمس المرقبة: (ثنائية الموت والانبعاث):

عندما نقرأ قصيدة الشاعر حكمت صالح «النبي... وعصر التكنولوجيا» ينتابنا شعور غريب حول قدرة الشاعر على تكثيف مأساة

الانهيار الحضاري وتجسيدها في شكل نسيج متداخل الخيوط متشابك السمات، حتى ليصعب على الدارس تشريحها ولو أنها خضعت مكانياً لشكل المقاطع لأن الحبل السري المتكون من نفسية الشاعر ورؤيته وحرارة التجربة المتدفقة أقوى من أي تقسيم أو تقطيع. بالإضافة إلى ذلك تتداخل، على المستوى الثاني، العوالم الممتدة عبر التاريخ، منذ الجاهلية إلى عصر التكنولوجيا، وهذا الامتداد التاريخي يبتعد أثناء تجسيده في فضاء القصيدة، عن أن يكون امتداداً زمنياً بالمنظور الرياضي، وإنما يصبح امتداداً حضارياً خاضعاً لسلم الاستمرار أو الانهيار، وهي حالة ترافق أعضاء القصيدة كلها مما يبعدها عن أزمة التفكك التي تعاني منها القصيدة الحديثة في كثير من مظاهرها.

في البدء يرفع الستار عن المشهد التراجيدي الذي خيَّم على الحياة العربية الجاهلية:

آفة تلتهم الأرض التهاما

لا دواء في المذاخر

ووراء السور قد عم البلاء

يؤذن الإنسان في كل مكان بالفناء.

إن هذا المشهد، بخصائصه الموحية يحيل على النص الغائب الذي يقطن ذاكرة الشاعر، ألا وهو الجزء الأول من قصيدة حسان السابقة، حيث يتآكل العالم «الماضي» وتعف معالمه، وتستسلم أرضه للجدب وانعدام الخصوبة والعطاء لأن:

«الماء إذا سال بها غار وجفا»

وفي لحظة الانهيار هاته، يعلن عن ميلاد شيء جديد:

قيل يا معشر قد أنجبت الدنيا غلاماً سوف يبتز الظلاما

يحمل الأرض على راحته

يخرج الناس من الظلمة إلى النور

ألا يا قوم قد حان النشور.

ويولد (النبي/ الحضارة الجديدة) الذي سار بالإنسان في ركب الحياة، يؤسس أركان عالم جديد في «جلال وخشوع»، غير أن هذه الحضارة تستحيل في الزمن الحاضر إلى مجرد تداعيات تنهض في ذاكرة الشاعر بعد ما فقدت مشروعية وجودها على المستوى الواقعي الاجتماعي.

تداعيات مؤلمة تكشف عن بعد الثنائيات الضدية بين عالمين ينتميان إلى خلفية مذهبية واحدة، الأول: في سموه وازدهاره، والآخر: في موته وانهياره.

وتنغرس سهام الصدمة في كيان (الشاعر/ المسلم) عندما لا يجد معادلاً موضوعياً للرموز التي يحملها في ذهنه مثل: خالد وسعد وابن أبي سرح، ويحس بأنها أصبحت نكرات في هذا الزمان «الرمادي»، ودلالة ذلك أن الشاعر عندما أحس بوخز الصدمة، وراح يستقصي رجال الفكر والدين، بحثاً عن تلك الرموز دون أن يجدها، استعمل المنادي التالي:

«يا خالد، يا سعداً» ونصب المنادى هنا يخالف قاعدة حركات المنادى، فخالد وسعد معرفة، والمعرفة في حالة النداء يبني على ما يرفع به، ولكنه هنا لم يأت كذلك، بل جاء منصوباً بالفتحة الظاهرة وفقاً لحالة النكرة غير المقصودة، واتصال الحالتين معاً (المعرفة والنكرة) في منادى واحد يكشف أبعاد النكران الذي تتمتع به تلك الرموز في زماننا المحتضر.

وفي لحظة التداعي المستمرة، يحتمل أن يستعيد الشاعر أحداثاً عديدة ومتنوعة من ذلك (الماضي/ الجلال)، ولكن عندما يتم التركيز على ملمح معين منه يكتسب دلالة لا ينبغي للناقد أن يهملها أنه ـ كي يدرك مفاتيح النص ـ عليه أن يدخل ذلك الملمح إلى دائرة الضوء ويسلط عليه أكثر من مجهر... والملمح الذي تم التركيز عليه في تداعياته يتجلى في قوله عن (جدته/ الماضي):

«حفظتني آية من سورة الفتح».

والنص في هذه اللحظة ـ وعبر تناصه مع قصيدة حسان الهمزية ـ يؤكد على الشحنة الحضارية التي تحملها لفظة «الفتح» باعتباره لحظة (الانهيار/ الانبعاث) (السقوط/ النهضة)، (الفناء/ النماء) بين عالمين متباينين. . . تلك اللحظة التي باركتها السماء، ودخلت عالم القرآن، فغدت آية تتلى عبر السنين والأيام. . . مجسدة فرحة الأكوان عند مشهد الفتح، وشاهدة على سقوطنا الحضاري الحاضر وعاملة للوعود المستقبلية، باعتبار أن الشرط الذي احتضنته سورة النصر يتجه جهة المستقبل ودخول الناس في دين الله أفواجاً تظهر صورته هذه الأيام مع الصحوة الإسلامية(١) التائبة إلى ربها، مما يجعلنا نتنبأ بولادة جديدة أو بفتح جديد، نتعرف على أوراق تعاريفنا الضائعة ولون وجوهنا المشوه في زمن السقوط والانهيار. . . ولكن متى؟

وقومي اتخذوا القرآن مهجوراً

فغطوا

مثل أهل الكهف

في قبو السبات

ويستمر النمو والسقوط وتبعث الحضارة في شكلها الغربي، فيرجو العالم الخلاص على يديها:

إن الحضارات الحديثة

حملت أعباء كل الأمم

---

(١) ما اعتبره الكاتب الفاضل والدارس المقتدر صحوة إسلامية تائبة إلى ربها، بينت الأيام أنه بقدر ما كان أمل الطيبين والمهمومين من المسلمين كان في الوقت نفسه مجرد فرص لتحقيق مطامح ملوثة بدماء القضايا والواجبات، بل مجرد مؤامرة دبرت بليل للتستر على جريمة تشويه حقيقة الإسلام. ومع ذلك فالأمل في الله عز وجل أن يشرق فجر صحوة صادقة وغير كاذبة ولا مزيفة.

وخطاها

لم تزل بعد حثيثة

غير أنها تتوقف في منتصف الطريق:

«ثم خانتها قواها

إذ تخلت عن معاني القيم».

والنتيجة الحتمية هي السقوط، بل أن التشكيل الزماني المرتبط بالإيقاع يجسد هو الآخر حالة التعثر فالانهيار، إذ أن البيت الأخير من المقطع السابق: (فهي تهوي نحو قعر العدم «يتشكل من ثلاث تفعيلات» فاعلاتن)، وكل تفعيلة من التفعيلتين الأوليتين تتكون من سبب ووتد مجموع وسبب، وعند نطقنا لكلماتها نحن عند كل ساكن بنوع من التعثر والصمت ينتابان ألسنتنا، وهو تعثر يناسب فعل «تهوي» الحضاري، ثم تأتي التفعيلة الثالثة «فعلن» المنتمية إلى أسرة «فاعلاتن» لتؤدي هي الأخرى نفس المعنى، «فالخبن» من جهة، و«الحذف» من جهة أخرى، أحالا كلمة «عدم» إلى وجود مسطح لا نتوء فيه ولا ارتفاع، بالإضافة إلى رتابة الإيقاع بعد سقوط نفس الساكنين، وأثناء قراءة البيت منغماً نحس فعلاً بالسقوط نحو الحضيض إلى أن نصل إلى الكسرة الأخيرة الموغلة في هذا المسار، فيسمى الصرح والأبراج في مسرح هذا (العالم/ الحضارة) «مشهداً عيناه تبكي الدِّمنا».

وتستمر لحظة السقوط تلك لتشمل جميع الجوانب المادية، بل تتعداها إلى المجالات الفكرية.

ويعود الناس يفني بعضهم بعضاً

لأن العقل قد فسخه

عصر الحضارات الهزيل

عصر ذبح القيم

فوق صرح المدينة

«إن هذه الفلسفة أفلتت من يدها حبل النجاة».

فتعذر عليها إنقاذ البشرية من دروب الشوك والانشطار، ولقد أدرك أبناؤها هذه الحقيقة إدراكاً عميقاً، فها هو أحدهم، ممن تربوا في أحضاننا يؤكد في صراحة منقطعة النظير بأن «الغرب عرض، وثقافته شوهاء، أنها انعزلت عن أبعاد جوهرية» ويضيف: «إن الغرب يعتبر خلال ألف سنة مضت، أكبر مجرم في التاريخ، إنه اليوم وبالنظر إلى سيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية ـ بلا مزاحم ـ يفرض على العالم كله نموذجه التنموي الذي يؤدي في الوقت ذاته، إلى انتحار عالمي»[1].

وليس الانتحار العالمي ـ بما أنه اختياري ـ إلا مظهراً من مظاهر الانهيار والسقوط... ولقد «شهد شاهد من أهلها»!!

ويستمر الشاعر في استحضار مظاهر ذلك السقوط الذي ساهمت فيه التكنولوجيا عن غير قصد، إلا أن إيمانه يفرض عليه مجابهة اليأس الذي حاول أن يسيطر على «البيوت» في «الأرض الخراب»، فيأمل في أن يتعانق (الحب = الإيمان) مع (الإلكترون = العلم) حتى تبعث الحضارة اللائقة بإنسانية الإنسان:

«لو أن حباً ضم جَنْحَيْه على القطبين كي يبعث في أحضان هذا الكوكب الدفء اللطيف

لو جرى الحب بأعراق

دماغ الإلكترون المخيف

لم نكن نخشى على مستقبل العالم والإنسان شيئاً».

غير أن هذا العناق لن يتحقق إلا بـ(النبي/ الإسلام) الذي أنقذ الانهيار الأول بميلاد حضارته الجديدة:

---

(١) «وعود الإسلام»، روجيه غارودي، الدار العالمية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٤، ص١٣ ـ ٢٢.

«إن وضعاً عالمياً

مثل هذا هددوه بالفناء

لم يعد يملك إلا دمعتين

رفعتها كفه نحو السماء

علها تبعث للأرض نبياً!!

يخرج الناس من الظلمة إلى النور

ثم يرعى حق إبداع العصور».

وهنا تتحد قصيدة هاشم الرفاعي بقصيدة حكمت صالح لينطلقا نحو نهاية واحدة وهي الأمل في الانبعاث، انبعاث الحضارة الإسلامية التي تجد مشروعيتها وولادتها في أحاديث الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وإذا كان السقوط حتمياً فإن الأمل في الانبعاث أكثر حتمية منه، وبذلك تخلق القصيدتان «حتمية تفاؤلية» كما يسميها د.عماد الدين الخليل[1]، ولكن السؤال الذي بلغ هنا هو: متى؟ وكيف؟ بل إنها أسئلة كثيرة ترفع أعصابنا وأفئدتنا إلى حالة كبيرة من التوتر والمعاناة والمسؤولية بأننا:

«سنفتح هذا الزمان العصيا

بأمر الذي قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾

سنرفع هاماتنا للسماء

ونزرع عالمنا بالضياء[2].

---

(١) عماد الدين الخليل «ابن خلدون إسلامياً» المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص٨٠.

(٢) من قصيدة «الطريق» للشاعر المغربي حسن الأمراني، مجلة «الفرقان» المغربية، ع٣، س١، ١٩٨٤.

وهي أسئلة تؤرق المفكرين مع الأدباء، ألم يتساءل روجيه غارودي في قوله:

«لقد أنقذ الإسلام في القرن السابع الميلادي إمبراطوريات كبيرة متهاوية، فهل يستطيع اليوم أن يجعل لنا جواباً عن قلق ومشاكل الحضارة الغربية التي ظهرت ـ خلال أربعة قرون ـ خليقة بحفر قبر، على المستوى العالمي، وقلب ملحمة إنسانية مبنية على إبداعات وتضحيات[١]؟

لقد ساعدني نص «غارودي» هذا على إيجاد المصطلح اللائق بحضارة العصر الحديث، أنها، بالإضافة إلى انهيارها، تسعى إلى «التعبير العالمي» حيث الأطلال تمتد هنا وهناك وتجسد الموت الشامل الذي ينتظر الانبعاث، وما ذلك على الله بعزيز.

وبعد، فإن لقضية «الموت والانبعاث» بالنسبة للحضارات، تخضع، في الأدب الإسلامي، لمنطلق الحقيقة والواقع، وليست بخاضعة لمنطلق الأسطورة كما تذهب إلى ذلك الناقدة «ريتا عوض» في نقدها الأسطوري[٢]، خاصة في ظل الاختلاف حول تحديد مفهوم الأسطورة، ولقد حاولت أن أرصد تلك الظاهرة (الانهيار والنماء) من خلال الرؤية الإسلامية، ليتم التأكيد، من جهة على حضور الأدب الإسلامي وتفاعله مع القضايا الاجتماعية والحضارية ولندرك، من جهة ثانية، بأن نقدنا الإسلامي يتوجب عليه ـ حتى يكون في مستواه المطلوب ـ أن يرتاد عوالم متعددة وآفاق متنوعة، ليخرج سالماً من مرحلة العموميات ويدخل مراحل التفصيل والتبويب والتحليل المستفيد ـ بكل وعي وبصيرة ـ من هنا وهناك ـ داخل حقل الآداب الإنسانية المتنوعة[٣].

بقلم: محمد إقبال عروي
أستاذ الأدب العربي ـ المغرب

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥.

(٢) ريتا عوض «أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي الحديث»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، أبريل ١٩٧٩.

(٣) المسلم المعاصر، ص١١، عدد ٤٤، جويلية، سبتمبر ١٩٨٥.



الفن الإسلامي
حقيقته ومجالاته

ليس من الضروري أن يتحدث الفن الإسلامي عن الإسلام: حقائقه، وعقائده وشخصياته، وأحداثه، وإن كان من الجائز بطبيعة الحال أن يتناول كل هذه الموضوعات. . . ولكنه يتناولها، كما يتناول الوجود كله، وكل ما يجري فيه من زاوية إسلامية، ويستشعرها بحس إسلامي.

قد يتحدث لنا الفنان عن البرعم النابض الذي ينبثق من ضمير الحياة.

قد يتحدث عن الجبل الشامخ الأشم.

قد يتحدث عن نبتة وحيدة في الصحراء.

قد يتحدث عن الليلة المقمرة.

قد يتحدث عن طفلة شريدة.

قد يتحدث عن مواجع البشرية.

قد يتحدث عن ضربة من ضربات القدر.

قد يتحدث عن صراع الناس في الأرض.

قد يتحدث عن بطل أسطوري[1].

---

(١) وقد يتحدث عن العدل والظلم، وعن الفساد والإجرام، وعن الانحراف وأسبابه وأشكاله. فمجال الفن الإسلامي يشمل الكون والإنسان، وحقيقته أن يدعو إلى الخير والجمال والإحسان.

قد يتحدث عن ذلك كله فيكون فنه إسلامياً، إذا تلقاه في حسه بتصور الإسلام الصحيح، وعبَّر عنه بروح هذا التصور.

وقد يتحدث عن الرسول ﷺ، أو عن غزوة من غزواته، أو عن حقيقة من حقائق العقيدة، فلا يكون فنه إسلامياً إذا تحدث عنه بغير هذه الروح، ودون إدراك لحقيقة التصور الإسلامي.

لو حدثنا عن الرسول ﷺ ـ مثلاً ـ على أنه «بطل» من أبطال البشرية، على أنه جماع الخير وممثل الفضائل، على أنه شخصية عبقرية متعددة الجوانب عميقة الغور... فإلى هنا لا يكون فنه إسلامياً مع أنه يتحدث عن رسول الإسلام ذاته، ويتحدث عنه بروح الإعجاب والتقدير!

إنه يتصور الحياة البشرية ـ فضلاً عن قمة هذه المتمثلة في النبوة ـ على أنها حقيقة أرضية منقطعة عن حقائق الكون، ويتصور النبوة على أنها ضخامة بشرية منقطعة عن الحقيقة الكبرى ـ حقيقة الألوهية ـ.

وليس هذا تصور الإسلام...!

ولكنه حين يصورها على أنها حدث كوني، يلتقي بناموس الوجود الأكبر المهتدي إلى الله بجميع طاقاته وجميع كائناته... حين يصورها على أنها نور كوني مشع لأنه قبسة من نور الله... حين يصورها على أنها إشراقة كونية أشعلت الحياة على وجه الأرض وأنارت لها الطريق لكي تسير على المنهج، وتتوحد في اتجاهاتها مع اتجاه الكون الكبير... حين يصورها على أنها حقيقة واصلة بين السماء والأرض تسير بقدميها على الأرض وترفرف بروحها في السماء، حين يصورها على أنها الصورة المشرقة للخلافة عن الله في الأرض... فحين ذلك يكون فناً إسلامياً صادق التصور لحقائق الإسلام.

وحين يصور غزوة بدر ـ مثلاً ـ على أنها معركة حدثت في الأرض بين جنود الخير وجنود الشر، وأن جنود الخير على قلتهم قد انتصروا على ضعف عددهم من الناس لأنهم أصحاب عقيدة أو لأنهم على الحق وأعداؤهم على الباطل... فربما يكون قد دخل مجرد دخول في عالم

الإسلام والفن الإسلامي. . . ولكنه لم يرق فيه صعداً، ولم يصوره في الرقعة الفسيحة التي يحققها الفن الواصل المنير.

أما حين يوسع رقعتها فيصورها على أنها سنة من سنن الكون: أن النور يطرد الظلمة، والهدى يطرد الضلال، حين يصورها في ساحة القدر العليا. . . كيف تدخل قدر الله فقاد الجماعة المسلمة من حيث أراد المسلمون لأنفسهم، معركة صغيرة في سبيل الغلبة المادية على متاع من متاع الأرض، إلى المعركة الحقيقية الكبرى العميقة في كيان الوجود، معركة العقيدة، معركة الفرقان بين الحق والباطل إلى آخر الزمان[1]، فانتصروا من حيث لا يشعرون على معنى الشرك كله ومعنى الضلال كله، وتقررت حقيقة العقيدة في هذه الأرض ناصعة جليلة خالدة، وارتفع الإنسان على نفسه، على عالمه المباشر الذي يعيشه بحواسه، إلى العالم الأكبر الذي يعيشه بروحه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[2]. .

حين ذلك يكون فناً إسلامياً عالياً، لأنه ينقل الحادث المفرد واللحظة العابرة إلى دلالتهما الكونية في الساحة الخالدة. . . فيكون صادق التعبير عن حقائق الوجود وحقائق الإسلام، وعلى هذا النسق نستطيع أن نتصور حقيقة الفن الإسلامي.

***

ومجالات الفن الإسلامي هي كل مجالات الوجود مرسومة خلال النفس المؤمنة المتفتحة بالإيمان.

---

(١) يعني التعبير القرآني بتقرير هذه الحقيقة الكبيرة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، ويبلغ الفن الإسلامي قمته حين يتناولها من هذه الزاوية التي يشير إليها التعبير القرآني.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٧، ٨.

فحين يتحدث عن الكون... عن «الطبيعة»... فهو يراها خليقة حية متعاطفة، ذات روح تسبح وتخشع، وتغضب وترضى، وتصادق وتعادي... تصادق الحق وتغضب على الباطل... ويرى كل كائن نوعاً من الحياة والروح، من وراء الأشكال التي قد تبدو جامدة أو ميتة، كما يقول القرآن عن السماء والأرض: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١] وكما قال الرسول ﷺ عن جبل أحد: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»[٢].

وحين يتحدث عن الخلائق «الحية» من حيوان وطير ونبات، فهو يحس نحوها بالتعاطف والمودة ووشائج القربى التي تصل كل الكائنات بعضها ببعض، وتصل بين الأحياء خاصة في هذه الأرض.

وحين يتحدث عن الإنسان فهو يرى فيه خليفة الله في الأرض، فهو ليس إلهاً ولا راغباً في أن يكون إلهاً أو شبه إله، فذلك كله ليس حقيقة، والحقيقة الواحدة أن للكون إلهاً واحداً هو الله. ولا ينبغي أن يكون فيه أكثر من إله، ولا أشباه إله، والإنسان من جهة أخرى ليس كمية سالبة تتحكم فيها قوى الاقتصاد والمادة ومختلف الجبريات الأرضية، فذلك كله ليس حقيقة، والحقيقة أن الإنسان عنصر إيجابي في هذا الوجود، محسوب حسابه في تصميم الكون، ومسخر له السماوات والأرض من عند الله: والحياة متأثرة بأفعاله سواء في الخير والشر، وإرادة الله ماضية عن طريقه ومن خلال وجوده وتصرفاته[٣].

وهو كذلك مخلوق ليس بالملاك ولا بالشيطان وإنما هو إنسان!

وهو مشتمل على قدرات إلى أعلى حين يعرفها ويحسن استخدامها، ولكنه مشتمل كذلك على منافذ للضعف ومنافذ للغزو، ينفذ منها عدوه

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٢) متفق عليه.

(٣) **تعليق**: ذلك أن الإنسان هو الكائن الوحيد في الوجود كله الذي يرتبط بالله عز وجل بعلاقة الإيجاد والخلق التي يشترك فيها مع كل الكائنات، ويتميز عنها بكونه الكائن الوحيد الحامل لسر الله عز وجل المتمثل في الروح بما تتضمنه من علم، وحكمة وقدرة... وغير ذلك ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.

الأصيل وهو الشيطان، والمعركة دائرة على أشدها لا تفتر بين الإنسان والشيطان منذ بدء الخليقة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والإنسان الأعلى يقضي حياته ـ رغم ضعفه البشري ـ يحاول أن يسد في نفسه منافذ الشيطان. وهو إنسان بقدر هذه المحاولة، وبقدر ما يصطبر عليها أمام شتى المغريات.

وفي ميدان الصراع بين الإنسان والشيطان يجد الفن الإسلامي آفاقاً واسعة وجوانب رائعة، وحقولاً خصبة للإبداع الفني الأصيل.

والإنسان يصور في لحظة القوة ولحظة الضعف. ولكن يُهتف له دائماً من جانب الصعود، فجانب الهبوط موجود من نفسه لا يحتاج إلى هتاف! ولحظة الضعف لا تحتاج إلى تسجيل!

لحظة الجنس الطاغية التي تفقد الإنسان ضوابطه، فلا يملك نفسه وينجرف في التيار... هذه اللحظة بكل ما فيها من انفعالات عنيفة ودفعات دافقة، لا تستحق أن يقف عندها الفن يصورها تصوير المعجب بها، المهتز لها، المتفنن في تسجيل دقائقها، الحريص على إبراز كل جزئية من جزئياتها، المستمتع بها، الذي يريد أن ينقل هذه المتعة للآخرين[١].

لا تستحق... لأنها لحظة هبوط وليست لحظة ارتفاع.

لا تستحق أن يقال فيها الشعر وتصفها القصة وتصورها اللوحة المرسومة أو الصور المتحركة لأنها ليست في سبيل توكيد حقيقة الإنسان، وإنما هي تؤكد الجانب الأرضي المحدود من الإنسان. وهذا ليس في حاجة إلى توكيد! فهو حقيقة جاثمة بكل غلظها على الأرض. حقيقة واضحة

---

(١) لا يدخل في حسابنا بطبيعة الحال أولئك الذين يريدون أن يفسدوا المجتمع عن عمد ويشيعوا الفاحشة فيه لغرض ملتو خبيث، وإنما نتحدث عن الذين يظنون ـ مخلصين ـ أن ذلك فن من الفنون. أما الذين يعمدون إلى توظيف الجنس باعتباره قيمة جمالية وفكرية فهم مرتزقة الفن وشذاذ القيم، والمفلسون فكراً وفناً. إذ الجنس عامة ليس قضية من قضايا الإنسان تندرج في إطار صراع القيم والمفاهيم والمبادئ، وإنما هو حاجة فطرية يمارسها الإنسان والحيوان على حد سواء، بل ويمارسها النبات في إطار سنة التلقيح من أنواع النباتات والأشجار. وتحويلها الجنس إلى قضية، زيف مفضوح.

مقررة يشترك فيها الحيوان والإنسان. ومن ثم لا يختص بها الفن الإنساني، وإنما الفن الإنساني موكل بتسجيل «الإنسان» تسجيل الخصائص التي تفرد بها هذا الإنسان وتميَّز بها عن سائر الكائنات في الأرض. فإذا سجل لحظة الوجود «الحيواني» فعلى أنها وجود حيواني، لا على أنها قمة يرتفع إليها الإنسان.

لقد يخيل للإنسان في ساعة الشهوة الجارفة التي يسميها «الحب» خطأ منه، أنه يحقق كيانه الاسمي، ويرتفع على الواقع الصغير واللحظة العابرة فيتصل بآفاق الوجود العليا وحقائق الكون الكبير، وذلك ليس حقيقة... ألا أن يكون هذا الحب خالياً من الدنس: دنس المخالفة عن نواميس الحياة المتمثلة في سنن الشريعة الإسلامية، وكل ما يحدثه الحب الشهواني ـ أحياناً ـ من «تهيؤات» الرفعة والطلاقة، فهي كتهيؤات المخمورين... لا تعبر عن الحقيقة، ومن ثم لا تستحق حفاوة الفن، ولا تستحق حفاوة الإسلام!

ولا يحتاج الأمر إلى جدل بشأن ما تشتمل عليه تلك اللحظات الهابطة من لذة وإمتاع! فتلك بديهية من بديهيات التجربة البشرية الحسية الأولية: إن الشهوات كلها مغرية ومحببة للإنسان: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ...﴾[1]، ولكن للإنسان طاقات أعلى وآفاق أرحب، يستطيع أن يحس فيها «بجمال» أرفع وأعلى، هو ضبط هذه الشهوات ـ رغم ما لها في نفسه من إغراء وتزيين ـ والاكتفاء منها «بالطيب» النظيف... ثم هناك درجات أعلى، قد لا يصل إليها كل إنسان ـ ولكنها موجودة رغم هذا في عالم الواقع ـ وذلك حين لا يقف الإنسان عند «ضبط» هذه الشهوة وهو منجذب إليها في داخل نفسه ـ وتلك في ذاتها مرتبة رفيعة وعالية ـ بل يستطيع كذلك أن يحس إحساساً حقيقياً بالنفور من كل متعة هابطة، والتقزز من كل عمل فاحش... ولا يشعر أنه محروم مع ذلك من المتاع بل كاسب متعة الشعور بالنظافة والاستعلاء!

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤.

وتلك قمة الإنسانية... القمة التي تحاول التربية الإسلامية أن تصل إليها. بهدي من الله ورسوله، والّتي يرسم الفن الإسلامي لمحات منها، حين يستطيع الفنان المسلم أن يصل إلى هذا المستوى الرفيع في تجاربه الشعورية الذاتية.

وإنما يعالج الفن الإسلامي موضوع العلاقة بين الجنسين من خلال تصوره لهذه العلاقة... من خلال تحقيقها لأهداف الحياة العليا... من خلال رفعها للرجل والمرأة كليهما إلى مستوى الإنسانية... من خلال حثها كلاً من الرجل والمرأة على إبراز أجمل ما عنده وأرفع ما عنده... من خلال توسيع دائرة الشوق الجنسي حتى يشمل الأشواق العليا المتصلة بصميم الكون وفطرة الحياة، والتي لا تقف عند اللحظة العابرة واللقاء العارض بل تمتد حتى تشمل الحياة كلها، ونظام الحياة المستمد من الحقيقة الكبرى المسيطرة على كل شيء في هذه الحياة.

وقد يعالجها كذلك من زاوية الهبوط والضعف... حين تصبح هي شاغل الحياة ومزلقاً يودي إلى الهبوط عن آفاق الحياة العليا. حين تصرف الإنسان من الاشتغال بالمشكلة الكبرى في حياة الأرض: مشكلة إحقاق الحق والعدل الأزليين، في السياسة والاجتماع والاقتصاد وعالم الفكر وعالم الروح... مشكلة الصراع ضد الشر في جميع صوره وأشكاله... مشكلة تحقيق الغاية العليا من وجود الإنسان وخلافته عن الله في الأرض، ولكنه يعالجها حينئذ على أنها هبوط لا على أنها ارتفاع.

فإذا أراد شخص أن يقول: إما لحظة الجنس وإما لا فن على الإطلاق... فليقل ذلك. ولكن فليعرف أنه ـ بالمقاييس الكونية والمقاييس «الإنسانية» ـ شخص منحرف. وأنه لا يستطيع ـ مهما بدا في نظر نفسه جميلاً ورشيقاً وممتعاً ـ أن يفرض انحرافه ذلك على سنن الكون والحياة.

والفن ـ لا شك ـ أوسع من عالم الجنس لأن الحياة أوسع وأرحب من أن تنحصر في هذا النطاق، وحين «يحرم» الناس من متعة الشهوة في عالم الفن ـ ولا حرمان في الحقيقة للإنسان المترفع، الذي يتعود حسه على

النظافة في كل شأن من شؤون الحياة ـ فعليهم أن يتعودوا تذوق مستويات أعلى من الجمال: المستويات الفسيحة الرحيبة، التي تشمل الحياة في نقاطها الأوسع والتي تعرض عن الجمال الأصغر الذي تفوته بالجمال الأكبر الذي تسعى إلى تحقيقه... جمال «الخير» وجمال «الحق» وجمال «العدل»... وجمال إقامة الحياة البشرية على هذه المعاني الجميلة كلها، والنضال المستمر في سبيل هذا الهدف الذي يتصل ـ حين يتحقق ـ بسنن الكون كله والحياة.

* * *

ومراعاة «التناسق» ذاته من عناصر الجمال الكوني، تقتضي أن تكون رقعة الجنس في مكانها الصحيح من لوحة الفن، التي هي في الواقع تصوير جميل موح للوحة الحياة.

وقد يقال: إن الفنان شخص «مختل النسب» بطبعه! وأن الجمال هو هذا الاختلال!

وتلك النظرة سطحية منقطعة عن الحقيقة الكبرى... حقيقة الكون المتناسق في كل حركة من حركاته وكل جزئية من جزئياته، تناسقاً لا يختل مع حركته الدائمة منذ الأزل، حقباً لا يعرف مداها إلا الله.

نعم، إن الفنان كائن ذو حساسية خاصة. فهو لا يحس الأشياء كما يحسها البشر العاديون، ولا بالنسب التي تراها بها العين الآلية المجردة، التي «تنفعل» بما تراه.

ولكن ذلك ليس معناه اختلال النسب في حس الفنان!

إنه ـ بتأثير هذه الحساسية المنفعلة بالأشياء ـ يحس كل شيء أضخم من «حقيقته» الظاهرية التي تراه بها العين الآلية المجردة. ولكن مع احتفاظها بنسبها بعضها إلى بعض، لأن تكبير اللوحة كلها لا يقتضي الإخلال بجزئياتها، وإنما هو يبرز هذه الجزئيات كلها، ويجعلها ـ في مجموعها ـ واضحة قريبة يتملاها بلا عناء.

وتلك هي موهبته وعبقريته. فالفنان هو العدسة المكبرة التي تكبر حقائق الحياة وتوضحها للرؤية. أو العدسة المقربة التي تقرب المنظر للحس حتى تبدو جزئياته البعيدة المختلطة المبهمة واضحة مفصلة محددة مع ترابطها وتناسقها. أو هو العدسة «الكاشفة» التي تكشف عن حقائق الأشياء الباطنة التي لا تراها العين الظاهرة.

ولكن هذه العدسة ـ أياً كان وصفها ـ حين تقوم بعملها في التكبير أو التقريب أو الكشف لا تخل بنسب الأشياء بعضها إلى بعض، ولا تفسد ما بينها من تناسق وارتباط.

وإنما الأقرب إلى الحق أن يقال: إن «بعض» الفنانين قد اختلت النسب في نفوسهم، فهم يرون الحياة كلها من خلال جزئية واحدة من جزئياتها: من خلال الجنس أو من خلال الصراع الطبقي، أو من خلال التفسير المادي للتاريخ... وهؤلاء مختلون بوصفهم بشراً وكذلك بوصفهم فنانين، فليس للفن مقياس وحده ينعزل به عن مقاييس البشرية الحقيقية، التي هي مجموعها إحدى الجزئيات المتناسقة في مقياس الكون الكبير.

وعلى الرغم من كل الحقائق الجميلة التي قد يعثر عليها فنان له هذه الاختلالات، فمن المسلم به من بديهيات هذا الكون ـ وبديهيات الحس البشري ـ إن الحقيقة الأشمل هي الحقيقة الأجمل، وأنه كلما اتسعت رقعة اللوحة وتناسقت جزئياتها كان ذلك أقرب لحقائق الوجود، وأقرب إلى التصور البشري السليم الذي كان من نعم الخالق الباهرة أن يجعله متجاوباً مع روح الكون الكبير.

ومن ثم يصبح هذا الفنان المختل فناناً صغيراً مهماً أوتي من براعة التصوير في الجزئية المفردة الذي يتلقى الحياة من خلالها ويصورها من خلالها كذلك، ويكون الفنان الذي يتلقى الحياة ويصورها من خلال مساحة أوسع وجزئيات أكثر عدداً وأكثر ترابطاً... أعظم من الفنان المختل، بجميع المقاييس... المقاييس البشرية والمقاييس الكونية على سواء.

ونجيء الآن إلى لبس قد يتبادر إلى الذهن من هذا التصور: إن العمل

الفني ـ خاصة إذا كان قصيدة غنائية أو خاطرة أو أقصوصة، لا قصة، أو كان لحناً موسيقياً أو لوحة مرسومة ـ لن يتسع لكل حقائق الوجود دفعة واحدة. لن يتسع لها في حس الفنان، ولن يتسع لها في الرقعة المتاحة للتعبير.

ومهما يكن في حس الفنان من شمول وفسحة فلا بد من لحظات «متخصصة» يحس فيها بخاطر مفرد، أو لمحة عابرة تلتقط جزئية واحدة من جزئيات الكون أو الحياة.

وهذا كله صحيح. ولا بد من «التخصيص» في الالتقاط والتعبير ساعة بعد ساعة، في نفس الفنان ونفس كل بشر في هذا الوجود. فالحس البشري لم يهيأ بفطرته للنظرة الشاملة المتكاملة في كل لحظة من لحظات الحياة.

لكن هذه الحقيقة لا تصرفنا عن أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن الفنان الكبير ـ وهو الإنسان الكبير ـ لا «تنفصل» في حسه الجزئيات بعضها عن بعض، جتى وهو يلم في حسه أو في تعبيره بجزئية واحدة من الجزئيات.

ولنتصور مثلاً، أنه يلم بجزئية الجنس، أو جزئية الصراع الطبقي، إن شيئاً من ذلك لا يقوم في حسه منفصلاً عن بقية الوجود، إنه في «هذه» اللحظة يحس بخاطرة من خواطر الجنس... ولكنها لا تستغرقه بوصفها جنساً منقطعاً عن حقائق الحياة، إلا حين تهبط إلى مستوى الحيوان الذي يعيش حياته جزئيات منفصلة لا يرتبط بعضها ببعض. أما إذا أحسها «عواطف» حب نظيف فيه استعلاء وترفع... فهو هنا مرتبط بناموس الوجود الأكبر وجماله الشامل، ولو لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الناموس، وهو ليس في حاجة إلى هذا التذكير الصريح في كل مرة ولا في أية مرة، فإنما يكفي أن ينقلنا ـ الإيحاء والتأثير ـ إلى هذا العالم الفسيح، لندرك أنه غير مقطوع الصلة بجمال الكون الكبير.

وكذلك حين يلم في «هذه» اللحظة الرائعة بالصراع الطبقي، أن هذا الصراع لا يستغرقه بوصفه ظاهرة علمية، ولا بوصفه الحقيقة المفردة التي يتلقى من خلالها كل حقائق الحياة.

ولكنه ليس في حاجة إلى خطبة وعظية ليثبت لنا إنه مدرك لنواميس الكون العليا، وأن الحق والعدل الأزليين يستنكران الظلم الاقتصادي والظلم الاجتماعي... وإنما يكفي أن يعطينا هذا الإيحاء ـ بصورة من الصور ـ لندرك اتساع الرقعة في حسه، وعدم انحصارها في «مذهب» فكري معين، أو نافذة واحدة من نوافذ الحياة.

وبهذه الطريقة يلم الفنان الكبير بجزئيات الحياة، المتخصصة في كل مرة، دون أن تكون في تخصصها منقطعة عن حقائق الوجود.

وبطبيعة الحال لا يفتعل الفنان هذه المشاعر افتعالاً لنقول عنه: إنه فنان كبير واسع الآفاق! فكل افتعال هو تزوير في الحقيقة البشرية وتزوير في الحقيقة الفنية، سرعان ما ينكشف لحس القارئ البصير، الذي يدرك بفطرته تزوير الافتعال وحقيقة الانفعال.

والأمر الثاني: أن الكيان البشري المشتمل على جسم وعقل وروح، ومئات من المشاعر المتباينة والأحاسيس المتشعبة، يحوي قدراً من المرونة يسمح ببروز جانب من الجوانب في لحظة معينة وانحسار جانب آخر، كما يسمح ببروز شعور معين.

في إحدى اللحظات يطفو على بقية المشاعر ويغطيها... ولكن في هذا الكيان في حقيقة الأمر من الترابط والتماسك ما لا يسمح بانفصال جانب عن بقية الجوانب في أثناء بروزه في لحظة معينة، ولا بانفصال شعور واحد عن بقية المشاعر وإن بدا للنظرة القريبة أن ذلك قد يحدث في بعض الأحيان!

الذي يحدث بالفعل أن جانباً أو شعوراً يغلب في لحظة على بقية الجوانب أو المشاعر، ولكنه لا ينفصل عنها[1]، إلا إذا أصيب الإنسان باختلال مرضي كانفصام الشخصية أو ازدواجها، أما الكيان النفسي السليم فلا يحدث فيه قط ذلك الانفصام.

---

(١) ولا يلغيها في ذاتها أو يُعْدمها، وإنما تظل موجودة ومؤثرة بصورة غير مباشرة وذلك ما يتجلى عقب انحسار لحظة الغلبة الظرفية بملابساتها وعودة المشاعر المركبة والمشبعة بالتباين، والتنوع، والتكامل، والتفاعل.

والنفس السليمة المتكاملة تتداول هذا البروز والانحسار بجوانبها المتعددة ومشاعرها المتباينة، بحيث تصبح ـ في مجموعها ـ شاملة لكيانها كله، لأنها في الحقيقة لا تثبت على بروز معين أو انحسار معين إلا إذا أصيبت بالاختلال.

والفنان الكبير ـ في مجموعه ـ يعبر عن مداولات النفس كلها في مختلف حالاتها. . . أي يعبر عن واقع الوجود كله في حسه، من مختلف منافذه وبجميع أبعاده. . . لا عن جانب واحد من جوانب هذا الوجود.

ويخلص لنا من هذين الأمرين حقيقة متكاملة: هي أن الفنان الكبير لا يعطينا في أية لحظة من لحظاته لمسة «متخصصة» بمعنى الانقطاع عن حقائق الوجود العليا وإنما يمنحنا في كل جزئية متخصصة قبسة من الوجود الأكبر، تعمق هذه الجزئية ذاتها في إحساسها، وتعطيها نكهة جميلة، لأن فيها من شذى الوجود كله بالإضافة إلى شذاها الخاص، إنه ـ في مجموعه ـ لا يعطينا الوجود من خلال جزئية واحدة ثابتة ـ كجزئية الجنس أو جزئية الصراع الطبقي ـ إلا أن يصلها في حسه وفي حس القارئ بالوجود الكبير ونواميسه فيعوضها بذلك عن ضيق المساحة وضآلة القدر. ومع ذلك فهو أضخم في عالم الفن وعالم الإنسانية كلما استطاع أن يعرض لنا الوجود من خلال نوافذه المتعددة ومجالاته المتباينة. . . فذلك أقرب إلى إعطاء «حقيقة» الوجود.

وبمقتضى هذا الشمول والتكامل يعرض لنا الفن الإسلامي حياة البشرية من جميع جوانبها وفي جميع لحظاتها، فلا يقف ـ مثلاً ـ عند لحظة الجنس يفصلها ويحللها ويعيدها ويكررها، ويضخم كل جزئية فيها. . . بينما يترك بقية اللوحة البشرية خاوية من التعبير.

إنه يعبر عن العلاقة بين الجنسين ـ بقدرها، ومواصفاتها التي سبق ذكرها ـ ثم ينطلق يصور بقية جوانب النفس وجوانب الحياة.

يعبر عن «الحب» في مجاله الأكبر، الذي يشمل الحب الإلهي، والحب الإنساني وكل لون من ألوان هذا الحب يمكن أن يستغرق فناً

بأكمله، ولا يكون ضيق المساحة كالحب الجنسي، لأنه حقيقة كونية كبيرة تتصل بالناموس الشامل كله، ولا تختص بجزئية بسيطة من هذا الناموس.

ويعبر عن «الكره» في مجاله الأكبر، كره الشر كله والانحراف كله، والجهاد ضد هذا الشر بجميع صوره وأشكاله.

ويعبر عن «الصراع» في مجاله الأكبر... صراع الشيطان وصراع القوى وصراع القيم وصراع الأشياء، وكل لون من ألوان هذا الصراع يمكن أن يستغرق فناً بأكمله... على شرط ألا «يتبلور» في صورة مذهب، ولا ينقلب إلى وعظ مذهبي كذلك الذي يمارسه كتاب الصراع الطبقي أحياناً وكتاب التفسير المادي للتاريخ.

إن التعبير عن الصراع هو في الحقيقة تعبير عن واقع البشرية، بكل خيوطه المتشابكة ونسيجه المتباين الألوان، ومن ثم ينبغي أن يعرض من خلال نفوس بشرية لا من خلال «أفكار» ولا «مذاهب» ولا «فلسفات»، وليس هذا تحريجاً على اعتناق الأفكار والمذاهب... بل الأمر على العكس من ذلك، فالفن الإسلامي «يلتزم» تصوراً معيناً للحياة، فللحياة البشرية بصفة خاصة، ويعبر من خلال هذا التصور وحده، ولكن طريقة الفن في التعبير تختلف عن طريقة العلم وطريقة البحث المذهبي المجرد، فإذا تحدثنا عن الصراع الطبقي أو التطور الاقتصادي في صورة مذهبية خالصة، أو صورة خالصة، أو صورة تجريدية، فذلك لا يختلف من الوجهة الفنية عن نظم المواعظ الخلقية في الشعر، أو تضمينها بصورتها المباشرة في حوار قصة أو مسرحية... وهو ليس عملاً فنياً على أية حال. إنما ينبغي أن تبرز هذه المعاني كلها على حقيقتها «البشرية»، أي من خلال تأثيرها في نفوس الناس من خلال المشاعر والانفعالات والتصرفات التلقائية.

والفن الإسلامي يعني عناية خاصة بحقيقة الشمول والتكامل في النفوس البشرية فلا يحب ـ مثلاً ـ أن يعرض الجانب المادي من الإنسان وحده بمعزل عن الجانب الروحي. ولا يحب أن تعرض الصراعات الاقتصادية والطبقية كأنها الحقيقة الكاملة للحياة البشرية وتشويه لصورتها.

إنه يحب ـ وخاصة في الفنون التي تعرض بطبيعتها رقعة واسعة من الحياة كالقصة والمسرحية ـ إن تعرض الصورة كاملة، بمادياتها ومعنوياتها، وقيمتها الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية، مترابطة متداخلة ممتزجة كما هي في حقيقة الواقع، مؤثرة كلها بعضها في بعض، ومتأثرة كلها بعضها ببعض، مع إبراز القيم الروحية والمعنوية، لأن بروزها ذلك حقيقة كونية متصلة بصميم فطرة الكون، المتجه بروحه إلى الله، السائر على هُداه. وحقيقة بشرية متصلة بصميم فطرة الإنسان، الذي لم يصبح «إنساناً» مكرماً إلا بنفخة الروح العلوية في قبضة الطين.

أما الفنون التي تعرض بطبيعتها لمحة من الحياة البشرية في لحظة معينة، كالقصيدة واللوحة، فالإسلام يرحب فيها باللمحة الروحية والأشواق العليا، أكثر مما يرحب بالحقيقة المادية وأشواق الجسد الغليظة... تمشياً مع نظرته العامة التي ترى الروح أبرز في كيان الوجود وأحق بالإشادة والتسجيل.

وليس معنى ذلك، أن الحديث عن الصراع الطبقي في قصيدة أو لوحة أمر غير مباح... كلا! ولكن معناه فقط أن يعرض الموضوع من خلال عذابات الروح والقيود الجائرة التي تغل النفس عن تحقيق كيانها الإنساني الكامل، الخليق بخليفة الله في الأرض الذي كرمه الله واجتباه، ورسم له آفاقاً عليا من الحق والعدل ينبغي أن تحكم الحياة. ومعناه ألا نتحدث عن المصانع والإنتاج المادي على أنها ـ في ذاتها ـ تحقيق لكيان الإنسان. وإنما نتحدث عنها ـ إذا لم يكن ذلك بد ـ على أنها وسيلة يصعد بها الإنسان فوق عالم الضرورة ليستقبل الكيان الأعلى للحياة.

أما شوق الجسد الفائر فقد سبق الحديث عنه أنه لحظة هبوط لا تستحق التصوير ولا التسجيل.

أما حين تعبر القصيدة أو اللوحة أو اللحن الموسيقي على أشواق الروح العليا ورفرفاتها الطائرة وسبحاتها الطليقة... فذلك في نظر الإسلام فَنٌ صادق أصيل، لأن هذه هي «اللمحة» المناسبة لتسجيل، اللمحة التي

تحقق للإنسان كيانه الأعلى وتكمل له وجوده الأرضي المحدود.

وليس معنى ذلك أن تقتصر هذه الفنون على الرفرفات والسبحات... وإلا فأين يذهب الألم والمواجع والأحزان؟ وثقلة الضرورة القاهرة والضغط والصراع ومختلف الوجدانيات التي تلم بالإنسان؟

إنما نريد فقط أن نردّ لهذه الرفرفات والسبحات قيمتها الفنية وقيمتها الإنسانية في وسط الصراع الطبقي والتفسير المادي للفنون!

* * *

ويرسم الإسلام صورة الحياة البشرية من خلال «الواقع» كما يرسمها من خلال التكامل والشمول.

ولكن نظرته للواقع تختلف عن نظرة المذاهب الواقعية الآن في الفنون.

الواقع الإنساني في نظر الإسلام هو الواقع الأكبر الذي لا ينحصر في واقع المادة وواقع الحيوان، ولا ينحصر في واقع فرد ولا واقع جيل، ولا ينحصر في لحظة ضعف ولحظة هبوط.

فإن كان هذا كله حقيقة واقعة، فأين بقية الحقائق الواقعة في حياة الإنسان؟ ولماذا ينفرد هذا الواقع الصغير وحده بالتعبير الفني دون سائر الوقائع الجديرة بالتسجيل؟

إن كان الواقع حاضر هذا الجيل فأين تاريخ البشرية الماضي كله؟ وأين مستقبل البشرية المنظور؟ ولماذا يستولي الحاضر وحده على لوحة الفنون؟

وإن كان الواقع هو النزوع الحيواني وحده في نفس الفرد المعاصر، فأين سائر النوازع وسائر الأشواق، وسائر الطاقات الكامنة في الكيان الإنساني الضخم العجيب الأسرار والتكوين؟

وإن كان الواقع هو الأنانية والخسة والنذالة وحدها، فأين المشاعر

النبيلة والأشواق الطليقة للكيان الإنساني، وهي تتمثل في مساحات ضخمة من حياة البشرية في تاريخها الغابر وأشواقها في المستقبل؟

وكذلك قصة «الضعف البشري»... فالضعف البشري سمة من سمات الكائن الإنساني، ولكنها ليست كل سماته. فإلى جانب لحظات الضعف البشري توجد جوانب القوى. وإلى جانب القيد الكابح والثقلة المعقدة يوجد الجناح الرفراف والشوق الطليق، وحياة البشرية ليست كلها «لحظة ضعف». بل ليست كذلك حياة أي حيوان من الحيوانات الراقية ولا أي طير من الطيور!

فإذا جعلنا لحظة الضعف تشغل مساحة اللوحة الفنية كلها وتحجب بقية اللحظات، فذلك مجافاة «للواقع» وإفساد «للتناسق» الذي ينبغي أن يحكم الفنون.

والإسلام «يعطف» على لحظة الضعف البشري، ولكنه لا يجعل منها بطولة تستحق الإشادة والإعجاب... والفن الإسلامي يلم بلحظات الضعف، ولكنه لا يملأ بها اللوحة. ولا يقف يمجد للإنسان ضعفه، ويمثله له أمراً «واجب» (الحدوث) أو أمنية المتمني! ذلك أن التصور الإسلامي يقوم ابتداء على أساس تكريم الإنسان وضخامة دوره في الأرض وعظمة مركزه في الكون. ومن ثم فهو لا يمجد الضعف البشري - وإن كان لا يحتقر الإنسان من أجله - ثم يهتف له دائماً لينهض من الكبوة وتستقر قدماه على الأرض الصلبة، ويمضي صعداً إلى الأفق السامق الوضيء.

وكذلك موقف الإسلام من «الواقع» في بيئة أو في جيل من الأجيال... إنه لا يعتبره الواقع الأبدي، إنما هو مرحلة من مراحل البشرية في طريقها الصاعد... مرحلة مهتدية إلى النهج صاعدة نحو القمة أو متنكبة منتكسة... ولكن الطريق صاعد أبداً... والإسلام حداء إلى الصعود. والفن الإسلامي أحد الموحيات القوية للنهوض والحركة والصعود. لا بالوعظ المباشر. ولكن بالإيحاء بما في طاقة الإنسان وطاقاته، وما هو مكلف إياه من مهمة ضخمة في الوجود، محسوب حسابها في تصميم هذا الوجود.

بذلك لا ينحصر عالم الإنسان في لحظة الضعف والهبوط. ولا يقف عندها يتطلع إليها تطلع المعجب المشوق فيسترسل فيها ولا يفيق!

***

والفن الإسلامي يوسع رقعة الحياة بوصل ما بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، وما بين الإنسان الفرد والجماعة، وما بين الإنسان الفرد والإنسانية التي تعمر هذا الكوكب منذ حقب موغلة في التاريخ، وما تزال تتطلع إلى مستقبل بعيد.

وبهذا الشمول والتعدد والامتلاء تصبح اللوحة الفنية أجمل وأكمل وأمتع. وتصبح أزخر بالحياة من كل لوحة تعرض جانباً واحداً من الجوانب، وتهمل بقية عناصر الحركة والحياة.

والفنون التي تصر على أن تكون رقعتها هي الأرض وحدها ـ بمعزل عن السماء ـ لأنها تستنكف أن يكون للقوى «الغيبية» دخل في حياة الناس، هي فنون ترتكب حماقتين في آن واحد![١].

الحماقة الأولى: أنها تنكر حقيقة واقعة لا سبيل إلى إنكارها، مهما بلغ البشر من التبجح والغرور!

حقيقة أن الإنسان لا يقوم وحده! ولا يدبر حياته وحده، ولا يحدد مصيره وحده! أين ـ في هذه الأرض كلها ـ ذلك الإنسان الذي يحدد لنفسه أين يولد ومتى يولد؟ أو يحدد لنفسه أين يموت ومتى يموت؟

وأين ذلك الإنسان الذي يحدد لنفسه الصفات التي يكتسبها والصفات التي يرثها من أبويه، فضلاً عن تحديد البيئة التي يولد فيها والظروف التي تتفاعل مع هذه الصفات وتلك البيئة، ليكون من تفاعلها خط سيره في الحياة؟

---

(١) ترجع إلى أمر واحد هو: إنكار الغيب، واعتبار الغيب عدماً مع أن الغيب هو العنصر الأساس في الوجود عامة وفي الإنسان خاصة، ويتمثل ذلك في «الروح» المفتقرة إلى مظاهر الموجود المادي من: وزن، أو لون، أو رائحة، والملاحظ هو آثارها في الإنسان، حياته، نطقه... إلخ، وذلك ما يجعل إنكار الغيب عامة حماقة كبرى وجاهلية عفنة. فالله عز وجل غيب لا تدركه الأبصار، وإنما تدرك آثار قدرته وعلمه.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1].

إنها لجاجة مضحكة أن ينكر الإنسان تدخل القوى «الغيبية» في حياته، وأن يزعم أنه يقرر مصير نفسه بمعزل عن الله!

وليست دعوى الإشادة بإيجابية الإنسان وفاعليته ـ كما بينا من قبل[2] ـ إلا ستاراً يخفي به هذا الجيل الشقي من البشرية رغبته في التمرد على الله. وإلا فقد وقع الإنسان ـ حين انعزل بإيجابيته المزعومة عن الله ـ في حتميات لا أول لها ولا آخر، كلها مهين، وكلها مذل لكرامة الإنسان!

والحماقة الثانية التي ترتكبها هذه الفنون هي: تضييق رقعتها وحرمان نفسها من فرص عديدة لإبراز ألوان من الجمال الفني كانت حرية أن تهتدي إليها وتبرزها لولا هذا الإصرار الأحمق على فصل ما بين السماء والأرض من صلات.

فهي أولاً: تعرض «الإنسان» في صورة مشوهة مبتورة، إذ تعرضه في جانبه الأرضي وحده، جانب الضروريات القاهرة، والواقع المادي القريب المحسوس، ولا تعرضه ـ إلى جانب ذلك ـ في جانبه الروحي والعلوي، كجانب الأشواق المرفرفة، والواقع البعيد الذي تدركه الروح من وراء الماديات والمحسوسات. وبذلك تقص منه جناحيه المرفرفين، وتتركه جثة جاثمة على الأرض لا تقدر على التحليق.

وهي ثانياً: تخلي الصورة من جمال الحركة الخفية التي تدير الأحداث والأشياء والأشخاص، وترتب لها موافقاتها ومفاجآتها، حين تجعل «الأقدار» المسيطرة على هذه الأحداث والأشياء والأشخاص هي الأقدار المكشوفة المعلومة الملموسة المقدرة، من صراع طبقي، أو مشاعر جسدية، أو قيم اقتصادية تعطي لها قوة الحتمية والإجبار! وذلك بدعوى الواقعية. . . !

في حين يصرخ الواقع الحقيقي الذي تدركه الفطرة الحقة، في وجه

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) راجع: «الواقعية في التصور الإسلامي».

تلك الواقعية الزائفة: إن قوى الأرض كلها لا تملك أن «تلد» إنساناً بعينه في بيئة معينة وظروف معينة، أو تحدد له عمره في تلك البيئة، أو تضمن له ألا يقع كذا أو كذا من الأحداث!

إن الوجود في «واقع» معين لا يجوز أن ينسينا أن ذلك الواقع كله بكل ما يشتمل عليه من سنن «حتمية» هو جزء من إرادة الله الحرة الطليقة، التي تملك تغيير هذا الواقع، وتملك ألا تنشئه ابتداء، ولا تركب فيه تلك «الحتميات»!

ومن ثم لا تغني «الأقدار» المكشوفة المعلومة الملموسة المقدرة، عن قدر الله الملفع بالغيب، المحجوب عن الأنظار!

والفن الإسلامي حريص على إبراز هذه الحقيقة... حريص على إبراز قدر الله من وراء الأحداث والأشياء والأشخاص. وذلك لجملة أسباب:

السبب الأول: إن هذه حقيقة! حقيقة واقعة لا تتم «واقعية» الفن دون إثباتها وإبرازها ووضعها في مكانها الصحيح من اللوحة الفنية المعبرة عن حقيقة الحياة.

والسبب الثاني: أن تتبع هذه الحقيقة وآثارها في الحياة التي تعرضها الفنون المختلفة، عملية ممتعة في ذاتها، لأنها تستجيب لحقيقة فطرية في داخل النفس، هي حقيقة التطلع الدائم إلى قدر الله المجهول، الذي لا تملك كل قوى الأرض أن تكشف عنه مهما تلهفت إلى كشف الحجب واجتلاء الأسرار. والفن ـ ومهمته الإمتاع ـ قمين بأن يستجيب لهذه النزعة الفطرية ويقدم لها غذاءها الذي تشتهيه.

والسبب الثالث: إن رسم هذه الحركة الخفية التي تحرك الأحداث والأشياء والأشخاص دون أن تظهر بذاتها للعيان، يعطي اللوحة جمالاً أخاذاً، لأنه يستجيب لنزعة فطرية أخرى في بنية النفس، هي نزعة الإيمان بما لا تدركه الحواس. وهي نزعة عميقة لا تقل أصالة ولا عمقاً عن نزعة الإيمان بما تدركه الحواس! متقابلان في النفس البشرية، يعملان معاً، كل

في اتجاه[١]. ومن شأن هذه النزعة أن تحب إبراز القوى الخفية، التي تملك السلطان ولكنها لا تبين.

والسبب الأخير: أن هذا يمنح اللوحة سعة هائلة، حين يجعل وراء الأقدار المكشوفة المعلومة المقدرة، التي تسير الناس في ظاهر الأمر، قدراً آخر خفياً هو الذي يحرك تلك الأقدار المكشوفة. وبذلك لا ينتهي «المنظر» عند هذه «المقاطع» الحادة البارزة الملموسة، وإنما يؤخذ امتداداً آخر... هو في حقيقته امتداد لا نهائي، لأنه يتصل بالقوة الأزلية الأبدية التي لا بدء لها ولا انتهاء.

ثم إن إبراز القدر على هذه الصورة يحدث من توّه تغيراً حاسماً في «جو» اللوحة المرسومة. فليس يبرز سماتها ويوضح معالمها فحسب، بل كذلك يمنح الأشياء والأشخاص والأحداث معنى آخر، و«قوة» أخرى. إنها لا تصبح أشياء وأشخاصاً وأحداثاً مفردة، مقطعة الأوصال، منبثقة عن حقائق الكون الكبرى وناموس الوجود الشامل، وإنما تصبح لتوّها ـ بلمسة واحدة سحرية ـ أشياء وأشخاصاً وأحداثاً ذات دلالة كونية، وذات وجود عميق لا يزول، لأنها اتصلت بالقوة الكبرى الكائنة وراء ظواهر الأشياء... قوة الخالق المدبر المريد.

ومن ثم يطمع هذا الفن في «الخلود»!

* * *

والفن الإسلامي حريص على أن يلفت الحس إلى الناموس الأكبر الذي يحكم الكون والحياة والإنسان. إنه يأخذ من الإسلام شموله وسعته وتعبيره عن فطرة الكون. ولذلك لا يحب أن يعرض الحياة مقطعة الأوصال مفرقة الأجزاء، فتفقد معناها الشامل ومغزاها العميق. وإنما يعرضها كما هي في الحقيقة متصلة متناسقة مترابطة، محكومة كلها بقانون واحد كبير.

---

(١) راجع: «خطوط متقابلة في النفس البشرية» من كتاب: منهج التربية الإسلامي للمؤلف، ج١.

وقد وصل إلي شيء من أسرار هذا القانون الشامل الذي يجمع في طياته الوجود، على هدى الطاقة الذرية وما تحويه من ممكنات. ولكن الفن العربي المعاصر ما يزال متأثراً في أغلبه بروح العلم في النصف الأول من هذا القرن، حين كانت سمته الغالبة هي العزل والإفراد والتخصيص، لا التجميع والتنسيق والكشف عن القوانين العامة من وراء القوانين الجزئية المشتتة الاتجاهات!

لذلك ما يزال هذا الفن يعرض الحياة البشرية في عزلة عن ناموس الكون الشامل. ثم يعرضها في ذاتها أجزاء وتفاريق. فهي أحياناً لحظة جنس منقطعة عن اشتباكات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية والفكرية. وتارة هي صراع طبقي، أو «حتمية» من الحتميات التي تحكم ـ في نظر صاحبها ـ الحياة، دون النظر إلى كيان النفس الشامل، الذي يتسع لكثير من المشاعر وكثير من أوجه النشاط كلها في آن.

ولكن الفن الإسلامي المعبر عن روح الإسلام الشاملة لا يحب هذا التمزيق المشوه لكيان البشر وكيان الحياة. بل يحب أن يعرض الحياة البشرية في شمولها المتكامل الذي يشمل كل جوانب النفس الإنسانية الفاعلة في هذا الوجود، المنفعلة به، المتصلة دائماً بما وراء حواجز الحس القريبة الواصلة بفطرتها إلى فطرة الوجود الأكبر.

وتصوير الحياة البشرية على هذا النطاق الواسع الذي لا يقف عند حدود الأرض القريبة، وإنما يتعداها إلى ناموس الوجود الأكبر، ويصلها بالله خالق الحياة والأحياء، يضفي عليها ولا شك جمالاً لا تعرفه معظم الفنون الحديثة التي تقطع صلة الأرض بالسماء، وصلة الإنسان بالله، في الوقت الذي لن يفقدها هذا الشمول وسعة الأفق شيئاً من دقة تفصيلاتها وروعة تحليلاتها وعمق نفاذها إلى الجزئيات الصغيرة، وإنما هو يمنح هذه التفصيلات والتحليلات نفاذاً أعمق حين يصلها بالمعنى الكبير الشامل الذي يشمل جميع الوجود.

* * *

وفي سبيل هذه الصورة الشاملة الواسعة للحياة البشرية يهتم الفن الإسلامي بإبراز دور العقيدة في حياة الإنسان، مع الاحتياط الكامل من أن تصبح خطابة وعظية أو بلورة فلسفية تبعد بالفن عن طريقته وأهدافه وميدانه الخاص.

وليس من الضروري أن تذكر العقيدة صراحة أو يذكر الدين، وإنما ترسم الحياة ـ كما أسلفنا ـ من خلال العقيدة وأثرها في النفوس.

فالإحساس بجمال الكون وروعته عبادة.

والإحساس بالارتباط الحي مع الكائنات عبادة.

والتوجه للناس بالحب والعطف والرعاية عبادة.

والجهاد في سبيل الحق والخير عبادة.

والتسليم لقدر الله عبادة.

والتطلع إلى الله في المحن والأزمات عبادة.

وتحمل الألم والاصطبار عليه عبادة.

وشكر المنعم على نعمة الله عبادة.

وغلظ الإحساس والعزلة عن الكون وتقطع الروابط الحية مع الأحياء، والحقد على الناس، والقعود عن النكاح في سبيل الحق والخير، والتحدي الأحمق لقدر الله والهلع في المحن والأزمات والبطر بالنعم... كلها دلالات على انقطاع الصلة بالله وجفاف القلب من نداوة العقيدة. والفنان يملك أن يبرز دور العقيدة في هذه الملامح المختلفة إيجاباً وسلباً، كما يستطيع أن يرسم تقلب النفس البشرية بين مختلف المشاعر والأوضاع، دون أن يحتاج إلى كلمة وعظ واحدة أو بلورة فلسفية للعقيدة والدين.

ولكنه ـ حين يرسم هذه الملامح النفسية كلها من خلال العقيدة، بطريقة الفن لا بطريقة الوعظ ـ يكسب الحياة البشرية سعة مؤكدة، فضلاً عن إعطاء هذه الحياة معنى وهدفاً وأصالة وعمقاً، حين يكلها إلى قيم ومعايير

أكبر من حياة الأفراد، بل أكبر من حياة الإنسان كله المتجه إلى الله بالعبادة، والذي يمارس ـ هذه العبادة ـ التناسق والتعاطف والطلاقة والحركة الموزونة التي لا تصادم فيها ولا انحراف.

* * *

والفن الإسلامي موكل «بالجمال» يتتبعه في كل شيء وكل معنى في هذا الوجود، الجمال بمعناه الواسع الذي لا يقف عند حدود الحس ولا ينحصر في قالب محدود. جمال الكون بنجومه وشموسه وأقماره وما بينها من تجاذب وارتباط.

وجمال الطبيعة بما فيها من جبال وأنهار، وأضواء وظلال، وجوامد وأحياء.

وجمال المشاعر بما فيها من حب وخير، وطلاقة وارتفاع.

وجمال القيم والأوضاع، والنظم والأفكار، والمبادئ والتنظيمات.

كل ذلك ألوان من الجمال يحتفي بها الفن الإسلامي ويجعلها مادة أصيلة للتعبير، بل هو يعرض الحياة كلها من خلال المعايير الجمالية، سواء بالسلب أو بالإيجاب.

فهو حين يعرض للاختلالات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو النفسية أو الخلقية... يعرضها على أنها «قبح» ينافي حقيقة الجمال التي ينبغي أن تكون راسخة في حياة البشر، لأنها راسخة في بيئة الكون كله والحياة.

الظلم الاجتماعي قبح لأنه ينافي جمال العدل.

والحقد النفسي قبح لأنه ينافي جمال الحب.

والانحلال الخلقي قبح لأنه ينافي جمال التسامي والارتفاع.

وهكذا كل ما يعرض لحياة البشر من انحراف واختلال، هو قبح لأنه خروج عن الجمال الواجب الذي يتسق مع إرادة الله في خلقه الكون.

وتصوير الجمال في هذا المعنى الواسع والنطاق الشامل، قمين بأن يرفع النفس البشرية من حدود الحس القريبة المحدودة الضيقة، إلى عالم أوسع وأفسح، ومجالات شعورية أرفع وأعلى... تحقق للإنسان معنى التكريم الذي أراده الله حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ...﴾[1]، وتجعل للفن هدفاً... هدفاً أعلى من دغدغة الغرائز واستثارة الميول الحسية الهابطة، هدفاً توجيهياً يؤدي فعله في النفس دون أن تحس، ودون أن ينفرها الوعظ المكشوف في غير مجال الوعظ... هدفاً تتقبله النفس راضية مستجيبة، لأنه يدخل إليها من طريق «الجمال»، وهو قريب إلى الفطرة حبيب إلى الشعور.

وبعد فتلك أبرز صفات الفن الإسلامي...

وعلى ضوء هذه السمات نستطيع أن نستعرض «نماذج من الفن الإسلامي» في القرآن والشعر والقصة، وغيرها من الفنون «الكلامية» التي نملك الحديث عنها في هذا الكتاب. وقد استبعدنا الحديث عن الفنون الأخرى المتخصصة التي تحتاج إلى خبرة المتخصصين!

وقد استبعدنا كذلك النحت والرقص بوصفهما فنين يعبران عن طريق الجسد وحده، فيخلان بشرط من شروط الفن الإسلامي.

أما السينما... ففي اعتقادي أنها آخر من يمكن أن يدخل في نطاق الفن الإسلامي، لا لأن السينما في ذاتها محرمة، ولكن بصورتها الحالية، الهابطة العارية المنحلة، بعيدة جداً عن الجو الإسلامي. ولكنها ـ ككل فن آخر ـ تستطيع أن تكون إسلامية حين تتبع مفاهيم الفن الإسلامي التي وضحناها من قبل في فصول الكتاب[2].

محمد قطب

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) منهج الفن الإسلامي، ص١١٩ ـ ١٣٦.



حقيقة الخصام بين الفن والدين[1]

إن الخصام الذي نشب بين الدين والفن خصام خارج على طبيعتهما السمحة وصدرهما الرحب، ومهما قيل في مثل هذا الخصام فإنه لا يخرج عن كونه نتاج ظروف تاريخية قاسية وأخطاء فردية وجماعية تشابكت ملابساتها المختلفة.

ونشوب هذا الخصام أدى إلى معركة اعتدي فيها على كرامة كل من الطرفين، فقد اتهم الفن بالمروق والجنوح إلى التحلل والإباحية تحت ستار شعارات الحرية الزائفة، واتهم الدين بالجمود ومساندة القوى الرجعية، وتقديس القديم بما فيه من غث وثمين.

وتولّد بينهما ـ إزاء ذلك ـ لون من الصراع الدامي الرهيب، حينما ظن كل منهما أن في فناء الآخر حياة له، وانتصار لمعنى الفكر وشموخاً بعزة الكلمة وقداستها، وتخليصاً للتعبير من كل ما يشين.

وكتب (روسو) اعترافاته، وكتب المؤرخون والمؤلفون عن آباء

---

(١) من أخطر مشكلات واقعنا الإسلامي المعاصر أن العلمانيين والشيوعيين المنتسبين إلى المسلمين يسقطون مفاهيمهم الأيديولوجية على الواقع عامة في إطار تبعيتهم المطلقة للعلمانيين الغربيين، ويلغون كل ما ليس غربياً أو أوروبياً. ديناً، وسياسة، ويسقطون التجارب والتاريخ الأوروبي عامة على كل الأمم والحضارات بما في ذلك قضية الخصام بين الدين والفن. ودور الدين المسيحي في فساد الواقع الاجتماعي في عصور الإقطاع. يفعلون ذلك بتقليد أعمى، وبدون دراسة للتاريخ الإسلامي.

وقساوسة غرقوا في مستنقعات الرذيلة، وإن تظاهروا بالبراءة والتقوى، وسطروا الأحاديث الطوال عن «رجال الدين» الذين استغلوا واحتكروا وأثروا، وكانوا عوناً على الفساد والمظالم، حتى كانت الحكمة الفرنسية المشهورة: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

ولم يكن بعيداً عن الأذهان في ذلك الوقت حركات الاضطهاد الفكري التي تزعمتها الكنيسة حينما حاكمت أصحاب النظريات الجديدة في كروية الأرض والجاذبية وغيرها، فقتلتهم أو أحرقتهم أحياء أو زجت بهم في غياهب السجون ورمتهم بالهرطقة والخروج على كلمة الله...

إن رجال الدين الذين اقتطعوا الإقطاعيات، وتسنموا أعلى المراكز، وصادروا الحريات وحاربوا حركات الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي بكل ما يملكون من قوة، هؤلاء الرجال كان من الحتمي أن يحمل عليهم صاحب كل ضمير حي وكل فاهم لحقائق الدين، مدرك لروحها، متشبع برحيقها العذب النظيف، وكل صاحب فكر متحرر يبحث عن كنه الأشياء ويعرق[1] في التجارب واستخلاص النتائج الملموسة...

وكما نأخذ على رجال الدين ضيق الأفق وقصر النظر، ونزوات الجشع، فإننا نلقي اللوم كذلك على الإغراق في السخرية والتهجم على الدين ورجاله حتى أصبحا مجموعة من المفاسد والنقائص، أو سُدًّا يقف في طريق النمو والتطور السياسي والاجتماعي والفكري، وما كان يصح بأي حال من الأحوال أن تلصق أخطاء من يسمون «برجال الدين» بالدين نفسه..

وفي خضم هذا الصراع الدامي نشأ لون جديد من الأدب، لون يغرق في تصويره لبشاعة رجال الدين وتصرفاتهم، ويغرق بالتحلل، والانطلاق من أسار الدين ومثله وأخلاقياته، ويعتبره صورة للتخلف والرجعية، وانهيار للمعاني الحضارية الجديدة، وحرباً على حرية الخلق والإبداع الفني وقيداً يغل من تحليق الأفكار في سماوات الإشراق والتعبير المطلق، وكتب

---

(١) ذو عراقة في التجارب ونتائجها.

«هوجو» في روايته «أحدب نوتردام» عن القس الذي ينسى الله والترانيم والتبتل ويجري خلف فتاة غجرية فاتنة، ويسلك كل السبل لنيلها، وكتب غيره عشرات الأقاصيص والروايات والمسرحيات حتى أصبح الرجل صاحب المسوح السوداء، واللحية عنواناً للخسة والنذالة، ورفيقاً للشيطان.

وإذا كان الفكر الإسلامي قد بلغ ـ على طول حقب التاريخ ـ مركزاً مرموقاً فإن فنون الأدب ـ ما عدا الشعر والخطابة والنثر الفني ـ لم تتنوع فيه كما تنوعت في الغرب، إذ لم يكن به آثار للمسرحيات على غرار الأدب اليوناني، ولم تنضج فيه الملاحم أو فن القصة.

كان علماء المسلمين ومفكروهم أسعد حظاً من الغربيين، فقد كانت حركات التجديد في الفكر الإسلامي وتجاربه مع الفكر اليوناني والروماني والفارسي ذات صور مشرقة، واستطاع الفكر الإسلامي أن يقيم بناءً جباراً، وأن يغذي بروافده تيارات الفكر الأوروبي النامي، حين نقلت فلسفات ابن رشد وابن سينا والفارابي وابن خلدون كما أحرز علماؤه ـ في الطبيعيات وعلوم التجارب والفنون الأخرى ـ قصب السبق وأثروا في الفكر الأوروبي أيما تأثير...

ولا نستطيع أن ننفي بالطبع وجود بعض السدود التي أقامها بعض الجامدين من رجال الدين الإسلامي والحكام المسلمين، فنكلوا بالأحرار، وحدّوا من حرية الفكر...

وحينما صحت[١] شعوب المسلمين من ظلماتها وسباتها العميق، أخذت تنقل عن الغرب علومه المستحدثة وخاصة في الفنون ـ تلك التي كانت أسبق من العلوم ـ فكتبوا القصة الحديثة والشعر الحديث والمسرحية،

---

(١) صحوة شعوب المسلمين في الواقع أمر مشكوك فيه؛ بل مجرد ظن أو وهم، ذلك أن عبارة «الصحوة» تعني نفس معاني عبارة «النهضة» المتمثلة في إصلاح مفاسد الحياة الاجتماعية عامة من ظلم، وفساد، وتخلف، وكل ذلك لم يتغير إلا في نطاق محدود جداً لا يكاد يتجاوز طبقة الحُكام، وكبار الأغنياء والتجار. أما عامة المسلمين فما زالوا في مرحلة ما قبل النهضة وما تقسم به من فساد وجمود، وفقر وبطالة.

وقلدوا عديداً من المذاهب الأدبية، وعديداً من أعلام الأدب هناك، والعجيب في الأمر أن أدباءنا قد اقتفوا آثار كتاب أوروبا في تجاهلهم للعامل الديني الإيجابي، بل جعلوا الدين شيئاً والفن شيئاً آخر، وفصلوا بينهما فصلاً تاماً حتى أبطال القصص الدينية أعطيت لهم نفس السمات المعروفة في الأدب الأوروبي، فيظهر رجال في قصصنا في أغلب الأحيان رمزاً للبلاهة والسذاجة المفرطة، ومثالاً للقذارة والشعوذة، وأنموذجاً للسلبية المشينة، فالشيخ «الشناوي» في رواية «الأرض» فقيه ريفي يلقي تهمة الكفر جذافاً، ويمالئ الخونة والمستغلين، ويفهم الدين فهماً ضيقاً سقيماً، والشيخ الجنيدي في رواية «اللص والكلاب» شارد عن العالم من حوله، غارق في أوراده وأذكاره، ومن حوله الصراع الاجتماعي العنيف والتغيرات الجذرية التي تهز المدينة هزاً شديداً وهو وسط هذا كله يتطوح يمنة ويسرة، سابح في عالم صوفي لا يحترق بعذاب الناس من حوله.

وهكذا تجمدت قوالب «رجال الدين» في قصصنا العربي الحديث، تلك القوالب المستعارة من أدب الغرب، وأصبحت مثالاً مكرراً ممجوجاً يوحي بالنفور والازدراء.

نحن لا ننكر تنوع النماذج البشرية المعبرة عن وجهة النظر الدينية، ولا يستطيع أحد أن ينكرها، إن كان طائفة من طوائف البشر فيها الصالح والطالح، فيها المتمسك بأهداب الفضيلة والغارق في بؤرة الرذيلة، فيها الشرير والخيِّر، ولكن كتّابنا يركزون الأضواء فقط على النماذج السيئة المنحرفة، ويتجاهلون المثل النيرة المشرفة إما عن جهل أو جرياً وراء المفاهيم الأوروبية التي أعلنت الحرب على الكنيسة ورجالها عامة، وعلى الإسلام خاصة.

إن أوروبا لم يزل بها طائفة من كبار المؤمنين بالله واليوم الآخر[١]،

---

(١) حسب دينهم المسيحي وليس حسب عقيدة الإسلام، ويغفر الله للدكتور نجيب الكيلاني حسن ظنه. والدين عند الله الإسلام بنص القرآن، وكل من خالف القرآن والسنة فليس شيئاً عند الله.

ويعتنقون القيم الروحية ويدافعون عنها في حرارة بالغة في قصصهم ومسرحياتهم بل وفي أفلامهم السينمائية، بل أن الوجوديين ينقسمون إلى طائفتين، الوجودية الملحدة والوجودية المؤمنة ولم تستطع الحملات العنيفة ولا طوفان المطبوعات الخارجة على الدين أن تطفىء شعلة الإيمان وإشعاعات الروح.

ولقد حاول جرجي زيدان أن يقدم التاريخ الإسلامي في سلسلة من الروايات، وللأسف كانت ميتة الروح، جافية الينابيع، فظهر الخلفاء وأعلام الحرية والفكر الإسلامي نماذج سيئة للتقديم، تفتقد عنصراً أصيلاً من عناصر وجودها بل جلّ وجودها، إن كلمات الصدق والشجاعة والورع والإيمان والرحمة إذا جاءت بمفردها عارية من الإشراقات الروحية التي يشعها البناء الفني أصبحت مجرد كلمات مملة لا توحي بشيء... ينتصر طارق بن زياد في ظروف قصة حب عجيبة.. وينتصر المسلمون في معركة لمجرد خيانة تافهة في صفوف الأعداء... انتصارات تؤدي إليها مغامرات حب، أو حركات جاسوسية، أو مؤامرات ساذجة...[1] وتوفيق الحكيم في مسرحيته «السلطان الحائر» جعل القاضي - عز الدين بن عبدالسلام - في أول المسرحية مثالاً للمسلم الشجاع الذي يؤمن بالعدالة والقانون، وينتصر لهما على القوة... على السيف، ويحمل روحه في كفه قرباناً لقضية يؤمن بها، ويحرضه عليها دينه... لكن الشيخ يتزعزع موقفه قبيل النهاية، ويبدو مهلهلاً مبلبل الفكر، يحاول ببساطة أن ينتزع عن نفسه وضميره تلك القضية الكبرى التي آمن بها، هذه الصورة المهزوزة للعالم المسلم - التي لا تتفق مع منطق التاريخ والواقع - صورة منفرة زائفة، في مضمونها وفي نموها المسرحي، ولا يعني هذا أن الحكيم واحد من أولئك الساخرين من الدين

---

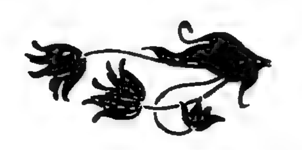
(١) كل ذلك عن قصد، ولغرض تشويه حقيقة الإسلام للتنفير منه، وذلك ما فعله معظم المتحدثين عن الإسلام من مؤرخين، وكتاب غير مسلمين، ومثال ذلك ما كتبه لويس معلوف المسيحي في «المنجد في اللغة والأدب والعلوم» ط١٧ ص٤٧٠ في مادة «طلق» حيث قال بالنص: «الطلقاء: الذين أدخلوا في الإسلام كرهاً» مع أن الحقيقة التاريخية هي أن النبي ﷺ قال لهم: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

ودعاته، فإن له نماذج ممتازة انتصر فيها لقضية الروح والإيمان. . .

إن قصة الخصام المفتعل بين الفن والدين، هي معركة مريرة بين سيادة الدولار أو سيادة الضمير، والدولار رمز للغرائز المنحرفة والاستغلال والأنانية والذاتية المنطوية على نفسها، والضمير رمز لسيادة كلمة الله، وسيطرة العقائد، وقيام مجتمع متآخ متآزر تسوده العدالة والحب والعفة والورع.

وقد بدا جلياً أن قصة الخصام المفتعل قد كشف القناع عن وجهها، وشرع عديد من الكتاب الملهمين أقلامهم داعين إلى الحفاظ على كيان البشرية، وإنقاذها من مخالب المادة المتسلطة، وتجبر الآلة، والدفاع عن القيم الروحية اليوم لا ينطلق حاراً ملتهباً من أنحاء الشرق الإسلامي وحده بل إن أوروبا ـ التي عبدت المادة ردحاً طويلاً من الزمن ـ قد تقدم الصفوف فيها كتَّاب يصرخون بأعلى صوتهم في وجه التيارات المادية البحتة، ويحذرون من سوء العاقبة، وهول المصير ويحاولون ـ قدر طاقتهم ـ أن يسود منطق الإيمان ـ الضمير ـ وأن يتراجع الدولار وفاعليته إلى مكانه الطبيعي لينشئ ويعمر البناء المادي، وأن يبقى الضمير وما يؤمن به من عقائد ومثل دينية رفيعة في مكان السيادة الروحية وتوجيه أخلاقيات البشر، مؤكدين أن الخصام بين الفن والدين أو بين الدين والحياة حقيقة خصام مفتعل صنعته ظروف تعسة وأخطاء تاريخية مشينة[١] . . .

د. نجيب الكيلاني



(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص٢٠ ـ ٢٧.




الدين والفن

إن الدين كما نفهمه عقيدة شاملة لتنظيم الحياة وتفسيرها واستجابة لحاجات النفس البشرية، ومشعل يضيء الطريق أمام الناس ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار، ووسيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة، أو بمعنى آخر الدين مثل أعلى لا يتنافى مع واقع الحياة، ولا يصادم نواميسها، ومن ثم فإن الجمود ليس من طبيعته وتزييف المشاعر الإنسانية لا يصدر عنه في أية واقعة من وقائعه. . .

والدين إنساني وعام في معناه، الناس تحت سمائه سواسية كأسنان المشط لا يعرف تفرقة في الألوان، ولا تمييز طبقة على طبقة، أو إقليماً على إقليم، والدين دائماً يتغنى بالفضائل الإنسانية ويدعو إليها، فالأخوة البشرية ركن وطيد من أركانه، والعدالة معلم بارز من معالمه الشامخة، والحرية سمة مشرفة من سماته السمحة، والحب شذى حلو يعطر مبادئه ومقاييسه الخالدة، والرحمة صفة حميدة تخضد شوكة الأقوياء، وتعضد قضية الضعفاء المغلوبين، والدين صرخة احتجاج في وجه كل طاغية، يدعو إلى محاربة كل ظلم، ويحطم كل انحراف، والدين حرب على الإباحية والانحلال والاستهتار، وسيف مصلت على رقاب الفجور وشتى ألوان الرذائل. . .

والدين هو الفيصل بين الحاكم والمحكوم، والدولة والدولة، والإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان وربه، والدين مقره ضمير الإنسان وعقله،

وليس سوط عذاب في ديوان من الدواوين، وليس مجرد قواعد جامدة منبتة الصلة بكل ما حولها.

وفي القرآن الكريم صور حية نابضة بكل هذه المعاني وتعبير رائع عنها، **فرعون** وهو يتحدى القوى الإلهية، ويستذل البشر، ويقتل الأطفال، ويستحي النساء، ويسخر من معجزات الله، **قارون** وهو يدل بماله على الناس ويريد أن يحقق بالمال كل ما حلمت به نفسه، ونساء خنّ[1] الأنبياء، ورجال انحرفوا عن الطريق، وفي القرآن أيضاً أحاديث طويلة عن النفس الإنسانية، حين تعلو على السفاسف، وحين تنحط إلى الحضيض، وفي القرآن تصوير المعارك وصراعات رهيبة بين قوى الحياة المتناقضة، ومشاكلها المتصارعة، وباختصار فإن آيات القرآن عالم واسع شامل تجلجل فيه أصوات عديدة.

فالدين ضوء كاشف ينير ولا يعشى العيون، يظهر معميات الحياة ويجلو حقائقها دون زيف أو خداع، فتبدو النماذج واضحة مقنعة. . .

والفن. . .

ما هو الفن؟

سؤال في كلمات ثلاث، أجاب عليه مئات بل آلاف المفكرين، وأعطوا إجابات شتى متباينة لكنه في الحقيقة تعبير رائع ممتع عن النفس والحياة، ويتميز بالأصالة والصدق، تعبير عن التجارب الإنسانية في شكل «فني» متعارف عليه في أغلب الأحيان سواء أكان هذا الشكل قصة أو قصيدة أو مسرحية أو قطعة موسيقية. إذا كان الفن عارياً من الصدق فقد تهدمت دعامة كبرى من دعائمه، فتنهار كل مقوماته ويفقد أغلى قيمة يعتز بها أي فن من الفنون ويصبح تعبيراً زائفاً عن النفس والحياة، وتزويراً لواقع عاشته ـ أو تعيشه البشرية ـ.

والفن بلا مضمون خواء وفراغ، إن الأكواب الفارغة لا تروي ظمأ، والثمرة العفنة لا تستسيغها النفس، والعشوائية في أي شيء سذاجة وجنون،

---

(١) خيانة عقيدة بإضمارهن الكفر وهن في رحاب النبوة وأقداس الوحي اتباعاً لشهوات النفس.

فلا بد للفن إذن من مضمون، ودعامة هذا المضمون أفكار وفلسفات مستمدة من واقع البشر الذي يتطابق حتماً مع واقعية الدين النظيف، المبرأ من الشوائب وهوى المفكرين المنحرفين... إن مادة النفس هي الحياة والنفس الإنسانية، ومقوماته هي الصدق والأصالة الفنية والمضامين السليمة...

ومادة الدين هي الحياة والنفس الإنسانية، ومقومات الدين الصادق المنزل من عند الله هي الصدق والأصالة والمثل العليا التي تتواءم مع واقع الحياة وتتطور معها وتشبعها بالسعادة والحب والإخاء والعدالة والحرية...

وغاية الفن الإمتاع والإفادة والتحريض على بناء مجتمع أفضل، وغاية الدين لا تخرج عن إسعاد البشرية واستمتاعها بحياتها، وسيطرة المثل الفاضلة على علاقات البشر والدول والحكام، والتهيؤ لعالم آخر... عالم أفضل، والتنفير من المظالم والانحرافات والعمل على هدمها...

﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1].

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً...﴾[2].

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا...﴾[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[4].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٧، ونصيب الإنسان من الدنيا ما قدمه للآخرة بنية عبادة الله عز وجل.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٠.

رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[1].

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[2].

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ. . .﴾[3].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[4].

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ. . .﴾[5].

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ. . .﴾[6].

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. . .﴾[7].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ. . .﴾[8].

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان. . .»[9].

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠ ـ ١٢.
(٢) سورة الملك، الآية: ٥.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٤) سورة ص، الآية: ٢٧.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٦١.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٣٤.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.
(٩) أخرجه مسلم في الإيمان، والدارمي، والإمام أحمد في المسند.

«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل أتى إلى إمام ظالم فنهاه عنه فقتله... إلخ»[1].

عديد من الصور والمشاهد والأحداث الجسام، وعديد من المبادئ والمثل الخالدة يتعرض لها القرآن في آياته تارة يدعو الناس إلى التزين والاستمتاع بخيرات الحياة دونما إسراف أو جشع، وتارة أخرى يرغبهم في الإحسان والعدل، ولا يفتأ يذم الخيانة والخائنين، ثم يعطي للحياة قيمتها وفاعليتها وأنها ليست عبثاً ولا باطلاً، وينفر من الظلم، والاحتكار، والاستغلال، ويدعو إلى العدل، والتصدق، والسلام، وبناء مجتمع نظيف، خال من الغش والنفاق والاستعباد فهو يصور الحياة كلها بألوانها الزاهية والقاتمة، الحياة بابتسامها وعبوسها، والنفس الإنسانية بضعفها وقوتها، بخطراتها، وتعبيراتها الظاهرة... كل ذلك تنبض به آيات القرآن في صدق وروعة وواقعية...

والفن - الصحيح - في أعلى مراتبه، وأمثل غاياته لا يطمح في أكثر من هذا وقد استطاع الفن - خلال فترات كثيرة من التاريخ - أن يراقب هذا الاتجاه فأمكنه أن يحدث هزات عنيفة وتغيرات جذرية في مظاهر الحياة، وأن يحدث ثورات هائلة في أعماق النفس البشرية أيضاً.

والدين دائماً وسيلة نظيفة لغاية نبيلة...

والفن الصحيح - هو الآخر - وسيلة نظيفة لغاية نبيلة... لحمتها صدق الأصالة والوعي والإثارة المجدية.

والتحريض من أجل إقامة عالم أفضل...

وهكذا يلتقي الفن بالدين...

وقصة التقاء الفن بالدين قصة قديمة ضاربة في أعماق التاريخ...

---

(١) ورد في الاستيعاب، ج١، ص٢٧٣، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«حمزة سيد الشهداء»**، وروي: **خير الشهداء، ولولا أن تجد صفية لتركت دفنه حتى يحشر في بطون الطير والسباع»**. وقد كان مثل به وبأصحابه المشركون في غزوة أحد.

قبل الأديان السماوية كان الناس يؤدون صلواتهم وهم يرقصون في ساحات المعابد وحول النصب والهياكل وكانوا يترنمون «بالأغنيات» تقرباً للإله الممجد، ولدى الكهوف والتلول والنيران المقدسة كانوا يدقون الطبول، ويعزفون «الموسيقى» ضارعين إلى بارئ السماوات والأرض، وعند قدماء المصويين، كانت العبادة ألواناً من الفنون إلى جانب النصوص التي كانت تتلى ففي المعابد المنبثة في أرجاء مصر، وفي القبور العديدة «رسوم وصور» ذات ألوان معجزة، وكتابات تسيل تضرعاً وتوسلاً إلى الله رب العالمين...

وفي أوروبا القديمة والحديثة أروع لوحات الفنانين العالميين في أسقف الكنائس وعلى حوائطها، وكانت لوحات ميخائيل أنجلو أعجوبة من الأعاجيب... أما الأساطير الإغريقية القديمة، قد نسجت في ملاحم ومسرحيات أبطالها من الآلهة العديدين الذين تنوعت أسماؤهم واختصاصاتهم... إله الخير وإله الحرب وإله الجمال والشعر والموسيقى و... و... إلخ. وللمسرح الديني خاصة والفنون الدينية عامة مكانة ممتازة في التاريخ الفني للبشرية[1]...

إن الفنون القديمة لم ترتبط بالدين فحسب، بل أن الدين قد شكل حياتهم كلها وصبغ تقاليدهم وتصرفاتهم وشكل مثلهم العليا حتى كان الدين هو الحياة... الحياة تلك القنطرة التي تنقلهم إلى عالم الخلود اللامتناهي...

وكيف نعلل هذا الارتباط بين الفن والدين؟

إن الدين فطرة نابعة من وجود البشر، ضاربة بجذورها في نفوسهم، وليس شيئاً دخيلاً أو مصطنعاً ارتبط بهم ارتباطاً زائفاً، هناك قوة جاذبة تشد

---

(١) الصورة التي ذكرها الكاتب الفاضل ليست صورة الدين الرباني بقيمه العليا، وإنما هي صورة الدين المشوه بالشهوات والمصالح. وهذه الصورة المشوهة لا تصلح دليلاً للعلاقة بين الفن والدين، والذي يصلح هو الدين غير المشوه، والفن غير المشوه. وآلهة الوثنيين تصور التشوه بعفوناته بين الدين قداسة وطهر. والفن الأصيل طهارة وجمال.

المخلوق إلى الخالق، وترتبط به رباطاً وثيقاً لا فكاك منه... والإنسان ما هو إلا نبتة ربتها يد القدرة الإلهية، فإذا تركتها ولم تمدها بالماء والغذاء والهواء والضوء ذبلت وماتت وأصبحت هشيماً تذروه الرياح هذه واحدة...

والثانية: هي ارتباط الدين ومثله ومبادئه بواقع حياتهم المعاصرة لهم، وتداخله تداخلاً لا يمكن فصله، فكان للدين سلطات القانون والتقاليد، وإصدار الأحكام وقد استطاعت هذه الرحابة - في الدين - أن تفتح صدرها لانفعالات الفن وإشراقاته الروحية والانطلاق، وإنما كان ينبوعاً للمضامين الفكرية والفنية، ومصدراً من مصادر إثرائها ونضوجها...

ولم يستطع أحد المؤرخين - برغم تقادم العهد - أن يرمي تلك الفنون العريقة بالسذاجة وقصر النظر، بل احتلت التراجيديات القديمة والملاحم والأساطير مكانة شامخة في عالم الفن والأدب هذا على الرغم من غرابة تصوراتها، وتعدد الآلهة التي توهموها، ورميهم بالنقائص البشرية حتى لكأن الإله في نظرهم مجرد إنسان خارق الصفات سواء أكانت هذه الصفات نابعة من الشرور أو الفضائل أو السمات الجسدية أو الروحية...

ثالثاً: استطاع الدين - قبل الفلسفة - أن يكون فكرة ما عن الحياة وأساليبها والمبادئ التي تسودها، ومن ثم كان طبيعياً أن يكون هو المورد التي ترتشف منه العقول والعواطف وتصدر عنه في ثقة به واحترام لقداسته... وإذا كانت الفكرة واضحة المعالم، تفوق غيرها في التفسير والإبانة استطاعت أن تحوز منصب السبق، وتفرض سلطانها على كل شيء...

وأخيراً - وليس آخراً - كان التقاء الدين مع الفن، نتيجة لاتفاقهما في الهدف وتقاربهما في الوسيلة، مع اختلاف في الأشكال وتناغم في المضامين[1].

د. نجيب الكيلاني

---

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية ص١٢ - ١٩.



الأدب الإسلامي بين الحقيقة والأمل

تعد الإيجابية أبرز سمة في الشخصية المسلمة، والصمت لا يجدي، والواقع غير الإسلامي في أدب الأمة الإسلامية ما زال مستمراً يبدد كل صدى لكل دعوة لأدب إسلامي أطلقت من قبل، وصوف يستمر الموقف ما دام الأديب المسلم مبدعاً بلا ناقد، وما دام الناقد المسلم لا يجد إبداعات الأدباء المسلمين، كل ذلك انعكاس طبيعي لفرقة العالم الإسلامي! وفي نهضة الأمة الإسلامية على مشارف القرن الخامس عشر الهجري تنهض الدعوة لقيام أدب إسلامي يعبر عن هذه الأمة، فهل يعود الأدب إلى المسجد؟!

الموقف الحضاري:

في سياق التيار الحضاري للأمة الإسلامية كان الأدب العربي معبراً عن ضميرها وآمالها، وآلامها، وفكرها وعقيدتها، مدافعاً عن قضاياها، مهاجماً أعداءها، وظل الأديب، أو الشاعر الإسلامي (عربي وغير عربي) لا ينفصل عن كيان أمته يرى رؤيته، ما شاء له خياله وإبداعه، لكنه فرد في هذا الكيان الإسلامي الكبير. . .

فبنزول القرآن الكريم اكتملت صورة هذا الأدب، بعد أن عاش فترة إرهاصاته الأولى في ظل (الحنيفية) ـ دين سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ـ ديواناً للعرب في عصرهم «العصر الجاهلي» حتى اعتبره بعضهم فنهم الأول، أسواقاً ومناسبات معلقات ومذهبات. وباتساع علوم الحضارة في

الدولة الإسلامية، وظهور فنون الأدب العربي المختلفة، استمر التيار متدفقاً في ظل عصور الأمويين والعباسيين حتى أطلت رؤوس الفتن في حياة هذه الأمة بنزاعاتها العنصرية، وشعوبيتها المختلفة وقومياتها الحديثة، فظهر أفراد يحملون القلم ويخطون الكتاب، شعراً ونثراً، جيداً مع أنهم منفصلون عن كيان وضمير الأمة الإسلامية.

مر كل ذلك عبر السنين الطويلة حتى كانت بدايات العصر الحديث في قرونه الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين، لتبدأ الغزوة الحضارية الكبرى التي تتعرض لها بلدان العالم الإسلامي، وتستيقظ كل دعاوى الشعوبيين وأعداء السماء، ولتصبح العنصرية والعرقية هما التكوين الانتمائي عند من يدعون إلى الإسلام، وتبدأ الغربة الطويلة التي تعيشها الأمة الإسلامية بين حقيقتها وبين واقعها الإسلامي!!!.

قبعات المستشرقين:

لكن، كيف استطاعت هذه الغزوة أن تغرب فكر وفن وأدب هذه الأمة بعد أن كان ضميرها وأملها؟ يجيب الدكتور رمضان عبدالتواب أستاذ العلوم اللغوية ووكيل آداب عين شمس على ذلك قائلاً: كان للاستشراق دور خطير في مجريات الآداب وعلوم اللغة العربية وظل المستشرقون أساتذة لعلوم حضارتنا لفترة طويلة في بلادنا الإسلامية، حتى استطاعوا تربية جيل واسع ممن أشربوا تجربتهم وروحهم الاستشراقية في تناول الأمور، وبعد أن انحصر دور المستشرقين والاستشراق، خرج هؤلاء التلاميذ أساتذة لعلومنا وفنوننا! هؤلاء العرب الذين لبسوا قبعات المستشرقين أخطر من المستشرقين أنفسهم!!!

الدعوة إلى العامية:

ويضيف الدكتور رمضان عبدالتواب موضحاً: من أخطر هؤلاء التلاميذ (سلامة موسى) الذي أخذ يدعو لاتخاذ العامية كلغة أدب زاعماً أن الفصحى لا تستطيع التعبير عما تعبره عنه العامية، ولكن أكبر دليل على كذب

الرجل، ووهمه وخبث طويته، أنه كان يدعو إلى العامية وهو يتكلم الفصحى أثناء هذه الدعوة... إنه لم يستطع أن يتخلص من لغة أمته الفصحى، فكيف تعبر الفصحى عن التعبير كما زعم!!؟

جائزة لهدم اللغة!

ولم يكن (سعيد عقل) أقل عنصرية ولا أقل حقداً على لغة القرآن الكريم التي أراد هذا الرجل أن يمحوها فرصد جائزة، بل عدة جوائز لمن يكتب ديواناً للشعر باللغة العامية!

إن محاولة إبعاد هذه الأمة عن لغتها وقرآنها لم تقتصر على الدعوة إلى العامية فقط، بل حاول أعداء الإسلام ما هو أبعد من ذلك بتغيير شكل حروف اللغة العربية تماماً وفي هذا يقول الأستاذ إبراهيم سعفان مدير تحرير مجلة الثقافة: «لقد أرادوا الهجوم على لغة القرآن، فإذا استطاعوا أن يغيروا شكل اللغة بتغيير حروفها مثلاً، استطاعوا أن يباعدوا بين المسلمين وبين القرآن الكريم، فيصبح كتاب طقوس لا يتلى إلا في المساجد كما حدث للّغة القبطية عندما انحصرت وانتشرت اللغة العربية في مصر. ويضيف الدكتور رمضان عبدالتواب عضو مجمع اللغة العربية إلى ذلك الرأي تاريخاً فيقول: لقد كان (منصور فهمي) عضو مجمع اللغة العربية من كبار الداعين لهذه الحروف اللاتينية. أما (يعقوب قسط نظيف) فهو يدعو إلى حروف جديدة تمسخ اللغة العربية في حروفها مسخاً كبيراً ويسمي ذلك «ثورة على فوضى الطباعة وما أشاعته من فساد ألفاظ الضاد قراءة وفهماً». ولعل التاريخ لا ينسى مجرماً لم يكتب بالدعوة إلى ذلك، بل دخل بنفسه المدارس معلماً الحروف الجديدة للمدرسين والطلاب، إنه ذلك اللاديني (العلماني) الذي أسقط الخلافة الإسلامية (مصطفى كمال أتاتورك)...

الطعن في عماد اللغة العربية:

واستمر التغريب في الأدب العربي ولغته، فحين عجزوا عن تغيير لغة القرآن الكريم في عصرها الحاضر، حاولوا أن يضربوها في هذه اللغة

كمصدر لفهم النص القرآني نفسه، وإذا كان المفسرون يشرحون القرآن الكريم بلغة عربية سليمة عمادها الشعر أو النثر الذي وجد قبل الإسلام ممثل في أشعار العرب، فقد قام أحد هؤلاء المتغربين وعلى رأسهم (طه حسين) ليطعن في أصول اللغة التي نفهم النص القرآني من خلالها، ويفسر د. رمضان عبدالتواب هذا قائلاً: «إن طه حسين حين شكك في الشعر الجاهلي قد نعل ذلك لينهار الأساس الذي يفسر عليه القرآن الكريم، ويصبح التفسير تحكيماً، فالقرآن أنزل بلسان عربي مبين، وأسلوب القرآن أسلوب عربي، فإذا انهار الأسلوب العربي، انهار الأسلوب القرآني».

ثم يقول د. رمضان: «لقد صنع طه حسين ما صنع ترديداً كالببغاء لمستشرق اسمه (مرجليوث)، ولقد تهاوت حججه على أيدي المخلصين من علماء هذه الأمة وثبت زيفها وبطلانها والكتب التي ردت على مزاعمه كثيرة منشورة».

اتصال الخط الانفصالي:

فإذا كانت دعوات الشعوبية في العصر العباسي وما بعده ـ وجدت الجاحظ يوقف زحفها ـ مستمرة طوال السنين، وهي ترتدي أثواباً، وتخلع أخرى وتتسمى باسم وتترك آخر إذا كشف.

وإذا كان الانبعاث الذي بدأ في العصر الحديث قد حمل معه كثيراً من التيارات الغربية إلى أدبنا وحاول أن يقنعها ويلبسها ثوب العلم، حتى غدا الكثير من هذه الأنواع الأدبية (كالقصة مثلاً) مدخلاً لهدم كيان هذه الأمة المسلمة.

إذا كان كل هذا وكل ذاك قد حدث، وما زال يحدث، فقد كان لزاماً لهذه الأمة أن يسودها أدبها الذي ينبع من ضميرها وعقيدتها وإبداعها، وإذا صح هذا وصدقت تلك المقولة اتضحت هذه الفكرة، **فما هي ملامح هذا الأدب الإسلامي**؟

يوضح هذه الملامح الدكتور محمد عبدالرحمٰن شعيب أستاذ النقد

الأدبي ووكيل كلية الألسن قائلاً: إن الأدب الإسلامي فسيح الرقعة، واسع الأرجاء، لأن كل أدب سار في فلك الإسلام صراحة وضمناً كان أدباً إسلامياً، (فحسان بن ثابت) شاعر الرسول ﷺ حين يدافع عن الإسلام ويهجو خصومه، و(كعب بن زهير) حين يمدح الرسول الكريم ويطلب الصفح والمغفرة، فإنهما يسيران في فلك الأدب الإسلامي الصريح، وكل أدب عالج قضايا وأفكاراً بتصور إسلامي فهو أدب إسلاميٌّ وإن لم يصرح وظل ضمناً، كقول حافظ إبراهيم:

إني لتطربني الخلال الكريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق
ويهزني ذكر المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق
فإذا رزقت خليفة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

حق الوجود، لقد ظل أدب هذه الأمة المسلمة مجالاً مفتوحاً لكل خرافات التغريب ولقد آن لها أن تدخل الأدب في نطاق مسجدها، ولقد غابت النظم الإسلامية كذلك عن حياة المجتمع الإسلامي العام، وفي محاولة المسلمين إعادة هذا الدين ليأخذ دوره القيادي في هذه المجتمعات لا ينبغي أن يفلت الأدب من تحت أيديهم ويذهب إلى أولياء الشيطان!

ويؤكد الدكتور محمد عبدالرحمٰن شعيب على ضرورة وجود الأدب محدداً ملامحه قائلاً: إن الأدب الإسلامي هو التعبير الجميل عن تجربة من التجارب الإسلامية، أو استيحاء الفكر الإسلامي أو التاريخ الإسلامي في نسيج المقطوعة الأدبية، وهو بهذا نوع من أنواع الأدب، وموجة من أمواج البحر الزاخر بكل إيماءات النفوس وخلجات ونبض الضمير.

الالتزام في أدب إسلامي:

يوضح قضية الالتزام في الأدب الإسلامي الأستاذ عبدالباقي حسين المدرس المساعد بدار العلوم (ماجستير في أدب سيد قطب) قائلاً:

لماذا يتحرج بعض الدارسين من إثبات عملية الالتزام عند الحديث عن

الأدب الإسلامي الذي غاب طويلاً عن هذه الأمة؟ ولماذا لا يهتم الأدب الوجودي الذي ينبع من خلفية قوامها طاعة الشيطان والانسياق في تيار الضلال؟. . . ولماذا لا يتهم الأدب الشيوعي بأنه أدب رجعي؟ وكلاهما ملتزم بفلسفته ـ بعد ذلك ـ لا يلتزم أدب الأمة الإسلامية بمنهجها الإسلامي؟

شرف المعنى:

ويضيف الدكتور شعيب أبعاداً تراثية للأدب الإسلامي قائلاً: «لقد دار بين النقاد مصطلح «شرف المعنى» فيقول عنه المرزوقي: (إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته). ويقول ابن رشيق صاحب العمدة: (من أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف) ويبدو أنهم ـ والكلام للدكتور شعيب ـ يقصدون من المعنى الشريف المعنى الذي لا يخدش حياء ولا يحرج فضيلة، فإن نشر المعاني الرذيلة ـ كتلك التي تدور حول الجنس وإثارة الغرائز والتي تحكي موقف المجان والشطار وسفلة الناس وغرائزهم ـ في الأدب يساعد على نشرها والدعاية لها، وفي ذلك جناية كبيرة على الأخلاق والحياء باسم الأدب وحرية الأديب».

الفن والخلق:

وقد يقولون: إن الفن فن وليس خلقاً، والفن للفن، وليس للدين إن دخل بأن يتدخل في هذه المعاني غير الطيبة إن عرضت عرضاً جميلاً وصورت تصويراً حسناً كان لها مكانها في الفن، وإن صادمت الأخلاق وسخرت منها.

ويرد عليهم د.شعيب مفنداً زعمهم قائلاً: «هذا الكلام ـ في الحقيقة ـ لا يثبت للنقاش، لأن أياً من جمال التصوير وحسن العرض لا يشفع للفكرة غير المقبولة، ولأننا لا نقبل من الأدب أن يصادم الأخلاق ويعمل على محاربتها وتقويض دعوتها وإن قبلنا منه ألا يساعدها ولا يدعو إليها، فنحن نقبل منه السلبية المطلقة من جهة الأخلاق بحيث لا يساعدها ولا يحاربها،

ولكننا لا نقبل من أن يحاربها أو يدعو لعكس ما تدعو إليه، فإن قيم الإسلام وأخلاق الإسلام وأفكار الإسلام هي عماد الأدب الدائر في فلك الإسلام الأدب الإسلامي، وهو عماد الأدب الشريف الذي يؤدي إليه النقاد.

الالتزام والإبداع:

إذا كانت هذه هي حقيقة الأدب الإسلامي وبعض ملامحه، فهل لعملية الالتزام عند الأديب أثر في إبداعه الفني؟ هل تقيده وتعطله كما يدعي البعض؟ يجيب الدكتور مصري عبدالحميد حنورة رئيس قسم علم النفس بآداب المنيا ـ مصر ـ قائلاً: «المبدع بطبعه إنسان خير، ولديه مجموعة من القيم يبحث عنها، وهي التي تدفعه بالفعل لأن يعمل في موضوع ما، ومن أهم هذه القيم التي يمتلكها المبدع الحقيقي هي الإصلاح والبحث عن الأصالة والصدق والأمانة، فإذا كان المبدع بالفعل يبحث عن هذه القيم، فإن موضوعاته التي يعالجها ستكون عليها بصمات هذه القيم، وفي الحقيقة إن المبدع الحق هو الذي يتبنى (قيماً إنسانية رفيعة)».

إن عملية الإبداع تخضع لمراحل أهمها الاستعداد والإشراف والمراجعة، ورغم أن لها ما يبررها، وأنها غير مستقلة بعضها عن بعض، إلا أنه إذا مر بها المبدع في الأدب الإسلامي، فإن هذه الفكرة تؤكدها باحثة أجنبية تدعى (شارلوت دويل) فتقول: «من الضروري أن يكون لدى الكاتب مجموعة من القيم، فهي تؤثر على إبداعاته وأنه ليس ضرورياً أن يكون الصدق الذي يلتزم به الكاتب مع الخارج موجوداً، ولكنه عند الإبداع لا بد أن يكون المبدع صادقاً ولا يكون منافقاً أو مزيفاً، وإذا حدث انشطار بين ما يعتقد المبدع وبين ما يكتب، فلا بد أن يأتي الموضوع مفككاً، إن الصدق والأمانة قيمتان يجب أن يتحلى بهما المبدع.

حدود الرؤية الإبداعية عند الأديب المسلم:

لكن ما هي حدود الرؤية الإبداعية عند الأديب المسلم؟

يجيب د. رمضان عبدالحميد حنورة قائلاً: إن الأساس الفعال في

عملية الإبداع هو عملية الثقافة التي نشأ فيها الإنسان، فهي مسؤولة عن الإلهامات، وعن النواحي التي تغذي هذا الموقف، وثقافة المسلم لها جذور أصيلة، فهو ابن حضارة إلهية لم تستطع أوروبا أن تبني حضارتها إلا حين اتصلت بها. وإن قراءتنا الدائمة في أعماق التراث لتدهشنا حين نعرف إلى أي حد وصلت الحضارة الإسلامية في فكرها وإبداعها من اتساع ورحابة أفق جدير أن يتمثلها الأديب المبدع المسلم فلينطلق في رؤياه الواسعة اللامتناهية في الكون والإنسان والخلق، ويؤكد هذه الرؤية واتساعها د.عماد الدين خليل في كتابه (في النقد الإسلامي المعاصر) قائلاً: إن الإنسان المسلم فنان بطبيعته، متفتح بكل إحساسه ومشاعره على قيم الكون والإنسان والعالم، بأوسع أطرها، متفاعل بكل وجوده مع جوهر هذه القيم لأن عقيدته الإسلامية وتصوره المفتوح يجعلان منه ـ دونما تكلف ـ إنساناً حساساً تتحرك أعماقه بشتى المعاني التي تستهدف التعبير وتتخذ إليه الوسائل من أجل إخراج تلك التجارب الشعورية بأسلوب جمالي مؤثر.

الأدب والتصور الإسلامي:

وأخيراً يقول سيد قطب رحمه الله: «إن أدب الانحلال هو أدب العبودية الذي لا يروج إلا حين تفرغ الشعوب من الرغبة أو من القدرة على الكفاح في سبيل مثل أعلى مثل أرفع من شهوة الجسد، وأعلى من تمكن الطغيان...».

أما الأدب الإسلامي فيما يقوله الأستاذ محمد قطب في كتابه (منهاج الفن الإسلامي) الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود وهو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، فهل آن للأمة الإسلامية أن يخضع آدابها ونقدها لذكر الله[1]!

بقلم: أبو علي حسن

---

(١) مجلة الأمة، العدد السادس عشر، فبفري ١٩٨٢.



على هامش الحوار حول الأدب الإسلامي

. . .لم تعد قضية الأدب الإسلامي مجهولة عند الدارسين والمتخصصين، لا سيما بعد أن كثر المهتمون به، وازداد العاملون لإنشائه أو إحيائه من جديد ليواكب الصحوة الإسلامية العامة.

والأدب الإسلامي ليس جديداً، بل هو قديم قدم الرسالات السماوية، ولكنه تأصل وبرز بوضوح مع إشراق فجر الإسلام العظيم.

وإذا كانت من دواعي الغبطة والأمل أن يتداعى الأدباء والدارسون والنقاد الإسلاميون لعقد ندوات ومؤتمرات يتدارسون فيها قضايا الأدب[١] ويرسمون قواعده، ويحددون معالمه إذا كان هذا الأمر ـ كما قلت ـ يدعو إلى الغبطة والأمل، فإن مهمة أخرى ذات بُعد ودلالة تقع على عاتق هؤلاء المهتمين، إذ لا بد من ترجمة التوصيات والقرارات إلى أعمال والانتقال من الآمال والرغبات إلى الدراسات والنتائج. . .

ومن خلال الحوار الجاد الذي كان يدور بين الأساتذة المشتركين في الحوار بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ـ برزت عدة قضايا ذات أهمية بالغة ـ وأكتفي هنا بالإشارة إليها باقتضاب:

---

(١) أشير هنا بالذات إلى المؤتمر الذي عقد في الهند بدعوة من سماحة الأستاذ الشيخ أبي حسن الندوي، وإلى الحوار حول الأدب الإسلامي الذي دعت إليه الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

إن اللقاءات العلمية، والمناقشات الموضوعية التي تدور بين المهتمين بالأدب الإسلامي هي التي تتيح لهم تحديد مساره، وتوضيح معالمه، حتى لا يكون مفهوم الأدب الإسلامي مفهوماً غائماً عاطفياً يختلط فيه الفكر والأدب والفقه والاجتماع والتاريخ، رغم ما بين هذه الفروع من صلة، لكن أدباً متميزاً واضحاً، يعبر عن التصور الإسلامي بالكلمة الموحية والعبارة المشرقة، وليستطيعوا تقديم هذا المفهوم للناس إزاء المفاهيم الأخرى للآداب المختلفة ولا يكفي أبداً أن ننادي بالأدب الإسلامي، وننشد الاهتمام به، دون تحديد لمفهومه ومعالمه، وتصوراته.

ولقد بدا لي من خلال ما كنت أسمع من نقاش، أو موضوعات، ومن خلال ما أقرأ، أن مفهوم الأدب الإسلامي ما يزال غامضاً في أذهان الكثيرين، بل إن عدداً من المشتغلين بالأدب، تدفعهم العاطفة أحياناً والمصلحة حيناً آخر إلى التحدث عن الأدب الإسلامي حديثاً لا أصالة فيه ولا عمق، ولا يدل على إيمان به أو معرفة له، لأن الأدب مرتبط ارتباطاً قوياً بالعقيدة التي يصدر عنها صاحب الأدب بالعاطفة والمشاعر التي يكنها في أعماقه.

فهل يكون الأدب إسلامياً إذا استشهد صاحبه بآية أو حديث، وأشار إلى حادثة تاريخية، أو قضية أخلاقية؟

لا أظن أن (ماركسياً)، أو غربياً يؤمن بـ(الرأسمالية) يقبل أدباً لا ينبثق من (الفكر الماركسي) أو (الفكر الحر الرأسمالي)، أو بعده من هذا اللون أو ذاك.

فلماذا نبيح في أدبنا أن ندخل كل لون تحت هذا الاسم لأن صاحبه جاء بسورة أو اقترب بفكرة من الإسلام؟

الأدب الإسلامي لا يصدر إلا عن أديب مسلم يحمل الإسلام عقيدة، ويؤمن بالإسلام منهج حياة، ويلتزم به سلوكاً وعملاً.

وقد يلتقي مع هذا الأدب ألوان أخرى لا تصدر عن أدباء إسلاميين ولكنها تتفق بالتصور مع الأدب الإسلامي، فتقدر هذه الألوان والآثار

بمقدارها، ولكنها لا تكون أدباً إسلامياً بالمفهوم الواضح المتميز لهذا الأدب.

وهذا الأمر مهم جداً ولا سيما في مرحلة التأسيس والبناء للأدب الإسلامي المعاصر، فإذا كانت هذه المرحلة غائمة يتخللها الخلط والغش أضحى البناء مهلهلاً ومهدداً بالانهيار بأسرع ما يمكن.

وربما كانت من ثمرات الحوار أن تطرح قضية الأدب الإسلامي وأبنائه ومن الذين يحملونه كما يحملون العقيدة، وكما يؤمنون بالإسلام، وينظرون إليه ضمن النظرة المتكاملة الشاملة للحياة في ظل الإسلام، فإذا بالذين كان الأدب عندهم عاطفة وأملاً يرون لأول مرة أن قضية الأدب الإسلامي قضية جادة ومحددة، ولكنها تحتاج إلى جهد وعناء وصدق حتى تبرز وتأخذ دورها الصحيح.

وكذلك كان بالنسبة للذين تدفعهم إلى المشاركة في الحوار مصلحة، تربطهم به مهنة تدفعهم إلى الإسهام في كل مجال، فإن هؤلاء وجدوا - وربما لأول مرة - أن شجرة جديدة بدأت تعلو وسط الفيافي، لها ظلال وأنداء، لها عطر وثمار، وأنها بدأت تشتد وتقوى، وتتفرع وتتكاثر ولا بد لهم من موقف.

وهذا الأمر بالذات، وهذه المواقف التي كانت من ثمرة الحوار مهمة في مسيرة الأدب الإسلامي ومستقبله.

وإنه من المهم في مجال الأدب الإسلامي أن لا تظل القضايا المطروحة قضايا نظرية، إن أثراً أدبياً واحداً يستطيع أن يؤدي - في هذا الأمر - ما لا تستطيعه الدراسات الكثيرة. ولهذا فإن المهتمين بالأدب الإسلامي من أدباء ونقاد ودارسين مدعوون إلى إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام فيسهمون في النتاج الأدبي الإسلامي من شعر وقصة ومسرحية ومقالة، وبحث... إلخ.

وليس المطلوب أن نصعد مباشرة إلى القمة، ولكن لا بد من الإنتاج الذي يحمل تصورنا للحياة ويعتمد على مواهب ناضجة، وأسس فنية

واضحة، وكذلك لا بد من التعريف بالأدب الإسلامي والاهتمام به، لأن كثيراً من الدارسين والنقاد لا يعيرون هذا الأمر أي اهتمام.

فكم من شعراء ـ وكم من قصّاص ـ وكم من كتّاب إسلاميين لا يطمعون بواحد يكتب عنهم ويتناول آثارهم بالدراسة والنقد، ولا يعرف بهم القراء. إن الذين أصبحوا من المشاهير من الأدباء وجدوا من يأخذ بيدهم، أو يتناول أدبهم بالتقويم والدراسة.

وإن أعداء الإسلام يدفعون بشبابهم لاقتحام شتى المجالات، ويبرزونهم بالتعريف والتشجيع والدراسة والتقويم حتى يصنعوا منهم أبطالاً، وقد ينجحون أو يفشلون.

فلماذا، لا نهتم بأدبائنا، وكتابنا، والناشئة من شبابنا الذين لا يجدون من يؤيدهم بكلمة تشجيع، أو بنصيحة مجرب صدوق.

وأعجب من الذين يريدون أن يبحثوا عن الأدب الإسلامي عند هذا القاص أو ذاك، وعند هذا الشاعر أو ذلك، ممن يرفضون أصلاً أن يقال عنهم وعن أدبهم: إنه أدب إسلامي، وممن أصبحت لهم تصوراتهم الخاصة التي تبتعد كثيراً عن الإسلام وتناقضه في عديد من الأمور والأصول!!!

فلماذا لا يبذلون الجهد، في دراسة أدب إسلامي متميز، نذر أصحابه أنفسهم لله وأنتجوا آثاراً أدبية أصيلة وجميلة؟

وهل يفيدنا في كثير أو قليل أن نبرز مثلاً إسلامية نجيب محفوظ أو توفيق الحكيم أو غيرهم؟ وهل الإسلامية في القضية البارزة في أدبهم أم أن قضايا أخرى بعيدة عن التصور الإسلامي هي التي أخذت اهتمامهم واستنفذت مواهبهم؟

ولماذا لم نتناول ـ مثلاً ـ (باكثير) وهو واضح في إسلاميته، ومظلوم من النقاد والدارسين لهذا السبب بالذات؟

ولماذا لا نهتم بالمشاهير فقط من شعراء وقصّاص؟ ألا يوجد في هذا

الجيل من يستحق الاهتمام، ولعله يوفق أولئك إذا وجد الرعاية والتشجيع والنقد الصحيح؟

إن هذه القضية أمر مطروح يحتاج إلى إبراز عملي في الإنتاج والدراسة، بل وفي عرض مثل هذه النماذج المتميزة في المؤتمرات والحوار لينتقل الحديث عن الأدب الإسلامي إلى مرحلة عملية تطبيقية.

ولعل أمراً خطيراً برز لي من خلال الحوار، وأخشى أن يسقط من أجله كثيرون، أو نضيع الطريق إلى الأدب الإسلامي المنشود ـ لا سمح الله ـ إن لم نحسب له حساباً.

وهذا الأمر يتعلق بمدى معرفتنا لأصول عقيدتنا ومبادئ ديننا، والأمور المهمة في شريعتنا وعندما يتحدث النقاد والأدباء عن مهماتهم وواجباتهم ـ كأدباء ونقاد ـ يشترطون أن يكون الناقد مثقفاً، واسع الثقافة، غزير المعرفة، شامل الاطلاع على فروع المعرفة وفلسفات العصر و... و... وكذلك بالنسبة للأديب الناجح.

ومن الخطير أن يكون الأديب المسلم فقيراً في معرفته لعقيدته ودينه وتاريخه يريد أن ينتج أدباً إسلامياً وهو لا يدرك معنى الحلال والحرام، معنى الفريضة والواجب.

والأخطر من ذلك أن يكون الناقد أيضاً متورماً من غزارة الثقافة الغربية بحيث لم يعد في مقدوره أن يعود إلى أصوله، لأن ذلك قديم، يكتفي منه بما عرف في المدرسة، وما قرأه من أقوال المستشرقين، وما مر به دون عناء.

فهل يستطيع مثل هؤلاء أن يصيغوا أدباً إسلامياً؟

إن أصحاب المذاهب الوضعية يرفضون مثل هؤلاء في مذاهبهم بل يعدونهم من المتطفلين أو الجاهلين، فلماذا نسكت نحن عن أمثال هذه الصور؟ ولماذا لا يجد الأمر جداً وجهاداً حتى نرتفع إلى مستوى الأمانة؟!!

كيف نقبل من مسلم أن لا يميز في إنتاجه بين الحلال والحرام في

أمور لا يجوز أن يجهلها مثله، لأنه قد تكون من المعلوم من الدين بالضرورة؟!!

كيف نقبل من أديب مسلم أن يستسلم للعصر فيتخذ الأعراف والعادات الغربية سلوكاً وديناً مع دينه؟!!

وحري بنا أن نعطي هذا الجانب أهميته الحقيقية لأننا نلاحظ أن النقاد يعودون إلى فلسفة فلان، وأفكار آخر، ومبادئ هذه المدرسة، وتصورات تلك من الشرق والغرب عندما يقوّمون أديباً أو يدرسون نصاً أو يكتبون عن قضية، فكيف نقبل من مسلم أن يفهم أي أمر آخر، وأن تكون ثقافته الإسلامية موازية لدوره ومهمته؟ إن العِصرية تضخمت كثيراً حتى باتت تشل حركتنا، وتقيدنا عن بناء الطريق الصحيح وبأسس قوية بعيداً عن كل المؤثرات الأخرى.

وهناك أمر آخر يتعلق بما تقدم من أمور، ويتعلق بالنواحي الفنية للأدب الإسلامي، ولقد لاحظت أن كثيراً من المهتمين بالأدب الإسلامي يسيرون دون قصد للأخذ بالأطر الفنية الغربية في الشعر والقصة وبقية فروع الأدب، بل يرون أن هذه القضية مسلم بها، ما دام الغرب قد تقدم علينا في هذا الأمر، وغيره، وأن هذه الأطر أضحت عالمية و... و... ولو قلنا جدلاً: إن هذا صحيح... إلا أنه لا يكفي لأن الأطر الفنية لم تأت طفرة، وإنما سارت عبر تطور مستمر حتى أصبحت في شكلها المعاصر، وتأثرت بالمضامين والتصورات والمجتمعات الغربية وكانت انعكاساً لها في جوانب كثيرة، فهل من المحتم أن تكون هذه الأطر هي المناسبة للأدب الإسلامي؟

إن الاستفادة منها بأكبر مجال لا يرفضه إلا جاهل، ولكن التسليم بأنها الشروط الكافية والصحيحة فهذا غير صحيح، بل وإن تحكيم هذه القواعد بأدبنا أمر يحبط مساعينا للارتقاء، فلماذا لا ندع للأديب المسلم الحرية في اختيار ما يريد وابتكار الأسلوب والصورة التي تعتبر عن نفسه وعن مجتمعه.

مثلاً: الخطابة، التقرير، الوعظ والإرشاد، الأسلوب المباشر، وغير ذلك من الأمور مما يعد أساليب مذمومة في مفهوم النقاد المحدثين.

في مفهوم الإسلام هي أساليب ناجعة وعملية، والواقع يؤيد ذلك والبيئة تقبل هذه الأساليب أكثر من قبولها الأساليب غامضة، بعيدة، قلقة، ومع هذا أكثر كتَّابنا يكرر المقت الذي بثه الحاقدون على إسلامنا فرأوا في الوعظ والإرشاد أسلوباً رجعياً ذميماً، وعجزاً وكسلاً وظلماً، فكيف نردد أقوالهم، ونحمل آراءهم، وندع ونذم أمراً دعانا إليه الكتاب الكريم والحديث الشريف.

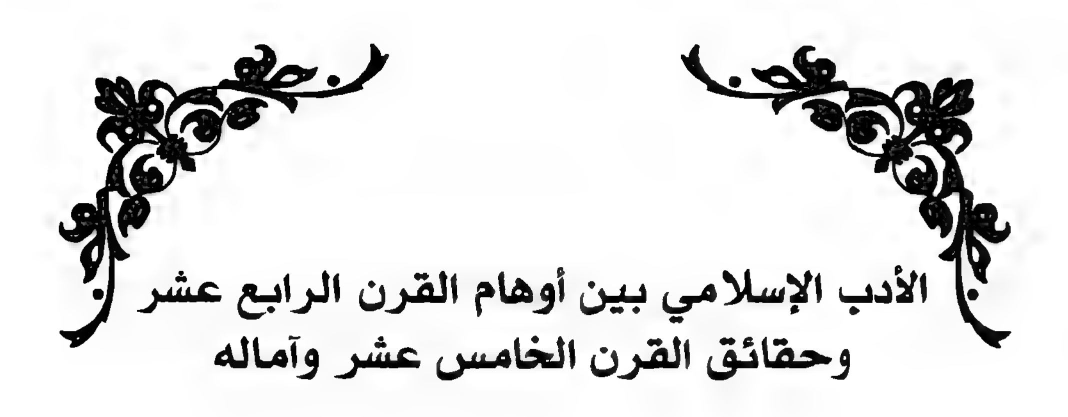
نخلص من هذا إلى أننا بحاجة إلى التحرر من قيود المدارس النقدية الغربية؟ نستفيد منها ولا نتقيد بها، نأخذ ما يصلح منها ولا نتبناها، ونترك الحرية لأنفسنا في اكتشاف الأطر المناسبة لأدبنا ومجتمعنا، وحينما نعود إلى كتاب الله عز وجل سنجد أساليب شتى، وصوراً عديدة تهدينا سواء السبيل. وكذلك في حديث رسول الله ﷺ، ما يثري أدبنا الإسلامي بالأساليب والأطر والصور الرائعة، فهل أعطيناها بعض ما نعطي وسوسات الشياطين من أصحاب المدارس الغربية من اهتمام ودراسة؟

وبانتظار خطوات أخرى في درب الأدب الإسلامي، نتمنى أن تكلل خطوات العاملين المخلصين بالنجاح، وأن يهدينا ربنا سواء السبيل[1].

بقلم: محمد حسن بريغش



(١) مجلة الأمة، عدد ٣٠، جمادى الأولى ١٤٠٣هـ - مارس ١٩٨٣م.



الأدب الإسلامي بين أوهام القرن الرابع عشر وحقائق القرن الخامس عشر وآماله

لم تكن الحضارة حين أشرقت على الأرض ابتداءً بنزول كلمة: (اقرأ) رافعة راية الإسلام على أنحائها المختلفة، حدثاً عادياً في دنيا البشر.

وحين فوجئ الغرب بهذا النوع من البشرية أفراد يمتلكون جماع الفكر الإنساني الواعي المتصل بالله عز وجل يبدع في كل ما له صلة بالإنسان، لم يكن ذلك الغرب في وعيه ورشده بل كانت رايات الظلام هي راياته الأساسية ومحل فخره واعتزازه.

وكما يحدث في مختلف الحضارات المغزوة حين ترى ملكها يتهاوى خاصة أمام حضارة إلهية لا تقيم سلطاناً للبشر، وتمنعهم من ممارسة أهوائهم المختلفة وتقديس بعضهم بعضاً، انزوت فترة تتذوق طعم الهزيمة لتحوله بعد ذلك إلى سموم موجهة، ثم انبرت تنفث السموم. وكانت الحروب الصليبية الباغية على العالم الإسلامي حتى توّجت بحملة لويس التاسع الذي أسر بدار لقمان بالمنصورة، وكانت له وقفة وقفها مع نفسه كأحد رجالات الصليبية في الغرب المحاربين للحضارة الإسلامية، وقفة يتوصل فيها إلى نتيجة حاسمة (المسلمون لا ينهزمون ما دام فكرهم باقياً، وعقيدتهم قائمة)، فلا بد أن تتغير المجابهة فلتصبح الكلمة هي المدفع، ولتحول ميادين القتال إلى آفاق العقول، بدأ هذا الفكر في القرن السابع الهجري ليظهر جلياً في الحملة التغريبية الفرنسية بقيادة بونابرت أسطورة

الغرب الزائفة في بداية القرن الثالث عشر الهجري حملة فكرية، منظمة واعية، ليس للعسكر فيها إلا دور الخدمات وتمهيد الطريق، بل وبأديب العبيد تمكيناً للفكر الوافد من غزوة صليبية كبرى تحت الأسماء المستوردة وأعلام الفكر المرفوقة لإشفاق الغرب على الشرق أن يبقى متخلفاً كل هذا التخلف في ظلال عقيدته الإسلامية حسب زعمهم.

وتدخل الخيل الأزهر زمن النهضة الإسلامية الذي صنع شيوخه ورجاله البارود، وتدخل الصحافة لتنشر كل فكر هدام، وتربي عبدة الفكر الغربي ويمتلكها الصليبيون، وتبدأ مرحلة الكشف عن الآثار الفرعونية في مصر لتزكي بعد ذلك فرعونية مصر البلد المسلم ولتبدأ المساعدات الأوروبية في ذلك لبث النهضة المزعومة للدولة المتخلفة، لتؤول بعد ذلك إلى فكرة قاسية وهي الابتعاث الجاهلي الذي مني به العالم الإسلامي ويسافر المبتعث، ليتعلم ولا أحد يعترض على هذه الفكرة الرائعة البراقة، ليسقى في دولة المبعث ما شاؤوا له من سموم في أطباق فكرية تسمى الموضوعية والعلمية والنزاهة، وفي خلال القرن الرابع عشر الهجري تبدأ الخطوات التنفيذية لجني ثمار ما خطط له لويس التاسع، ومهد له نابليون ولتصنع المأساة.

الغزو الفكري والأدبي: ولم يكن هناك مجال أو قناة أوسع من الأدب لصنع أطراف المأساة في حياة المسلمين وإذا كانت للكلمة هذه المكانة في الإسلام، فهي أمانة، وإذا كان لها من هذه القيمة في اللغة العربية وفي فكرها، فلا بد أن تسقط هذه الكلمة وتميع وتضيع الأمانة، وترتبط بالكذب على ألسنة المتسلطين والمنافقين، فدعاوى التطوير تارة والتسهيل تارة أخرى والتسيير تارة ثالثة، وملاحقة الآداب العالمية، والتذيل في فنونها رابعة وخامسة لتصبح اللغة العربية ممسوخة في صورتها العامية الهابطة ولهجاتها المختلفة المشتتة وتسقط لغة القرآن ويسقط أدبها، ولكن هيهات.

في الثقافة والتراث: وقد كان دخول هذه المحاولات في محيط الثقافة والتراث عبر عدة طرق فـ«طه حسين» بعد كفره بالأزهر وعلومه ومدرسته

يدعو إلى الفرعونية، وتكون شارة الجامعة المصرية فرعونية، ويرتفع تمثال نهضة مصر تخليداً لهذه الحضارة التي تموج في عالم الخرافة وعالم الآلهة المزيفة المنحطة لأهواء البشر وصراعاتهم، ولم يبعد توفيق الحكيم عن هذا التعصب للمصرية المعادية للعروبة، بل المعارضة للمفهوم الإسلامي الجامع، أما الدكتور (حسين فوزي) فقد ماتت عنده الثقافة العربية عقب القرون الوسطى، وذهب غبارها مع الثقافات الأخرى ولا قيمة للتراث العربي عنده، إلا أنه لعب دور انتقال في العصور الوسطى فكان مستودعاً لبعض مظاهر تفكير اليونان فيما قبل عصر إحياء العلوم، ولم يكن (سلامة موسى) إلا مادياً صرفاً يحاول هدم الإسلام والتدين والأصالة بقوله: نحن بحاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان، ولا بأس من الاعتماد على الترجمة ومن غريب أمر هذا الرجل أنه يدعو ما وسعه الجهد لجعل العامية محل العربية الفصحى، مستخدماً في أسلوب دعوته هذه اللغة الفصحى فهو يحمل في كيانه عوامل تناقضه وافترائه.

وفي البلاغة والنحو: وهما علمان من أهم علوم اللغة العربية لكنها حملاً على دعوى التطور، وشهد القرن الرابع عشر الهجري الذي نحن بصدده حملة كبرى لهذه الدعوى والتطور، أمر طبيعي في إطار الإضافات الجديدة التي يعطيها المدعون والدارسون لعلمهم الذي يتخصصون فيه، ولكن التطور دائماً يرتبط ارتباطاً وثيقاً بخناجر الأعداء في عالم الثقافة العربية ودنيا الأدب العربي، فحين يعجزون عن فهم النحو أو يتعلمونه بطريقة خاطئة على غير ما تعلمه الأوائل وحين تشتد حملة الأعلام استهزاء به، يتلمسون المواضيع ويعزفون على نغم التطور، والتقت دعوة أمين الخولي في تطوير البلاغة العربية التي جعل لها اسماً آخر بمصطلح أجنبي هو فن القول في تواز مع دعوة (إبراهيم مصطفى) في تيسير النحو وإحيائه، وقد زاده عسراً إذا كان أصلاً عسيراً في نظره بمحاولته هذه على نحو يفصل الأدب العربي الحديث بلغته عن القرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي المنصل الحلقات، ولم يقف دعاة الأصالة مثل د.أحمد بدوي، د.علي العماري، أحمد عبدالغفار عطار موقفاً سلبياً من ذلك التيار ولكنه

التيار المدعم، والمزكى من سدنته في الغرب الصليبي، وشارك سلامة موسى في هدمه كذلك قائلاً: «إننا ورثنا عن العرب هذه اللغة العربية وهي لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدينة راقية.

أما فنون الأدب: فلقد كان انتشار القصة قبل الحرب العالمية الثانية من جهة وذيوع القصة القصيرة بعد الحرب من جهة أخرى وما صاحبها من دعاوى ماكرة كالعبث واللامعقول، والحرية الزائفة لتحقيق الوجود وغيرها من المذاهب التي ينأى الأدب في نظريته الأساسية عن هذه الأمراض النفسية، كان كل ذلك من أكبر معابر السموم إلى العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، فالخطيئة والرموز النصرانية والصليب والوثنيات، وصراع الآلهة، والكشف، والإباحية، والإلحاد والكفر فهي أعمدة في القصة، وكان للترجمة التي اختيرت لأسوأ ما قرئ من قصص الغرب الرخيصة المبتذلة دور بارز في هذا السياق فباسم الواقعية حيناً، وباسم التحليل النفسي حيناً آخر، وباسم الحرية الفكرية للأدب ثالثة، وعدم الالتزام رابعة، كانت هذه الأسماء خناجر تشرع في وجه كل عقل مثقف في العالم الإسلامي متناسين أن التزام الشيطان لشيطانيته والملحد بإلحاده في العمل الأدبي هو أول ما يفسد حرية الأديب ويجعله أسير شهوته لا مستنيراً بهدي باري الكون فتتسع رؤيته ويرق حسه ويعلو تصوره.

والأدب الشعبي: وللأدب الشعبي دور بارز في بث هذه السموم، فلكل شعب أدبه الخاص به سواء أكان مقروءاً أم مروياً. فإذا كان الجانب المروي من هذا الأدب لا يتناول إلا الخرافات والوثنيات والعادات والتقاليد التي لا تنفصل كلها عن ضمير الشعب المسلم، والتي جاءته من عصور الخرافة ومراحلها الأولى فكيف تكون أدباً شعبياً؟ ولهذا فلا غرو أن شجع الغرب الصليبي ذلك بإعطاء المنح لهذه الدراسات لتكون بديلاً عن الأصالة العريقة للأدب العربي الذي أراد طه حسين أن يفصلها عن أدب العصر الحديث، وكان الشعر في المرحلة الأولى، محظياً بمنصب وافر من تيار الهدم المخطط فإذا كان الشعر عماد اللغة العربية لغة القرآن، وديوانها ليشكك فيه وتحت ستار الشك العلمي بصنع طه حسين (في الشعر الجاهلي)

فيثور المجتمع المسلم رافضاً السم، فيحاول التراجع إلى (الأدب الجاهلي) ولم يتركه علماء الأصالة فقامت سبعة كتب أو تزيد لتكشف الزيف والكذب والسطحية، ولقد كان للرائد مصطفى صادق الرفاعي دور كبير في هذه المعركة، والشيخ محمد الخضر حسين والغمراوي وغيرهم كثير، وإذا أنكر الشعر الجاهلي وهدمت لغته فماذا يبقى بعد ذلك من أصول لغة القرآن حين تختلف في تفسيره على معنى أو لفظ، وماذا يبقى بعد ذلك لمن بعدنا حين يريدون معرفة الأصول وتطور الدلالات، على أي هذا التشكك في رواية الشعر لتعطف بحنو على فكرة إنكار السنة النبوية الشريفة والتشكيك في روايتها وإذا كانت هذه الحملة الشرسة الماكرة في الغزو الفكري والثقافي لتغريب هذه الأمة وهدم شخصيتها الإسلامية الشامخة هي أهم خطر سيطر على اتجاهات الأدب العربي في القرن الرابع عشر الهجري، فإن الضرورة الحقيقية في مقاومة إيجابية بعد أن أصبحت الدعوة العربية المصنفة في أسارها لصيقة بالدعوة إلى النزعة القومية، بل القومية العنصرية حين ظهرت كبديل للفكرة الإسلامية بل إنها كدعوة لاقت مساعدة من البريطانيين الصليبيين وغيرهم، أقول بعد هذا كله، لا بد أن يقوم تيار الأدب الإسلامي كتيار ثقافي يعيد للأمة الإسلامية شخصيتها الحقيقية في أدبها وفي فنها وفي محافظتها على لغتها العريقة حتى تظل قوية الصلة بمنبع وجودها وخيرها: كتاب الله العزيز. وحتى يحدث هذا، فإن على هذا التيار أن يظهر في الأفق أعمالاً أدبية، وأشكالاً فنية وأشخاصاً في هذه الأعمال لا يسقطون وسط حلبات الرذيلة ولا يسعون نحو البعد عن الفضيلة، وإذا كان المفهوم التاريخي هو الذي يبدو في الأفق حين نذكر كلمة فن إسلامي أو أدب إسلامي، هذا المفهوم ذو الإطار الزمني المحدود في النقوش، والزخارف والرسوم التي قدمها المسلمون مفتقدة في كثير من الأحيان على ما يقوله الدكتور عماد الدين بن خليل: القاعدة النفسية، بل وارتكزت على الجانب الجمالي المجرد ففقدت بالتالي تأثيرها النفسي واستفزازها للكينونة الإنسانية.
أقول: إذا كان هذا المفهوم التاريخي هو الذي يبدو، فإن الفن الإسلامي أوسع من أن يقف عند شكل معين أو فترة زمنية معينة، وكيف ذلك،

ورسالته أبدية خالدة إلى يوم القيامة تمر عليها عصور كثيرة وأشخاص بتفاعلات زمنية مختلفة وضرورات متجددة، فهذا الفن الإسلامي في إطاره العام الخالد يجسد شخصية الأمة فهو يرسم على ما يوضح الأستاذ محمد قطب صورة الوجود من زاوية التعبير الجميل من الكون والحياة والإنسان أو هو نفسه هذا الفن، التعبير الجميل عن هذه الأشياء من خلال التصور الإسلامي كله فلا وجود لتصور صليبي يحمل رموزاً لصليب، ويحيا أبطال العمل الأدبي في ظلال الخطيئة أو متمسحين بمسوح الرهبان، أو يتصارع بطله مع آلهة الحب لأنها نافسته في حبّ وضيع أو غير ذلك مما حفل به ما سمي بالأدب العربي في القرن الرابع عشر الهجري، وينادي به دعاة هذا التيار الإسلامي بهدم اللغة القرآنية التي ما ظلت طوال هذه الأحقاب من الزمن إلا لارتباطها بالنص السماوي الخالد، وشأن أهل العلم حين يعجزون عن شيء يجتهدون فيه ولا يطعنون في صحته يدعون إلى وجوب تغييره فلا وجود للأقلية السالبة التي لا تفكر إيجابياً في مجالات العلوم المختلفة المتعلقة بالأدب الإسلامي كتيار ثقافي عنيد، وإذا تناشد الرواة غير الإسلاميين أدباً شعبياً أو درساً في الجامعة فهو لا يعبر عن أمم وثنية أو انحلالية حسب زعمهم، بينما هو في الحقيقة يغوص في أعماق الإسلامية التي هي هوية هذه الأمة فيلقي ما يلقى من معان أو ظلال غير إسلامية، ويفتح ما شاء له الخيال من تصورات لكنها لا تقترب أو تبتعد عن هذه الأمة الإسلامية إلى غيرها، وإذا ابتعدت فإنها تحاول الانسجام والتلميح لا الإظهار والتجريح. وهذا الأمر الخطير يتعلق تعلقاً أساسياً بوجود هذه الأمة، فما دامت هذه الأمة وهي في أشد فترات ضعف أبنائها تأبى الرضوخ لعدوها، وتظل شامخة تنزف من جرح سببه لها أعداؤها وترفع رأسها رغم ذلك فإن وجود الأدباء الإسلاميين لا يمكن أن يغيب.

ولكن الدور الأساسي وفي هذه القضية يقع على النقاد المسلمين، ولقد كانت جهود سيد قطب رحمه الله، والأستاذ محمد قطب، والدكتور عماد الدين خليل، والدكتور نجيب الكيلاني، والأستاذ حلمي القاعود، والأستاذ أنور الجندي، علامات مضيئة لشباب هذه الأمة مبدعين ونقاداً تنير

لهم الطريق حقاً، في هذا الظلام، في مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

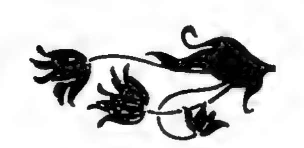
لكن الأمر يحتاج إلى روح لا تعرف الصمت وإعلام لا يركد وقتاً ويصحو آخر، ولعل الدور الإعلامي في هذا المجال لا يقل خطورة عن دور النقاد والأدباء والمفكرين، وإذا كنا ننظر إلى ما ذكره «النووي»، «في روضة الطالبين» إنه إذا تعطل فرض كفاية، ثم كل من (عمل به) علم به وقدر على القيام به، وكذا من لا يعلم وكان قريباً من موضع يليق به البحث والمراقبة ننظر إلى ذلك في إطار العلوم الشرعية أو العلوم الطبيعية، فإن الأمن حين يتعلق بوجود الأمة الإسلامية ذاتها أو شخصيتها السوية فهو لا يقل خطورة عن أي علم شرعي، فهل يصبح القرن الخامس عشر بإذن الله قرن الإيجابية واليقظة الإسلامية والتخلص مما عانى منه المسلمون من غياب الإسلام في حياتهم خلال القرن الرابع عشر؟

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1].

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[2][3].

صدق الله العظيم

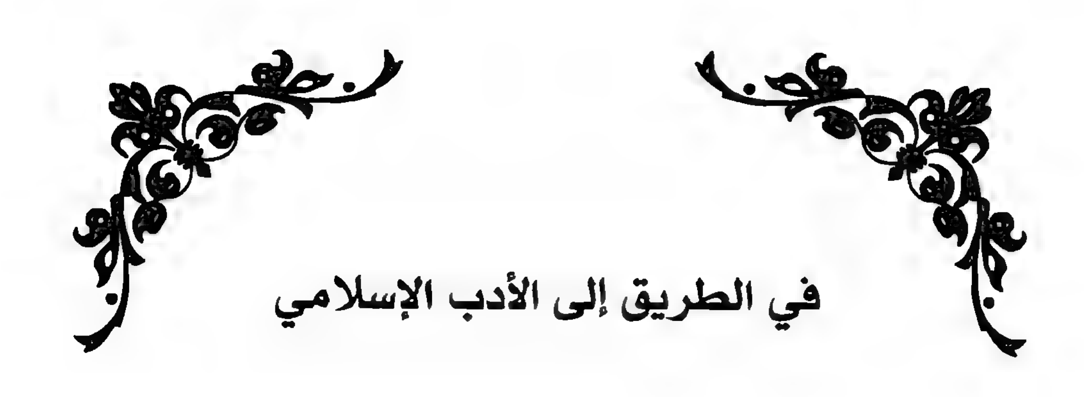
بقلم: أبو علي حسن



(١) سورة محمد، الآية: ٧.

(٢) سورة الروم، الآية: ٦.

(٣) الأمة، عدد ١٩.



في الطريق إلى الأدب الإسلامي

الأدب الإسلامي ـ في صورته المتكاملة التي استعرضنا أسسها من قبل ـ شيء لم يوجد بعد في الإنتاج البشري[1]!

---

(١) هذا الرأي للأستاذ الشيخ محمد قطب غير مسلم به للأسباب التالية:

أ ـ أن الكمال المطلق ـ وهو ما يفهم من عبارات الأستاذ ـ غير موجود، والموجود بهذا المعنى هو الأمل والرغبة والعزم فقط، أما ما تحقق في الواقع فهو أمر نسبي ليس في ميدان الأدب فحسب، وإنما في كل شأن من شؤون الحياة.

ب ـ أن الكمال النسبي للأدب الإسلامي قد تحقق فعلاً في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين وقد حققه الإسلاميون ـ أعني الذين تمكنوا من امتلاك رؤية إسلامية كاملة ورؤية فنية ناضجة.

ج ـ أن نفي الصفة الإسلامية الكاملة عن الأدب عامة يتناقض مع حقائق التاريخ والواقع.

فالواقع أنه وجد شعراء وكتَّاب إسلاميون بلغوا درجة عالية من السمو الفني والفكري، نجد ذلك في خطب ومواعظ الصحابة والتابعين، وفي مواعظ الزهاد، وفي الميدان الشعري نجده مقطوعات وقصائد مثل قول عبيدة بن عبدالله بن عتبة في عتاب صديقين له:

ألا أبلغا عَنّي عراك بن مالك ... ولا تدعا أن تثنيا بأبي بكر

فقد جعلت تبدو شواكل منكما ... كأنكما بي موقران من الصخر

وطاوعتما بي داعكا ذا معاكة ... لعمري لقد أورى وما مثله يورى

فلولا اتقاء الله بقياي فيكما ... للمتكما لوماً أحر من الجمر

فما تراب الأرض منها خلقتما ... وفيها المصير والمعاد إلى الحشر

ولا تأنفا أن تسألا وتسلما ... فما حشي الإنسان شراً من الكبر

ولو شئت أدلى فيكما غير واحد ... علانية أو قال عندي في السر=

ولكن هذا لا ينفي وجود بواكير متفرقة من هذا الأدب، تنبئ بأنه قد ولد بالفعل وأنه في طريقة إلى التكامل والنضوج.

وهذا وحده شيء ليس بالقليل.

فحين يطمئن الإنسان إلى هذه البواكير، وإلى دلالتها على النضج المقبل، يستطيع أن يتطلع إلى اليوم الذي يتكامل فيه هذا الأدب ـ والفنون الأخرى كذلك ـ فتعطي الإنسانية كلها ذلك القبس المشرق الذي لم تهتد إليه بعد، وإن كانت قد وقعت إلى لمحات منه بين الحين والحين، وتعطيها

= فإن أنا لم آمر ولم أنه عنكما   تضاحكت حتى يستلج ويستشري

أخبار القضاة، ج۱ ص١٣٦.

فهذه القطعة الشعرية إسلامية في مفاهيمها وبواعثها النفسية وعباراتها، وإسلامية الأدب، تتحقق بالشروط الثلاثة المذكورة.

ومن الشعر الإبداعي الذاتي الرفيع قول أحد الإسلاميين يصف الدعاء المستجاب كما يعتقده ويتصوره من خلال القرآن والسنة:

وسارية لم تسر في الأرض تبتغي   مَحَلاً ولم يقطع بها البيد قاطع

سرت حيث لم تسر الركاب ولم تنخ   لو رد ولم يقصر لها القيد مانع

تحل وراء الليل والليلُ ساقط   بأوراقه فيه سمير وهاجع

تفتح أبواب السماء ودونها   إذا قرع الأبواب منهن قارع

إذا وفدت لم يردد الله وفدها   على أهلها والله راء وسامع

وإني لأرجو الله حتى كأنني   أرى بجميل الظن ما الله صانع

(عيون الأخبار، ج٢، ص٢٨٦).

وكقول عمر رضي الله عنه في دعاء له في صلاة الاستسقاء: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا بالذنوب ونواصينا بالتوبة، فاسقنا الغيث (م.س. ص٢٧٩).

ومن يتبع مناجاة العباد ومواعظهم يجد نصوصاً أدبية إسلامية جميلة كل الجمال مبنى ومعنى، بل إن الحديث النبوي الشريف وأمثال رسول الله ﷺ وأحاديثه لهي نجوم الأدب الإسلامي وقلائده الفريدة.

د ـ أن البت في هذه المسألة لا يكفي فيه الرأي والظن، وإنما يتطلب الاستقراء والتتبع، والله أعلم إن كان الأستاذ حكم بظن أم بدراسة.

هـ ـ أن التعميم والقطع في القضايا الفنية التي لا مناص فيها من الذاتية أمر غير مقبول.

ذلك الطعم المتكامل الذي افتقدته منذ مولدها ولم تصل إلى تمامه، وإن كانت نكهاته متفرقة هنا وهناك «القبس الكوني» الذي يعبر عن معنى الوجود كله... و«الطعم الإنساني» الذي يعبر عن كل وجود الإنسان.

والأمر في حاجة إلى المسلمين... فنانين!

مسلمين يعيشون في حسهم حقيقة واقعة، ويتلقون الحياة كلها بحس إسلامي ومن خلال التصور الإسلامي فنانين في ذات الوقت، يعبرون عن هذه الحقيقة الواقعة في حسهم بصورة جميلة موحية، تتحقق فيها شروط الفن ومقاييس الجمال التعبيري. والعنصران لازمان معاً في ذات الوقت.

فليس يكفي أن يكون الإنسان مسلماً لكي ينشئ فناً إسلامياً تتحقق فيه شروط الفن.

وليس يكفي بطبيعة الحال أن يكون فناناً ـ أي فناناً ـ ليصل إلى التعبير عن الفن الإسلامي.

* * *

الإسلام وحده لا يكفي لإنشاء فن إسلامي...

فقد يستطيع مسلم صادق الإيمان، وُهِبَ المقدرة على التعبير، أن ينشئ «أفكاراً» إسلامية عن الله أو الكون أو كلها جميعاً... وقد يستطيع أن «يجرد» من حياته... وتجاربه الإسلامية صوراً فلسفية ومفاهيم عامة عن الإسلام. وهذا كله إنتاج له وزنه، ولا شك في عالم الفلسفة وعالم التجريد...

ولكنه إنتاج لا صلة له بالفن...

فالفن ليس «فكرة» ولا «فلسفة» ولا «مفاهيم مجردة» كالتي تعنى بها «البحوث» الفكرية في شتى الميادين.

وإنما هو «الانفعال الذاتي الخاص» بالأشياء والأشخاص والأحداث، الانفعال الذي تتلقاه كل نفس مفردة على طريقتها الخاصة في التلقي،

وتنفعل به في أعماقها و«تعانيه» معاناة كاملة بكل جزئياته وتفصيلاته، ثم تخرج من هذه المعاناة المشتبكة بوشائج النفس، النافذة إلى حناياها ودروبها، المختلطة برصيدها الخاص من المشاعر والتجارب والاتجاهات والميول. . . تخرج منها بتجربة شعورية معينة، أو «بإفراز» معين يحمل السمات الذاتية لصاحبه، ويجب أن ينقله إلى «نفوس» الآخرين في صورة جميلة يتوافر لها التأثير والإمتاع.

والفن «رؤية» للواقع من خلال ذلك الانفعال الذاتي الخاص بالأشخاص والأحداث و«تفسير» لهذا الواقع في ذلك الضوء الخاص، تفسيراً شعورياً ـ لا فلسفياً فكرياً ـ كما أنه هو «رؤيا» للمستقبل، وللمجهول، وللماضي كذلك بنفس الشروط.

والفن الإسلامي ـ من ثم ـ ينبغي أن يصدر عن فنان مسلم أي «إنسان» تكيفت نفسه ذلك التكيف الخاص الذي يعطيها حساسية شعورية تجاه الكون والحياة، والواقع بمعناه الكبير، وزود بالقدرة على جمال التعبير، وهو في الوقت ذاته إنسان يتلقى الحياة كلها من خلال التصور الإسلامي، وينفعل بها ويعانيها من خلال هذا التصور، ثم يقص علينا هذه التجربة الخاصة التي عاناها، في صورة جميلة موحية.

وهذا هو الذي لم يتيسر من قبل[1] في الأدب العربي ـ لسبب من الأسباب ـ والذي توجد منه اليوم بواكير متفرقة تنبئ بأنه قد ولد بالفعل، وأنه في طريقه إلى التكامل والنضوج ولكنه ـ بهذا المعنى ـ ليس وقفاً على المسلمين وحدهم من الفنانين!

---

(١) بل تيسر ووجد بالفعل، وجد شعراً ونثراً، وبملابسات ظرفية تختلف عن عصر الأستاذ محمد قطب وملابساته وخصائصها. فالفن الإسلامي عامة ظهر مع الإسلام والمسلمين، وتأثر بظروف المسلمين السلبية والإيجابية، ولحقه ما لحق المسلمين من جمود، وانحراف، وأخطاء، والفرق كبير بين الحديث عن شيء لم يوجد بعد، وعن شيء وجد بالفعل، ومر بمراحل من التطور والجمود، والقوة والضعف والتأثير والتأثر. وذلك ما حصل للفن الإسلامي عامة.

صحيح أن المسلم الحق[١] ـ بطبيعة إسلامه ـ يجد الطريق أمامه ميسراً ـ حين يوهب الموهبة الفنية ـ لأنه يعيش المفاهيم الإسلامية بالفعل، وينفعل بالأشياء والأشخاص والأحداث من خلال هذه المفاهيم، دون جهد مبذول منه ولا افتعال، بل دون قصد واع منه إلى هذا الانفعال!

وصحيح ـ من ناحية أخرى ـ أن المسلم وحده هو الذي تتسع نفسه للتصور الإسلامي الكامل، لأن هذا التصور هو المقتضى الطبيعي المباشر لحقيقة إسلامه، ولأن الإنسان لا يحمل هذا التصور الكامل الشامل حتى يكون قد أسلم نفسه لله على طريقة الإسلام وبمفهوم الإسلام.

ومع ذلك، فإن التصور «الفني» الإسلامي للكون والحياة والإنسان، هو تصور كوني إنساني... مفتوح للبشرية كلها، لأنه يخاطب «الإنسان» من حيث هو إنسان، ويلتقي معه كذلك من حيث هو إنسان، ومن ثم يستطيع أي «إنسان» أن يتجاوب مع هذا التصور، ويتلقى الحياة من خلاله ـ بمقدار ما تطيق نفسه هذا التلقي وذلك التجاوب ـ فيلتقي مع الفن الإسلامي بذلك المقدار.

ومن أجل ذلك، لم نقصر النماذج التي أخذناها من «بواكير» الأدب الإسلامي على المسلمين من الفنانين، بل اخترنا إلى جانبها نماذج من فنانين غير مسلمين، لأنها تلتقي ـ التقاءاً جزئياً على الأقل ـ مع التصور الإسلامي، وتصلح بذلك أن تسير مع المنهج الإسلامي للفن في هذه الحدود.

ثم يبقى لدينا وراء ذلك نتاج عالمي ضخم ـ رائع في كثير من الأحيان ـ لا يلتقي بالتصور الإسلامي، ولا يسير مع المنهج الإسلامي للفنون فما موقفنا منه؟ وما رأينا فيه؟ إننا لن ننبذه كله بطبيعة الحال، ولن نمتنع عن قراءته ودراسته والاستمتاع بما فيه من جمال جزئي... على أن يظل مفهومنا أنه جمال جزئي! وأنه ـ بكل ما فيه من جمال وروعة ـ يقوم ابتداء على قاعدة أدنى وأصغر من القاعدة التي ينبغي أن ينشأ عليها الفن

(١) انظر في شرح مفهوم الإسلام كتاب (هل نحن مسلمون؟).

الإسلامي. . . الكوني الإنساني. . . الشامل المتكامل، الذي يشمل كل الوجود وكل الإنسان.

وسنجد كذلك فناً «محايداً» لا يحمل سمات معينة تقربه من المنهج الإسلامي، ولا يحمل كذلك سمات تصطدم بهذا المنهج وتسير منه في اتجاه مضاد.

وقد يكون في هذه الفنون كذلك لون من الجمال. .

ولكنها لن تكون ـ على وجه التأكيد ـ من روائع الفنون!

فالفن «الكبير» بطبيعته ـ يحمل بالضرورة تصوراً معيناً للكون والحياة والإنسان، وارتباطات بعضها ببعض، وارتباطاتها بالله خالق الجميع، ومن ثم يتحدد مكانه تلقائياً من منهج الفن الإسلامي: إما أن يلتقي معه التقاءً كاملاً أو جزئياً، وإما أن يتعارض معه ويصادمه.

ولذلك لا نحفل كثيراً بهذه الفنون «المحايدة»، وإن كنا كذلك لا نسقطها من الحساب! ونأخذ ـ بعد ـ في ذكر بعض الأمثلة من «بواكير» الأدب الإسلامي تنير الطريق[1]!

محمد قطب



---

(١) منهج الفن الإسلامي، صفحات: ١٨١ ـ ١٨٣.



في الأدب الإسلامي

لا يزال الحديث في الأدب الإسلامي يدور في نطاق محدود، وتتردد أصداؤه في أمداء قريبة! فهو لا يجاوز ـ في الغالب ـ المجلات الإسلامية التي لا يقرؤها ـ في العادة ـ إلا أصحاب الفكر الإسلامي، وهذا الحديث لا يجد في الغالب حماساً وتجاوباً حقيقياً، يرتفع به إلى أن يصبح تياراً دافقاً واعياً. . . له أنصاره الذين ينطلقون به، ويدعون إليه! لا أقول، كما ينبغي أن يكون عليه حال المسلمين، بل أتواضع قليلاً لأقول، كما يفعل أصحاب المبادئ الوضعية فيما يؤمنون به ويدعون إليه. . .

أين تأثير الدعوة إلى الأدب الإسلامي في الجامعات العربية؟

وهل استطاعت أن تخترق جدران أقسام اللغة العربية في هذه الجامعات؟ وإلا فما معنى أن يبقى مفهوم الأدب الإسلامي وميادينه وملامحه. . . غائمة عائمة! بل أكاد أقول منعدمة في أذهان كثير من الأكاديميين المختصين في الأدب العربي؟! بالرغم من مرور سنوات على صدور الدعوة إليه والتبشير به!

لقد صدرت الدعوة أول ما صدرت من قلم سيد قطب في البحث. . . وأصدر كتابه (منهج الفن الإسلامي) الذي يعتبر فاتحة الحديث في الأدب الإسلامي، ويعجبني في هذا المقام ملاحظتان للدكتور عبدالرحمٰن رأفت الباشا أملاهما على طلبته في جامعة الإمام محمد بن سعود بشأن هذا الكتاب:

أولاهما: أن الكتاب توسع في عنوانه وخاصة «في كلمة من غير استشارة للإسلام في قبول هذه الكلمة أوردها، علماً بأنها ذات مدلول واسع يشمل الأدب والموسيقى والرسم والنحت وهو عندما بحث في الكتاب لم يستطع أن يبحث في غير مجال الأدب، فلو كانت التسمية منهج الأدب الإسلامي لكان أحسن».

وثانية الملاحظتين: أن الكتاب أخذ طابعاً دينياً أكثر من أخذه طابعاً أدبياً، «ومع هذا فالكتاب رائع في مجاله، وقد أنار الطريقة أمام الباحثين». وصدر بعد ذلك كتاب الدكتور نجيب الكيلاني (الإسلامية والمذاهب الأدبية) وبعض مقالات له نشرت في كتبه وكذلك نشر الدكتور عماد الدين خليل مقالات في النقد الإسلامي المعاصر ضمنها بعد ذلك في كتابين له.

أقول: بعد هذا الذي كتب، لم يستطع أصحاب الدعوة أن يخترقوا جدران أقسام اللغة العربية في الجامعات العربية، ليفرضوا عليهم مفهومهم أو ليجعلوها تحترمه وتعترف به باستثناء جامعة الإمام محمد بن سعود التي تعتبر رائدة في هذا المجال، وتبعتها من بعد الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وقبل أن تدور الظنون حول ما أزعم! أورد أمثلة دالة موجبة:

• أستاذ جامعي حضر الندوة الأولى للأدب الإسلامي بالهند، علق على فكرتها قائلاً: هذه بدعة سعودية!! وهو يرى ـ كما يرى غيره من المختصين في الأدب العربي ـ أن الأدب الإسلامي أدب فترة لا أدب فكرة.

• أحد الأكاديميين، طرق أذنه مصطلح القصة الإسلامية، فكان رده العفوي: وهل هناك قصة إسلامية وقصة نصرانية؟!

• في حوار لي مع أساتذة في الجامعات... مختصين في الأدب العربي، كنت أخوض معركة لأثبت لهم أن هناك أدباً إسلامياً... ولأشرح لهم مفهوم هذا الأدب، وكان الخندق الذي يعتصمون فيه أن الأدب له قوانينه الخاصة به التي لا يجوز تسليط الدين والفكر عليها!.

إن ما أريده... وما أدعو إليه... ألخصه في النقاط التالية:

١ ـ التحرر في الدعوة إلى الأدب الإسلامي من مرحلة دار الأرقم أو الأذان في الجرة ـ كما هو شائع في ألسنة العامة ـ وذلك بالكتابة في الأدب الإسلامي في كل مجال يفتح سواء في ذلك الصحف اليومية، أو المجلات الأدبية الثقافية، ذلك لفتح الحوار والنقاش مع أصحاب الأفكار المخالفة، لأن الحوار في أمر يفتح الطريق أمامه للذيوع والانتشار.

٢ ـ توجيه العناية إلى الأدب الإسلامي الحديث دراسة ونقداً... في مقالات وكتب وتخصيص مجالات أوسع له ولنقده في المجلات الإسلامية، فهناك أدباء إسلاميون في مختلف ديار الإسلام... لماذا لا يكتب عنهم في المجلات الإسلامية وغيرها؟ أين أساتذة الأدب والنقد من أصحاب الفكر الإسلامي؟ ولماذا يبقى صوت الدكتور عماد الدين الخليل منفرداً في هذا الباب؟

٣ ـ كسر الطوق الإعلامي على النشاطات الأدبية الإسلامية... لقد عقدت الندوة الأولى للأدب الإسلامي في الهند... فماذا كان صداها في الصحف والمجلات ووسائل الإعلام العربية؟! أظن أن الصحف الهندية قد كتبت عنها أضعاف ما كتبته الصحف والمجلات العربية. وعقدت ندوة حول الأدب الإسلامي في الجامعة بالمدينة المنورة، ولم تصاحبها تغطية إعلامية كافية... ولم يكن لها صدى واضح في الحياة الأدبية.

والآن... تعد جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية الرياض، ندوة للأدب الإسلامي... هي الحلقة الثالثة في هذا السبيل، والمؤمل أن يكون لها أثر واضح في مسيرة الأدب، خاصة وقد جعلت أهدافها فيما يلي:

١ ـ تحديد مفهوم الأدب الإسلامي وإبراز ملامحه الأصيلة والدعوة له وتعزيز وجوده، وتمكينه من مواجهة التحديات المعاصرة.

٢ ـ التعرف على سمات الأدب الإسلامي المعاصر في البلاد الإسلامية، وذلك للوقوف على الخصائص المشتركة التي تميز هذا الأدب عن غيره من الاتجاهات والمذاهب الأدبية المعاصرة.

٣ ـ رسم الخطوط العريضة لمذاهب إسلامية في الأدب والنقد ليقف في مواجهة المذاهب الغربية التي غزت أدبنا الحديث، ويضع المعالم والمناهج للأديب المسلم.

٤ ـ تسليح الدعاة إلى الله عز وجل بهذا الأدب لخدمة قضايا الأمة الإسلامية ووضعه في خدمة وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة وتجنيده لتحقيق أهداف التربية والتعليم.

وبعد. . .

فإن تأسيس أي فكرة، أي دعوة، لا بد أن يواجه بعراقيل وصعوبات. . . وعلينا ألا ننسى أن المناهج الأدبية. . . والدراسية التي يقوم عليها التدريس في أكثر الجامعات العربية لم يتلخص بعد مما شابه من عكر الأفكار الاستشراقية التي حاولت وتحاول طمس معالم الشخصية الإسلامية. . . تاريخاً وواقعاً ومستقبلاً. . . أدباً ولغة. . . وقبل ذلك وبعده، عقيدة وفكراً! وهذا الأمر يفرض على أصحاب هذه الدعوة أن يتمسكوا بها. . . لتأصيلها وإرساء دعائمها على أسس ثابتة، والله ولي التوفيق[١].

بقلم: مأمون فريز النجار



---

(١) مجلة الأمة، العدد ٤٨، سبتمبر ١٩٨٤.



أولى خصائص الأدب الإسلامي

لعله من أولى سمات الأدب الإسلامي الذي يدعو الداعون الناس إليه أنه «أدب ملتزم»، وكل ما سوى هذه السمة، فهو مشتق منها، متفرع عليها... والالتزام المعني ههنا يختلف عن ذلك الذي عرفته المذاهب الأدبية الأوروبية خصوصاً «الواقعية الاشتراكية» والوجودية...

فالأولى ـ هي أول من استخدم هذا المصطلح ـ تريد به: أن يلتزم الأديب في عمله الأدبي خطاً معيناً، فيسخره ويقصره على «خدمة قضايا الجماهير وحل مشاكلهم» على الطريق التي تريدها وترسمها الماركسية فلا يكتب ولا ينتج ما سواها.

أما **الثانية** ـ الوجودية ـ فهي تنادي بالتزام الأديب ـ في النثر وحده دون الشعر ـ بقضايا الحرية بحسب المفهوم الوجودي وحده، أما الالتزام الذي نريده هنا، فهو الالتزام اللغوي فحسب، لذلك اصطلح عليه ذانك المذهبان وغيرهما، إذ يعني الالتزام في اللغة الاعتناق من ألزمته الشيء فطاوع فالتزمه، واعتنقه.

ربما أن الإنسان المسلم هو إنسان عقائدي أخلاقي بالدرجة الأولى وبما أن المجتمع يقوم على العقيدة والأخلاق أولاً وقبل كل شيء، فقد صار من البديهي اللازم أن يراعي الأديب المسلم هذه الحقيقة الأولية والأساسية، ألا وهي (العقيدة والأخلاق)، وأن يضع في اعتباره في كل آن وحين أنه أديب مسلم حقيقي من جانب، وأنه يعيش في مجتمع مسلم من جانب آخر، فعليه أن يراعي القيم الأساسية في هذا المجتمع «لأن الفنان الحقيقي هو ذلك الذي،

يمثل بفنه مثله العليا. . . وينظر دائماً إلى عالمه بالمقارنة مع مثله وقيمه ومبادئه»، فما يصح ـ على هذا ـ أن يخرج على القيم العليا التي آمن بها، أو أن يجرحها ويؤذيها، فيدعو إلى الزيغ والإلحاد والكفران. . . فيحسنها، أو ينفر من الاستقامة والنظافة والطهر وسبيل الرشاد وعليه ـ بالتالي ـ أن يبرز هذه القيم العقدية والخلقية في نتاجه الفني والأدبي، فيحبب الإيمان ويدعو إلى صحة المعتقد، ووجوب سريان هذه القيم في مسربات الحياة وتلافيفها، فهذه هي القيم التي يراد للأديب المسلم أن يلتزم بها، ويثبت دعاماتها ويرفع راياتها فيدفع بأدبه إلى الفضيلة وأخواتها، لا إلى الرذيلة وبناتها. . .

حين يراد ذلك، فالمتوقع أن يفعله بأسلوب الأديب الفنان وبإيحاءاته، لا بتقريرية العالم ولا بطريقة الواعظ، ولا خطابية السياسي أو المصلح الاجتماعي. . . فلأولئك طرائفهم وأساليبهم التي توصلهم إلى أهدافهم وغاياتهم، وهم، أدرى بها وأقدر، فإذا استخدمها الأديب أخفق وشقِي بها وأشقى، ومن هنا. . . فإن الأدب ـ إسلامياً ـ يعرض دائماً على هذين المقياسين والمبدأين، ليحكم له أو عليه، فيعطي الدرجة المناسبة له بمقدار قربه أو بعده منها توافقه أو تخالفه معها.

قضايا يجب تجليتها:

في قضية الالتزام هذه تبقى بعض القضايا لا بد من توضيحها وتجليتها، لتكون على بينة أمام هذا الطوفان الهائج من التشكيك والإرباك الذي يلقاه شباب الإسلام ودعاته، فهم إن التزموا بالإسلام ومقتضياته، وسعوا إلى وضعه موضع التطبيق والتنفيذ في أي جزئية من جزئيات الحياة، وصفوا بالتطرف والمغالاة ـ أو على الأقل بالجمود ـ وإن هم تخففوا شيئاً يسيراً ولم يلتزموا التزاماً كاملاً وصفوا بأنهم منافقون لا يطبقون الإسلام في أنفسهم، فهم يقولون ما لا يفعلون من هذه الإرباكات والتشكيكات هذه المسألة التي نحن بصددها: إن دعا المسلمون إليها والتزموا بها أدبياً، قيل: متعسفون متطرفون وإن سكنوا عنها كانت الأخرى. . . إن القيم هي أعظم ما في المجتمع العقائدي بل هي أجمل ما في الحياة كلها، والوجود

جميعه، . . . فكيف يسمح بحال من الأحوال لبعض المنحرفين عقائدياً، المشوهين أخلاقياً أن يخربوها ويقبحوها بما يتوهمونه توهماً ويتخيلونه تخيلاً كتخيل المخمورين ومدمني المخدرات، فيطلقون عليها اسم «القيم الجمالية» و«الفن للفن»، إنهم يريدوننا أن ندع لهم الحبل على الغارب، ونتركهم طلقاء كالثيران الهائجة «في مستودعات الخزف» يحطمون كل تحفة جميلة، وكل شيء رائع، بل أندر شيء على الطلاق، فلا نؤاخذهم ولا نضرب على أيديهم، أو نأخذهم بقيد وهم يقومون بعملية التخريب هذه. . . وإذا حدث شيء من هذه المؤاخذة والتذكير بأخذ قدر من الالتزام، راحوا يحتجون متراطنين بألفاظ ومصطلحات هم صناعها، منها:

«كيف تضعون للفن قيوداً من خارج الفن نفسه»، «ولا تقحموا الأخلاق في قضايا الفن والجمال»، «الشعر بمعزل عن الدين والأخلاق» حتى لكان الجمال الذي يأتي به المخمورون والشائهون أخلاقياً ـ بدءاً بأبي النواس وانتهاءاً بأصغر مخمور بوهيمي عصري ـ حتى لكأن الجمال الذي به هؤلاء هو أكثر روعة وتزيناً للحياة من جمال الخلق والعقيدة وأعظم بنائية لها، وفي مقابل هذا علينا أن نضحي بجمال قيمنا التي مَنَّ بها علينا ربنا، فأعطيناه على ذلك عهودنا ومواثيقنا، من أجل سماديرهم وتهيؤاتهم.

يرفضون الالتزام:

إنهم يرفضون بشدة أن يكون الإسلام وجهة نظر خاصة بالأدب، وبالتالي يرفضون في إباء أيضاً أن يكون هناك التزام عقدي وخلقي ويذهبون يلتمسون الحجج والبراهين من الأدباء والنقاد الغربيين، وأحياناً العرب قدماء ومعاصرين فراحوا يتلفظون كلمة من هناك وعبارة من هنا، ليلفقوا في النهاية كلاماً سمجاً ليقنعوا الناس بأنه لا التزام أدبياً في الإسلام وأن لا وجهة نظر للإسلام في الأدب. والنتيجة: أنه ليس هناك شيء وما اصطدموا بشيء واضح مبين يدحض باطلهم ـ والشمس بالتطيين لا تغطى ـ حاولوا إخفاءه ومواراته عن أعين الناظرين:

أن يعلموا الخير يخفوه وإن عملوا   شراً أذاعوا وإن لم يعلموا بهتوا

إن الحكم بأن للإسلام وجهة نظر معينة في قضية من القضايا تكون ملزمة لمن آمن بها، لا يمكن أن يبحث عنه إلا في الإسلام نفسه، نصوصه، وروحه وبأسلوبه هو ولا يبحث عن هذا الحكم خارجه بأسلوب الآخرين، فإذا ما أردنا أن نثبت للإسلام مفهوماً، وأن له وجهة نظر وتصوراً فيما ينتجه الأدباء فلا يصلح بحال أن ننتظر حتى توافق النصرانية واليهودية والعقلانية وجنودها السريون والعلنيون، بأن له أدباً خاصاً به، ومن ثم يجوز للإسلام ـ تبعاً لها ـ أن يتخذ أدباً له خصائص وسمات معينة متلائمة معه ولا يمكن ـ كذلك ـ أن ننتظر حتى نستشير الأدباء والنقاد في مختلف الأمكنة والأعصار، ونستطلع رأيهم، فيعطونا «إذناً» بما إذا كان يصح لنا ـ المسلمين ـ أن ننظر في الأدب شعره ونثره من خلال وجهة نظر الإسلام، أو أن نجعل ذلك بمعزل عن الدنيا والأخلاق. . . كلا . . . إننا إذا أردنا أن نحكم بأن للإسلام وجهة نظر في الأعمال الأدبية ينبغي أن نلتزم بها، فعلينا أن ننظر في الإسلام ذاته، فإذا وجدناه يدعو إلى ذلك، أخذناه «بقوة». . . ومضينا في سبيلنا غير مبالين بقول أحد، أو باعتراضه، حتى ولو كان قاضياً فاضلاً، عاش في بيئة تختلف فيها جماعة من المسلمين أخلاقياً فزل لسانه وقال ـ أظن ـ من الالتزام: الشعر بمعزل عن الدين.

إن الذين يدعوننا إلى عدم الالتزام أدبياً ـ وبالتالي يقولون: إن لا أدب إسلامياً ـ إنهم يريدوننا أن نصدقهم ونكذب ـ حاشانا ـ ربنا الذي يصنف الأدباء إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما: ملتزمين وغير ملتزمين فيقول: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[1].

ومثل ذلك فعل الرسول ﷺ، ومثل ذلك فعل صحابته، وتبعاً لهذا الالتزام رأينا كيف حوسب جماعة من الشعراء الذين لم يلتزموا بهذين المبدأين، فعوقبوا بدءاً بالحطيئة والزبرقان بن بدر وضابئ. . . ومروراً

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

ببشار بن برد حين اضطر الخليفة إلى ذلك تحت ضغط الرأي العام المسلم الممثل في شخص علمائه. ونتيجة لهذا الالتزام العقيدي والخلقي في صدر الإسلام كان أن رأينا كثيراً من أبواب الشعر وفنونه التي نشأ عليها الشعراء وتوارثوها عن أسلافهم، وقد أوصدت وهجرها الشعراء، كالخمر والهجاء والفخر الكاذب والفاحش والغزل. . . إلخ.

كما كانوا حذرين جداً في ما يقولونه في الفنون التي تناولوها وما كان كله تخوفاً وما كان إلا التزاماً بقيم المجتمع الجديد، بل أن بعضهم هجر القول في الشعر كله تخوفاً وتحرجاً من أن لا يقدر شيء من الالتزام عقدياً وخلقياً فيما ينتج في كلمات.

إن على الذين يدعوننا أن يحذفوا تلك الآيات من القرآن الكريم ـ إن قدروا ـ أو ليقنعوننا بأنها ليست منه، وأن عليهم أن يجدوا لها تفسيراً غير الذي فهمه المسلمون منذ كان هناك قرآن، وكان هناك مسلمون يفهمونه ثم إن هؤلاء الذين يجندون أنفسهم ويجشدون طاقاتهم يدعوننا أناء الليل وأطراف النهار ألاّ نلتزم. . . ولا نحشر الدين والأخلاق في الأديب ونجعله بمعزل عنهما على وزن الدين بمعزل من السياسة.

إن عليهم أن يضمنوا لنا عدم تدخل «العصابات» من أدباء اليوم وتحرشها فيما يمس الدين والأخلاق بسوء، فهم ما فتئوا يأتوننا كل يوم يقصموا الظهور في الإساءة البالغة إليها شعراً ونثراً «تقديماً» عمودياً وحراً حتى لكأنهم ليس لهم من عمل إلا التحرش بالناس وإثارة مشاعرهم واستفزازها بتجريح مقدساتهم ورميها بكل نقيصة لو أنهم كانوا ضمنوا لنا حسن أدب هؤلاء وعدم خروجهم عن الحد الأدنى من الذوق واللياقة ضمنا لهم من جانبنا أن لا يعترض لهم أحد، أما السكوت قبل هذا فلا[1].

بقلم: د. صالح آدم بيلو

---

(١) مجلة الأمة، العدد ٢٥، ص١٧ ـ ١٨، محرم ١٤٠٣هـ ـ نوفمبر ١٩٨٢.



من قضايا الأدب الإسلامي

الأدب مرآة الحياة

يراد بهذا أن الأدب هو التعبير الصادق الرائع الجميل، والتصوير النابض الحي للمجتمع، وأنه هو المرآة التي ينعكس عليها وجه الحياة وما يجري في جنباتها وأعطافها، فيعطيها صورة مصغرة، ولكنها صادقة ورائعة تأخذ بالقلوب والألباب فتظل محفورة على خد الزمان؟ يقرؤها أبناؤه جيلاً بعد جيل، ويتفرسون فيها متى شاؤوا في سهولة ويسر، وفي تمتع وإعجاب.

وبتعبير آخر، الأدب مرآة حياة، يعني: أننا إذا أردنا أن نتعرف على حياة أمة ما من الأمم، أو مجتمع ما من المجتمعات في عصر من العصور، فالأدب الذي أنتجته هذه الأمة أو الفئة في عصرها ذاك، هو أحد المصادر والمراجع الهامة التي ينبغي أن تؤخذ في عين الاعتبار، ولا بد من الرجوع إليها، واستشارتها لتمدنا بصورة حياة الأمة في كل جوانبها، الاجتماعية والأخلاقية والثقافية والسياسية... إلخ. وما يصح لطالب يود دراسة أمة أن يهمل هذا المرجع والمصدر الحي، والصورة الواضحة الملامح والقسمات... لأنه حين يهتم بهذا المصدر سيوفر على نفسه كثيراً من العناء والجهد الضائع، إضافة إلى ما يجده من المتعة الروحية والفنية التي يمتع بها نفسه في الوقت ذاته.

نعم... الأدب مرآة الحياة... ما في ذلك شك!...

ولكن... المسألة ليست مسلمة على إطلاقها وليست صادقة في كل حين وإن أخذها كقضية مسلم بها قد يؤدي إلى نتايج غير صحيحة، بل قد ينقلب إلى شر مستطير إن لم يؤخذ في حرص وحذر شديدين!

ولنصل إلى نتائج صحيحة يجب أن نضع في اعتبارنا دائماً الحقائق الآتية:

أولاً: علينا أن نتأكد ونستوثق من أن هذا الأدب منتسب حقاً وصدقاً إلى تلك الأمة في تلك الفترة من الزمان، وأنه من جانب آخر أدب صادق وأصيل غير مزور ولا مزيف، ولا مصنوع صناعة، ولكنه صادر عن أحاسيس صادقة ليعطينا نتائج صادقة كذلك.

ثانياً: علينا أن نستوثق من أن جميع هذا الدرس الذي نريد أن نستخلص منه تلك النتيجة، قد سجل تسجيلاً شاملاً وكاملاً... بمعنى أن ما دوِّن من أدب هذه الأمة في تلك المرحلة من مراحلها قد دوِّن بأمانة وشمول، حيث لم يهمل جانب ويكتب جانب أو دوِّن فئة من الأدباء من مشرب معين وروِّج لها، وأهملت فئات، من مشارب واتجاهات أخرى وعتم أدبها تعتيماً!...

ثالثاً: عندما تجيء مرحلة الدراسة والنظر في هذا الذي سجِّل ودوِّن لنستخلص منه صورة العصر والأمة، ينبغي أن يكون النظر متكاملاً وشاملاً لكل الجوانب ـ أيضاً ـ فلا تقتصر على أخذ نماذج من أدباء يمثلون مشرباً أو اتجاهاً معيناً، أو فناً بذاته، أو موضوعات دون غيرها، ونهمل الأدباء الآخرين والفنون والموضوعات والأدوات الأخرى، كأن نتناول الأدب الذي يركز على تصوير حياة اللهو والعبث والتبطل ونغض الطرف غضاً عن الألوان الأخرى من الفنون والموضوعات، ثم نروح نصدر الأحكام الجائرة والظالمة فنقول: إن حياة هذا المجتمع في هذه الفترة كانت حياة لهو وعبث... لأن مرآة العصر قالت كذلك!!...

إن الاكتفاء بعينات محدودة من الأدباء من مشرب معين، وتخير نماذج

بعينها من ألوان الأدب وموضوعاته، مهما كان منتجوه عباقرة وممتازين، ومهما كانوا قادرين على التعبير والتصوير لما تقع عليه حواسهم من أدب رائع جميل، فإن ذلك لن يعطينا الحق في تعميم الحكم لنقول: إن أدبهم كان مرآة حياة عصرهم ومجتمعهم...

إنه مهما كان أدبهم رائعاً وصادقاً، فلن يكون بحال من الأحوال إلا مرآة أنفسهم هم، وعلى أحسن الفروض مرآة لقطاع صغير من مجتمعهم وعصرهم أو لشريحة من شرائحهما!

إنه نتيجة لمثل هذا التعميم الخاطئ والتطبيق الجائر لقاعدة «الأدب مرآة الحياة...» فقد ظلمت مجتمعات وعصور بكاملها في تاريخنا العربي الإسلامي، ورزئت أفدح الرزء، أن عمد بعض الدارسين إلى انتقاء ألوان وموضوعات معينة لأدباء ما كانوا يمثلون في تلك المجتمعات إلا قطاعاً صغيراً وشاذاً، فاعتبروا أدبهم مرآة حياة لعصرهم كله ومجتمعهم جميعه، فكان أن وصم العصر كله ـ جوراً وظلماً ـ بأنه عصر فساد وانحراف... وفي عصرنا الحاضر ويومنا الماثل نرى أنواعاً من الأدب وفنونه فيها نبو عن قيم الأمة وخروج عليها لقلة شاذة من الكاتبين بالقياس إلى الكثرة الكاثرة.

نخاف إن نحن استخدمنا مصطلح «الأدب مرآة الحياة...» بغير شروطه الخاصة التي أشرنا إليها آنفاً... نخاف ونرتجف أن تأتي أجيال من بعدنا فنستنتج من هذا اللون من أدب القلة الشاذة أنه مرآة لحياة عصرنا ومجتمعاتنا...

فَهَلّا كُنّا على حرص وحذر في استخدامنا للمصطلح إلا بشروطه الخاصة تلك؟!... ذلك ما نؤمل[1]!

د. صالح آدم بيلو



---

(١) مجلة الأمة، العدد ٥٠، نوفمبر ١٩٨٤م.



من قضايا الأدب الإسلامي

الفن قيد

يشيع عند بعض الناس أن الأديب الفنان لا يستطيع أن يبدع إبداعه الحق ويتجلى تجليه الواسع المدى، إلا إذا رفعت عنه الحواجز والسدود والقيود حتى ولو كانت قيوداً فنية تقتضيها طبيعة فنه، وأزيلت من قدامه كل عوامل الحجز والحظر عن كل شيء... أي بدعوى أن هناك مناطق محرمة لا يصح أن يرتادها، لأنها تمثل قيماً دينية أو أخلاقية أو اجتماعية!...

والأديب الفنان لا يستطيع ـ بزعمهم ـ أن يعطي أروع عطائه، ويجود بأجمل تجلياته ورفرفاته إلا حين يكتسح كل هذه العوائق والحواجز اكتساحاً، ويخترمها اختراماً لا يبالي بشيء منها!...

ومن هنا ـ راحوا أيضاً ـ يقولون: إن القصيدة المعروفة عربياً هي قيد شديد الوطأة، أليم الإسار، ضاغط على الأديب المعاصر، غير صالح لاستيعاب أفكاره ومشاعره وأحاسيسه، يكبح انسيابه وتدفق ينابيعه، لهذا ينبغي تجاوزها، وتعدي القيود الآسرة التي تفرضها!...

وواضح أن المسألة بهذا التصوير، فيها شيء كثير من الغلط والمغالطة... فهي:

أولاً: تعني أن الحياة لا تجمل ولا يحلو طعمها ويلذ إلا حين تباح على إطلاقها، فليترك الأديب يرتع فيها كيفما شاء دون تمييز بين طيب

وخبيث، وجيد ووخيم! وهو بارتياده لكل هذه الأودية سيمتعنا ويشركنا معه فيما يجد ويلقى!...

وهذا غير صحيح، إذ كيف تستقيم حياة مبذولة بهذه الصورة، تعمرها الفوضى ولا يعرف فيها الناس ولا يدرون قبيلاً من دبير!...

ثانياً: إن الزعم بأن الأديب ـ وأي فنان سواه ـ لا ينتج بسخاء ما لم ترفع عنه كل القيود، فنية وغير فنية، وإلا شاه جمال الفن، فتلك مغالطة كبيرة...

ونحن مع إيماننا بأن الأديب يجب أن يكون حراً طليقاً، إلا أنه لا بد من أن تكون هناك مناطق تحريم، ومناطق إباحة... ثم نتساءل بدورنا: كيف يكون وضع الأطر والحدود المناسبة في الأدب العربي قيداً معوقاً وبغيضاً، في الوقت الذي نعلم فيه علم اليقين أن الفن في ذاته قيد... وأنه لا يكون فن ما لم تكن هناك أطر فضفاضة ترعى، وضوابط وحدود تحمي «الفن» من أن تنتهك حرماته، فيختلط الفن بغير الفن، والادعاء والشعبذة بالصدق والأصالة، فلا ضوابط تميز وتفرق بين هذا وذاك!...

الفن هو الاقتدار على الضبط، والبراعة في إحسان التحرك، وإجادة التصرف والحركة في أضيق المساحات والمجالات، وأدق الأطر دون المساس بها، أو خدشها وتشويهها أو المروق منها.

والاقتدار على الحركة داخل هذا الإطار الضيق المحدود هو وحده المقياس أو المعيار الذي يفرق بين الصادق والدعيّ، وبين الأصيل المتمكن والدخيل المتطفل!

ولنضرب في ذلكم الأمثال:

* هل أبصرت ـ يوماً ـ قائد السيارة الغر غير المجرب يرى الأرض الرحيبة والفضاء الفسيح أضيق عليه من سم الخياط؟ وحين يجيد فن القيادة يوماً بعد يوم يمتلك زمام الأمر، فينسرب في المكان الضيق كأنه الساحر العجيب.

في أي حالتيه هو فنان، وفي أيهما هو غير ناجح؟!

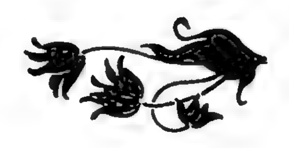
* أرأيت - عمرك - أن الطفل الذي لم تنم قدراته، أو لم تنم مهاراته، تعطيه الصفحة الكاملة ليرسم فيها شجرة فيحتج بصغر المساحة التي لا تتسع لرسم شجرة... وتعطي عشر معاشرها لفنان مقتدر، فيعطيك فيها عالماً متكاملاً يضج بالحياة، وينضح بالفتنة والجمال!...

أي هذين هو الفنان؟!

تماماً... هذا الأمر بالنسبة للأديب الذي يراعي قيم مجتمعه العقدية والخلقية والاجتماعية، فهو لا يجرحها أو يشوهها ولا يصيبها بسوء، فإذا هو أبدع وأجاد دون المساس بهذه القيم وتشويهها كان هو الفنان الحق، والأديب المبدع، ومن هنا قالوا: «الفنان الحقيقي هو ذلك الذي يمثل بفنه مثله العليا... وينظر دائماً إلى عالمه بالمقارنة مع مثاله وقيمه ومبادئه».

وكذلك الأديب الحق، والشاعر المقتدر هو ذلك الذي يبلغ أهدافه، ولا يضيق بالقيد الفني في القصيدة بزعمها عاجزة - أو معجزة له - عن أن تصير وعاء يستوعب أفكاره ومشاعره التي يحسها في داخل نفسه[١].

بقلم الدكتور: صالح آدم بيلو



(١) مجلة الأمة، العدد التاسع والأربعون، السنة الخامسة، محرم ١٤٠٥هـ - تشرين الأول، أكتوبر ١٩٨٤م.



الأدب الإسلامي ومصادر القوة الصامدة

الأديب المسلم الملتزم، مطالب بفتح النوافذ على الأخوة الذين يشاركوننا في المعاناة والجهاد والمصير، كما هو مطالب بضرب العنصرية والإقليمية والشعوبية، والتي لا تثمر إلا الفرقة والتمزق والجفاء.

مما لا شك فيه، أن القوة ينبوع من ينابيع التعبير والجمال والتأثير، لكن أية قوة تلك التي تستحوذ على الألباب والمشاعر، وتحظى بالتقدير والتبجيل؟! فالقوي الذي يحطم قواعد الظلم والفساد والرذيلة، يختلف تمام الاختلاف عن القوى الذي يقطع الطريق، ويسلب الأبرياء حقوقهم وأموالهم وأعراضهم، ويسحق دعاة الحب والخير، والحرية، وشتان بين هذين الأنموذجين، ومن هنا كانت دعوة القرآن الكريم: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾[1]، فتوظيف القوة يكون لمهمة مقدسة، لتدمير جموع الشر والفساد والانحراف وأعداء الله هم جنود الشيطان وأحباؤه، يجابهون كل فضيلة، وينتصرون لأهوائهم وقيمهم التي تلفعت بالفساد والمنفعة العاجلة.

وقد يتساءل البعض: ما الذي نعنيه «بالقوة الصامدة»؟

لقد حاول الأستاذ عباس العقاد ـ رحمه الله ـ في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) أن يفسر سر بقاء الرسالة الإسلامية وخلودها وهيمنتها، واتساع رقعتها على توالي الأزمان والأحقاب، فعزا ذلك إلى «القوة الغالبة»

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

و«القوة الصامدة» وأوضح أنه يقصد بالقوة الغالبة، تلك القوة التي تميزت بها عصور الإسلام الغازية الفاتحة، حيث تتفوق جيوشهم عسكرياً ومعنوياً وحضارياً، مثال ذلك ما حدث يوم أن زحفت طلائع الإسلام لتحرر الشعوب المستعبدة من فارس والروم، ثم انطلاقهم شرقاً وغرباً، رافعين راية الحق والقوة، ثم انتقل رحمه الله إلى تفسير «القوة الصامدة» وأوضح أنها تلك القوة الكامنة في الإسلام[1]، على الرغم من تدني إمكاناته المادية والعسكرية، بل وفي الأوقات التي استطاع الأعداء أن يغزوا ديار الإسلام ويستعمروها، وينشروا فيها الانحلال والانحراف والاستغلال، وضرب مثلاً لذلك بقيام أكبر بلدين إسلاميين في العصر الحديث هما أندونيسيا والباكستان، في الوقت الذي كانت زحوف المستعمرين ـ عسكرياً وفكرياً ـ تتغلغل في أعماق الأمة الإسلامية في خبث... ودهاء... ومن ثم كان التفسير لهذه الظاهرة الفريدة الغريبة هو احتواء الإسلام ـ حتى في أوقات تخلف المسلمين وضعفهم ـ على عناصر قوة قاهرة، قادرة أن تفعل فعلها في كل حين، ولا تسري عليها قوانين التخلف أو التقهقر، ولا يحجبها طغيان الخصوم، أو دسائس الحاقدين..[2].

تلك هي «القوة الصامدة» التي لم تزعزعها عواصف الغدر والإرهاب، ولم تنل منها مخططات الفناء التي رسمتها ودبرتها القوى العالمية المعادية الشريرة، ونحن هنا لا ننكر أن المسلمين قد خسروا بعض المعارك، واقتنصت بعض أراضيهم، لكن المحصلة النهائية، تعني أن الرقعة الكلية تتسع، وأن الذين يدخلون في دين الله يتزايدون حتى في معاقل المدنية الحديثة في الشرق والغرب.

---

(١) يعني عقيدة الإسلام وشرائعه ومفاهيمه، وقيمه، وثقافته المتمثلة في نصوص القرآن والسنة ذاتها. فتلك هي قوة الإسلام التي لا تغلب ولا تقهر أبد الآبدين لكونها سليمة من النقائص، ولأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بما هو أصح، وأكمل، وأحسن، وأجمل من الإسلام ـ القرآن والسنة ـ لما وسعهم ذلك.

(٢) لأنها قوة ذاتية متمثلة في قيم القرآن والسنة ذاتها، بربانيتها وإنسانيتها، وفطريتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان وعصر وبيئة، وذلك ما جعلها قادرة على تجاوز كل العقبات والتغلب عليها.

ما المطلوب من الأديب المسلم؟

والأديب المسلم مطالب بأن يعي هذه الحقائق جيداً، ويحاول، الغوص وراء أسرارها ورموزها، ويبحث عن النماذج الإنسانية، والتحركات الجماعية التي تؤكدها وتبلورها، وتنطلق في موكبها التاريخي الدائب في مسيرته نحو الخير والكمال والجمال، وإذا ما حاول الأديب المسلم أن يتعمق تلك القضية الهامة والأساسية، فإنه سيجدها تكمن في عديد من القيم والسلوك، وسيرى أن المسلم الحق قوي... نعم قوي لأن منهاج حياته منضبط بوضوء وصلاة وصوم، وبصدق وعدالة وتعاون مع الآخرين وبواجبات كثيرة متنوعة نحو نفسه ونحو الآخرين، وكذلك نحو المجتمع الذي يعيش فيه، إنه يعرف معنى التوحيد والاستشهاد والزكاة والحلال والحرام، والدنيا والآخرة، والصبر والابتلاء، ويعيش دائماً على أمل ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

وتبدو مظاهر القوة الصامدة، في أنماطه السلوكية المتنوعة، فهو قوي أمام إغراء المال، فلا يسرق أو يختلس، وهو قوي أمام فتنة الشهوة وتحريض الجنس، فلا يقع في الحرام، أو ينزلق إلى الرذيلة، وهو صامد أمام بطش السلطة وإرهابها فلا يحني رأسه أمام الفساد والظلم وشراء الذمم، وهو قوي في فقره حيث يخرج إلى الحياة متحملاً أعباءها ومشاقها في طلب الرزق الحلال، هذه النماذج الإسلامية الحية الصامدة نجدها في كل زمان ومكان، برغم تفشي الانحلال والزيف والخرق في حياتنا المعاصرة، نستطيع أن نقول بأسلوب آخر: إن هذا السلوك هو الذي بلور «القدوة الحسنة»، فكانت أقوى جيش في أوقات الضعف والخمول فاستطاع ذلك الجيش الخفي، أن ينشر الإسلام في ربوع آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا وكندا وغيرها، وأن يمهد الطريق لبزوغ نجم أكبر بلدين إسلاميين في العصر الحديث هما أندونيسيا وباكستان، وعلى الرغم من الضربات التي تكال للأمة الإسلامية، إلا أن صوت الإسلام لم يزل عالياً، وراياته تخفق في كل مكان، وقوافل الأبطال

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

والشهداء تدق بأقدامها القوية أرض التعاسة والظلم، ببذله النفس والنفيس من أجل إحقاق الحق، وتحرير الإنسان، ونشر العدل والصدق والخير. . .

حقول الإبداع والعطاء:

إن أمام الأدب الإسلامي حقولاً خصبة للإبداع والعطاء، وخاصة في مجال القوة الذاتية التي تحفظ الإسلام وقيمه في نفوس الشرفاء والمؤمنين جيلاً بعد جيل، ومن أعظم الأشياء أن ديننا دين الأمل، حيث لا تموت الأماني، ولا يتطرق اليأس إلى النفوس في أحلك الأوقات وأحرجها، ولا يقع المسلم فريسة الخوف إذا ما قارن قوة أعدائه المادية بقوته، المهم أن يمضي في مسيرته الخالدة، مهما كانت التضحيات (إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي)[1]، وهذا يجعل مقاييس النصر والهزيمة، ومقاييس القوة والضعف تختلف وجهة نظر المسلم إزاءها عن وجهه نظر الآخرين، وذلك واقع إسلامي معيش، يختلف عن الواقع الزائف الذي يسقط بين براثنه الحمقى من الأدباء والشعراء والفنانين، وواقع المسلم يمتد أحقاباً طويلة، ويتمثل في تجارب عديدة في الماضي والحاضر، ويستشرف آفاق المستقبل الذي يأتي كنتاج طبيعي متطور ومنطقي للتصور الإسلامي الشامل.

إننا لا نطلب من الأديب المسلم أن يغفل «المحليات»، لأنها جزء من كل، ولأنها جزء من تجاربه وحياته، ولكننا نلفت النظر إلى الرقعة المتسعة لعالمنا الإسلامي الكبير، الذي يحفل بالعديد من القضايا، ويخوض المعارك المريرة في كل موقع ونذكر بالعروة الوثقى التي تجمع تلك الشعوب المسلمة، وتربطها بحبل الله المتين، ومن هنا كانت أهمية فتح النوافذ على الأخوة الذين يشاركوننا في العناء والجهاد والمصير، ولذلك فإن من واجبنا ضرب العنصرية والإقليمية والشعوبية، تلك التي لا تثمر إلا الفرقة والتمزق

(١) جزء من مناجاة الرسول ﷺ لربه سبحانه وتعالى بعد ما لحقه من أذى المشركين في الطائف. بدايتها: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس. . .**» إلى قوله: «**إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي**». السيرة النبوية لابن هشام، ق١، ص٤٢٠.

والجفاء، ولن يستطيع القيام بهذا الدور البناء إلا الفنان المسلم الملتزم.

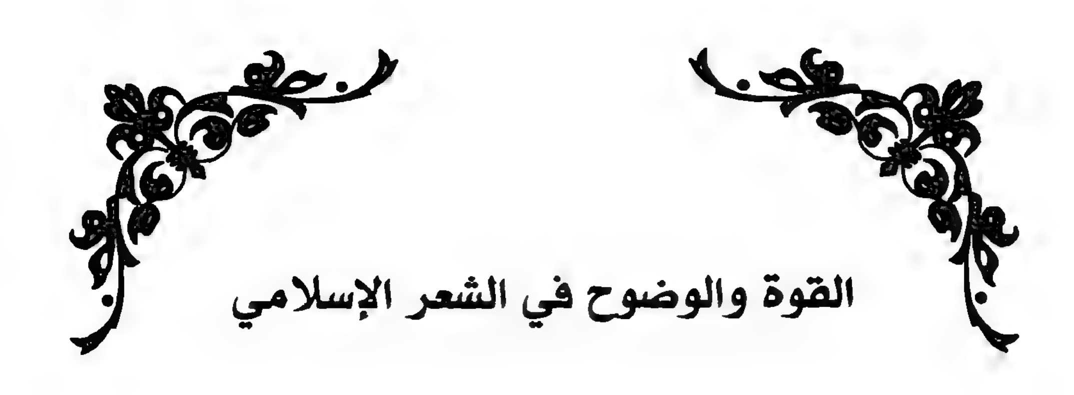
لقد حفلت كتب الأدباء الإسلاميين بالكثير عن «القوة الغالبة» في الإسلام، لكنها لم تحوِ إلا على النزر اليسير من «القوة الصامدة»، ظناً منهم أن عصور الاستسلام والضعف والهوان، لا تستحق سوى البكاء والرثاء والحسرة، والواقع أن ثلة رايات «القوة الصامدة» هم الحراس الحقيقيون على ثغور الإسلام وحرماته، يقضون ليل النكبة الطويل، وهم يعملون ويجاهدون ويفكرون، ويزحفون تحت جنح الظلام، متسلحين بقوة الوعي والأمل وينشرون الكلمات المضيئة، ويضربون المثل الأعلى، معبرين عن القدوة الحسنة، إنهم تجسيد للقوة المعنوية والفكرية، ولهذا استعصى على الأعداء قهرهم أو القضاء عليهم، وهل استطاعت قوة في الأرض مهما عظمت أن تطفئ نور الشمس، أو تحول اتجاه الرياح والعواصف أو تمنع هطول المطر؟ القوة الصامدة فطرة إسلامية أزلية لا تزول ولا تحول... والأدباء الإسلاميون يجب أن يكونوا على يقين تام بذلك، ورسوخ هذا اليقين سوف يحرك أقلام الشعراء والكتاب إلى الإبداع والابتكار، ومن ثم تعطى الفرصة من جديد «للقوة الغالبة» أن تبرز وتهيمن، وتؤدي دورها الفعال في إعادة الركب التائه إلى الجادة وتلزمه بالمنهج، وتغير وجه الحياة الذي لطخته المباذل والمهازل، وانحرفت به الأوهام أو التخيلات المريضة... والأديب المسلم يجب أن يتبين طريقه عبر تلك الترهات الضاربة التي أورثت حياتنا العتمة والتخبط، ولا يمكن أن نزيح ذلك الركام الهائل من العصارات المعتلة إلا بالوعي والالتزام. فهناك العديد من القضايا الحاسمة التي تحتاج إلى مواقف محددة وإلى مقاييس إسلامية صحيحة، وهيهات أن نبلغ غاية، أو نحقق هدفاً، إلا من خلال هذه القنوات الطبيعية، ولذا فإن العبء كبير، والجهد الذي نتطلبه ضخم، «والعظائم ـ كما يقولون ـ كفؤها العظماء» وأدبنا الإسلامي لا يستطيع أن يؤدي رسالته في أبراج عاجية، ولا بد من التزامه بالوصول إلى القاعدة والقمة معاً، ولن يتم ذلك إلا إذا أحسن استخدام الوسائل الفعالة أدبياً شكلاً ومضموناً، حتى نحرك العقل والوجدان معاً، وذلك بداية التأثير والتغيير الحقيقيين...

رصيد الأديب المسلم...

إن رصيد الأديب المسلم ـ قديماً وحديثاً، محلياً وعالمياً ـ رصيد هائل، لكنه أشبه «بالمادة الخام» يحتاج إلى الأيدي الماهرة التي تدرك قيمتها، وتحسن تشكيلها وتجيد توظيفها لخدمة الغاية النبيلة التي رسمتها لنا يد القدرة الإلهية، وهي في الواقع رسالة مقدسة، ومسيرة مباركة، لا يصح أن نبخل عليها بالجهد والعرق، والنفس والنفيس، الأديب المسلم مسافر دائماً. . . إنه يقصد أرضاً جديدة، مترعة بالآمال وينشد فيها «المدينة الفاضلة» حيث الحب والإخاء، وحيث الخير والصفاء والعدل والفضيلة، ذلك حلم المتعبين المكدودين والصابرين، الذي طال بهم العسف وأضنتهم المظالم، وأرهقهم الحرمان والذل، ولا شك أن الصمت ـ أو التكاسل ـ جريمة لا تغتفر، عندئذ نستطيع أن نقول: إن الأديب المسلم قادر على ري الظامئين وسد جوعة الجائعين، وأن حداءه، يبعث القوة والأمل والانتعاش في قلوب السائرين على الدرب الطويل، حيث القيظ الحارق، والعواصف الرعناء، والأشواك المتناثرة هنا وهناك. القوة الصامدة إذاً هي سر بقاء الإسلام والمسلمين فلنرفع راياتها خفاقة ولنجعلها شعلة تضيء ظلمات المعارك الطاحنة التي كتب الله علينا أن نخوضها عبر العصور والأجيال، وعلى الأدباء الإسلاميين الحذر من أولئك النقاد الذين يجعلون من الفن متعة مجردة، أو هدفاً للتسلية فحسب أو بضاعة تزجى للترفيه وملء الفراغ، لأن الفن الحقيقي ـ في ضوء المعايير الإسلامية ـ وسيلة للبناء، والسمو والتقدم، وحافز للروح والمادة، ومشكل للفكر والوجدان، وباعث للحيوية والقوة والإيجابية في حركة الحياة الشاملة، وممهد لطريق السعادة والنفاذ، وحارس لراية التوحيد. . . رمز العزة والحرية والعدالة[1]. . .

بقلم: د. نجيب الكيلاني

(١) مجلة الأمة، العدد الرابع والعشرون (٢٤)، أكتوبر ١٩٨٥.



القوة والوضوح في الشعر الإسلامي

حول ظاهرة الرمز والغموض في الشعر الحديث...

يلاحظ القارئ في جلّ الكتابات الشعرية الحديثة ـ الشبابية منها خاصة ـ المبثوث منها في الدواوين والمبعثر منها في الجرائد والمجلات والنشرات، يلاحظ أنها تتسم بالرمزية المفرطة أحياناً، والمحتشمة أحياناً أخرى.

وكتاب الشعر ـ حسب رأيي، ولا أقول الشعراء ـ عندما يصرون على انتهاج هذا المنحى في إنتاجهم ـ يحدثون ـ علموا أم لم يعلموا ـ فجوة عميقة بين الجمهور وكتاباتهم، فكم من عاشق للقوافي يمني النفس بقراءة لديوان ما، ثم لا يلبث أن يجد نفسه مرغماً على طرح ذلك الديوان جانباً، نتيجة الملل السريع الحاصل من عدم فهم أي معنى للكلمات المرصوفة بتكلف بليد، وعدم تحسس أي تسلسل فني عفوي للجمل الشعرية المهندسة وفق بناء فوضوي للقصيد، وكذلك عدم الفوز بأي نغم شعري هفهاف يروح عن الخاطر وينعم الوجدان، رغم ما يبذل القارئ من جهد ومصابرة.

ويعجبني تعليق الشيخ محمد الغزالي في صراحته العفوية: «...وإذا كان الأدب مرآة أمة ودقات قلبها، فإن المتفرس في أدب هذه الأيام العجاف لا يرى فيه بنة ملامح الإسلام ولا العروبة ولا أشواق أمة تكافح عن رسالتها وسياستها الوطنية وثقافتها الذاتية، ما الذي يراه في صحائف هذا الأدب؟ لا شيء إلا انعدام الأصل وانعدام الهدف والتسول من شتى الموائد الأجنبية وحيرة اللقيط الذي لا أبوة له، والشعر؟ لا موضوع له... وإذا لمحت

عيني ما يسمى بالشعر المنثور تجاوزته على عجل، لأني من طول ما بلوته يئست أن أجد فيه معنىً جاداً أو شعوراً صادقاً أو فكرة واضحة...»[1].

شواهد...

ولن أذهب بك بعيداً، فأمامي الآن أنموذجان شاهدان:

أولهما: من المغرب العربي.

وثانيهما: من الشرق.

هذا المقطع الأول من قصيدة بعنوان: أنت أنت عروس البر والبحر ـ جاء فيه:

«ت.ش.م.

«تشمسين في القيلولة، يبللك العطش،

«تفلتين من اللفح، تهربين من النعاس، تغالبين الإغماء.

«ترشين الوجه بماء الزهر.

«تدخلين في الظل.

«تحملين الوزر على الظهر، تختفين في الشعاب.

«يجري في أبعاد عينيك دفء الولوج.

وخفيف الانسياب»[2].

وهذا مقطع من قصيدة بعنوان: «محاولة في تأويل عيني حبيبتي»:

«آخذ قبلة عينيك وأقرأ:

خيزران ويعافير وبقل ونخيل أنثوي.

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص٩٩ و١٠٠ محمد الغزالي، ط٣.

(٢) مجلة الثقافة العربية، ص١١٩، العدد ١، السنة ٤.

ومهاتان وينبوع ورمل.

وغزال يستحم

آخذاً كنت وأكتب:

سيسبان فروعوني وغيد يتهادين.

وولدان ينادون: تعالين إلينا.

ومواعيد هوى تمت.

وأخرى ستتم»[1].

فهل بمثل هذا الكلام الذي يدعي أصحابه مصرين على أنه شعر (!) يمكن تبليغ قضية ما إلى الجمهور لتحريك عواطفه وكسب تأييده ونصرته؟ وهل بمثل هذه الرمزية المبهمة التي لا يكاد يفهمها حتى أصحابها، يفرض الشعر سلطانه على الوجدان؟ والواجب كما جاء على لسان الشاعر كمال رشيد:

وكما يموت الصدق في زمني	مات القصيد ولامس الوحلا
تجري الأمور كما لو انطفأت	عين البصير ورأيه اعتلا

إلا أن أمانة البحث وموضوعية التحليل، تفرض علينا أن نبحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة. فنجد أن هناك أسباباً ذاتية وأخرى خارجية:

الأسباب الذاتية...

ونرجعها أساساً إلى:

- هزل الثقافة الشعرية المتينة والأصيلة والواسعة لدى الشاعر.

- عجز فني مفاده الضعف التكاملي لدى الفنان الذي ستتحول المعاني

---

(١) مجلة الدوحة، ص٧١، العدد ٨١، ذو القعدة السنة ١٤٠٢هـ.

على يديه إلى سحب ضبابية وممارسات غيبية لا يعرف حتى قلبه معناها[1].

الأسباب الخارجية...

من يتابع شعراء الغموض يجد أن معظمهم ابتدأ «كلاسيكياً» ثم مال إلى الحداثة والتجديد، فالغموض بالنسبة لهم لا يعدو أن يكون مسايراً للموضة الجديدة وتقليداً لثورات شكلية في أدب الغرب. وهذا ما يبرز سقوط العديد من شعراء الغموض والتجديد على دروب الحداثة الأصيلة التي يجب أن تنبع من واقع عربي إسلامي وليس مجاراة لصراعات غربية لا تمت لواقعنا بأي صلة[2].

ثم هناك عوامل الواقع الموضوعي المعيش الذي يرتكس فيه الشاعر، والمتسم عموماً بالتخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، والتسلط السياسي، هذه العوامل تصطدم بحساسية الفنان فتجبره على اللجوء إلى الرمز والإيحاء هروباً من المباشرة.

وههنا أقف لأطرح سؤالاً يشكل صلب البحث: هل سلك الشعراء الإسلاميون هذا المنحى في كتاباتهم؟

لقد تميز الشعر الإسلامي منذ العهود الأولى بسمو الموضوعات التي عالجها ونبل الغاية التي قصد إليها، فموضوعاته هي الإسلام ودعوته. وغايته إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن ضيق الكفر إلى سعة الإسلام[3].

وكان الشعر عبر رحلته الإسلامية يقود معارك الحرية ضد الاحتلال الأجنبي ويقود نيران الحماس في الجماهير التي تنطلق بين الحين والحين لتدافع عن وجودها المادي والأدبي[4].

---

(١) الثقافة العربية، ص٣٥، العدد ١، السنة ٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٤.

(٣) الإسلام والشعر، ص٣٦ بتصرف، د.سامي مكي العاني.

(٤) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، محمد الغزالي، ص٩٩، ط٣.

ولا ننسى هنا شهادة العلامة ابن خلدون في مقدمته الرائعة، حول الشعر الإسلامي عموماً حيث يقول: «إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم... والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام من القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها، فنهضت طباعهم وارتفعت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ومنثورهم أحسن ديباجة وأصفى رونقاً من أولئك، وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من الكلام العالي».

القوة والوضوح في الشعر الإسلامي...

إن المتصفح للشعر الإسلامي القديم منه والحديث يلمس فيه القوة والوضوح في المبنى والمعنى... بعيداً عن كل إبهام وغموض. وذلك راجع في ـ تقديري ـ إلى اعتبارين:

١ ـ كونه من باب العمل الصالح:

ذلك أن الذين رضعوا الحق والصدق، بتبينهم للفكرة الإسلامية لم يرضوا أبداً أن يغطوا أفكارهم أو يصبغوا أشعارهم برمزية معقدة، بل اتخذوا الوضوح منهاجاً في كل ما يكتبون، يقيناً منهم بأن ما يفعلون هو من (العبادة)، ومن باب العمل الصالح الذي يتقربون به إلى الله مولاهم الحق، والعبادة في إسلامنا الحنيف ـ كما نعلم ـ بعيدة عن الطلاسم والرموز والتعقيد بل هي في غاية الوضوح والجلاء.

والشعراء الإسلاميون ـ من هذا المنطلق ـ هم الذين يحيون تحت مظلة الاستثناء، القرآن الكريم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ...﴾[1].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

ولنا في أقوال الرسول الكريم ﷺ لحسان بن ثابت شاعر الإسلام الأول الأسوة الحسنة: **«نافح عنا، وروح القدس يؤيدك»، «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس»، «اهجهم، وجبريل معك»**(١).

٢ ـ كونه دعوة:

لقد اهتمت الدعوة الإسلامية منذ أيامنا الأولى بالشعر والشعراء، وأحل الرسول الكريم ﷺ الشعراء، مكاناً بارزاً في الإعلام الإسلامي فأدى الشعراء الرسالة التي أنيطت بهم، وتصدوا لشعراء المعسكرات المناوئة للدعوة آنذاك: للمشركين واليهود والمنافقين، فأبطلوا باطلهم وردوا افتراءاتهم ووفقوا في ذلك التوفيق كله(٢).

وقد واكب الشعر الإسلامي مراحل الفتوحات والحروب والجهاد منذ بدايتها وعاش معها في كل مراحلها وتطوراتها المختلفة، وحمل الشعراء على عواتقهم عبء الدعوة ومقاومة المحتلين وتوحيد الجهود الإسلامية المشتتة(٣).

وكذلك استمر شعراء الإسلام على مر العصور دعاة هداة، وجنوداً حماة يرفعون صوتهم بالدعوة إلى الله ويرمون بشعرهم أعداء الإسلام(٤)، وكيف لا يفعلون والرسول الكريم ﷺ يقول: **«ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»**(٥).

ومن هنا أصر الشعراء الإسلاميون على أن يكون شعرهم قذائف حق تطيح بالأعداء، ودعوة ناصعة تبلغ إلى الجماهير العريضة على مختلف

---

(١) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ص٥٤٦، المجلد ١٠.
(٢) شعراء الدعوة الإسلامية: أحمد عبداللطيف الجدع وحسيني أدهم جرار. : ج١، ص٥.
(٣) شعر الجهاد في الحروب الصليبية، ص١٣١ بتصرف، تأليف الدكتور محمد علي الهرفي.
(٤) شعراء الدعوة الإسلامية، ج١، ص٥.
(٥) للمؤلف.

مستوياتها، وأصواتاً تسمع وألحاناً تفهم دون ترجمان. وهذا لا يمكن أن يتيسر إلا متى كانت نفثات الشعر واضحة المعنى، قوية المبنى، موسيقية النفس.

وعموماً، فالشعر الدعوي في معظمه كان صادراً عن عاطفة جياشة ودافع إيماني، ولهذا كان طبيعياً أن يفرغ الشعراء مضمون قصائدهم في صور فنية جميلة تبرز روعة المعاني وتصوغ الأفكار صياغة محسوسة دقيقة[1].

وسأستعرض نماذج من الشعر الإسلامي الحديث تبياناً لما أوضحنا.

نماذج من الشعر الإسلامي الحديث:

فهذا الشاعر جمال فوزي وهو في غياهب السجن يعلن للعالمين عن منهجه في الحياة:

سأظل حراً ما حييت منددًا ... بالبطش بالجبروت والطغيان
روحي على كفي فداء عقيدة ... في ظلها الوافي اتخذت مكاني[2]
ويظل صوتي ما حييت مجلجلاً ... ذوق المهانة ليس في إمكاني

وهذا الشاعر أحمد فرح يرسم خيوط الهزيمة وينبش عن أسباب الارتكاس:

لهفي على العرب أعلاماً ممزقة ... وراءها كل طبال وزمار
تقسمتنا شعارات يروجها ... في شعبنا كل طاغوت وغدّار
فإن دعا للهدى والحق داعية ... تناعقوا حوله: رجعي أفكار
وصوروه عدو الشعب متهماً ... وسلطوا كل هتاف وثرثار
إن الشعوب إذا ضلت حقيقتها ... أمسى بها العبد نخاساً لأحرار

(١) شعر الجهاد في الحروب الصليبية، ص٢٠٩ بتصرف.

(٢) قصيدة (قطتي) لجمال فوزي، شعراء الدعوة، ج١، ص١٠٦.

الجيش من دون إيمان ومعتقد   ضأن يساق إلى حانوت جزار[1]

وهذا الشاعر محمد محمود الزبيري، قد تغلغلت في أعماقه هموم شعب مهدد بالإعدام والتمزق وجرحته مأساة الجماهير المحطمة تحت سندان الظلم والبغي، فلم يهنأ حتى صرخ مزمجراً كالليث بصوت مدو، مفهوم لا التواء في كلماته ولا غموض في معانيه:

علت بروحي هموم الشعب وارتفعت   بها إلى فوق ما قد كنت أبغيه
وخولتني الملايين التي قتلت   حق القصاص على الجلاد أمضيه
أحارب الظلم مهما كان طابعه البـ   ـراق أو كيفما كانت أساميه
سيان من جاء باسم الشعب يظلمه   أو جاء ـ لندن ـ بالبغي يبغيه[2]

وبعد. . .

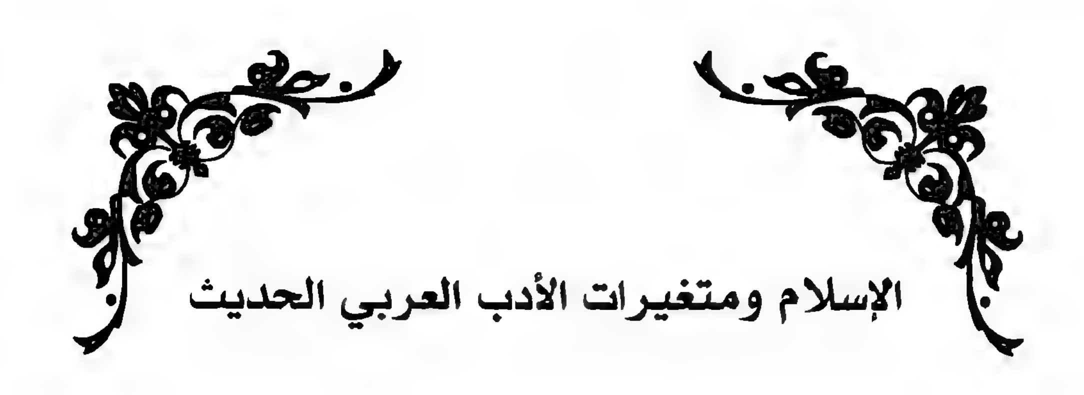
إن الشاعر الذي يعيش قضايا أمته، ويتخذ من الكلمة الشاعرة سلاحه في الميدان، يحمي بها عقيدته ويذود بها دعوته، يتحتم عليها الابتعاد عن أي طلسم أو غموض حتى تكون كلماته حية نابضة، فاعلة ومؤثرة، ذلك أن الكلمة الغامضة والمبهمة هي ـ في تقديري ـ كلمة ميتة لا حس لها، إذ حياة الكلمة بمدى تأثيرها وصدقها وشفافيتها وتغلغلها العفوي في الرأي العام.

ومن هنا أعيب على الشعر الفلسطيني المشبع بالرمز المعقد والغموض الجامع وتوخيه هذا المنحى، فأولى بشعراء القضية ـ أية قضية ـ أن تكون كتاباتهم متسمة بالقوة والوضوح والشفافية، إذا أرادوا من كلماتهم أن تكون رسلاً وقذائف[3].

بقلم: عبدالقادر عبار

---

(١) قصيدة (صرخة) لأحمد فرح، شعراء الدعوة، ج٥، ص٧٤.
(٢) قصيدة (رثاء شعب) محمد محمود الزبيري، شعراء الدعوة، ج١، ص٤٣.
(٣) مجلة الأمة، ربيع الآخر ١٤٠٤هـ، العدد (٤٠).



الإسلام ومتغيرات الأدب العربي الحديث

شهد الأدب العربي في العصر الحديث تغيرات هائلة تدفعه ـ بعضها ـ إلى جزر نائية عن شواطئ التراث، وسواء أكانت هذه التغيرات صدى لتغير الفرد ـ كما يزعم المتحمسون لها ـ أم أنها مبادرة تحاول ـ مع المؤثرات الأخرى ـ تغريب الأمة عن جذورها، فإنها أهم قضايا الأدب العربي الحديث ومشكلاته، ولها أثر بيّن على العلاقة بين الأدب والإسلام.

فقد قامت بين الأدب العربي والإسلام منذ العهد النبوي علاقة حميمة تأثر خلالها الأدب بالقيم الإسلامية وحملها في موضوعاته ومضموناته. فكان شعر الدعوة الإسلامية، وشعر الفتوح، والغزل العذري، وأدب الزهد والمواعظ وشعر الحب الإلهي والمدائح النبوية، وتغلغلت القيم الإسلامية في قصيدة المديح وفي بعض قصائد الهجاء، وظهر النثر الفني ـ كما يؤكد الدكتور شكري فيصل[(١)] ـ نبتة إسلامية ولدت في أحضان الدعوة الإسلامية ونمت في ظلالها، وظلت تحمل نَفَسَهَا المبارك على مر الزمن.

ولا يعني هذا أن العلاقة بين الأدب والإسلام كانت إيجابية دائماً في تراثنا، فثمة جوانب سلبية في هذه العلاقة، تخطى الأدب خلالها حرمات العقيدة، وحمل صوراً ومواقف وقضايا معادية للإسلام، الشعر الذي هجا به الشعراء المشركون رسول الله ﷺ والصحابة الكرام، وتبذلوا فيه حتى ولغوا

---

(١) انظر: الدكتور شكري فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، ص٢٥٢، ط٥، دار العلم للملايين ١٩٨١م.

في أعراضهم[1] وسخروا فيه من المفهومات الإسلامية، وكالشعر والنثر اللذين يدعوان إلى الرذيلة أو إلى قضية يحاربها الإسلام، أو يسوغان محرماً.

وقد واجه الإسلام منذ العهد النبوي هذا التيار، فأهدر رسول الله ﷺ دماء الشعراء الذين نالوا من الإسلام والمسلمين، وراقب الخلفاء الراشدون الالتزام بالإطار الخلقي الإسلامي وعاقبوا الشعراء الخارجين عليه كالحطيئة وضابيء البرجمي والأحوص... إلخ، وكانت هذه المواقف درساً من دروس التوجيه وشكلاً من أشكال معالجة العلاقة السلبية بين الأدب والإسلام.

وخلال رحلة الأدب الطويل في العصور التالية ظهرت تجاوزات كثيرة تتخطى جدران العقيدة، كالغزل بالغلمان والتعهر، والدعوة إلى معاقرة الخمرة والتغني بها وإعلان الإيمان بالحلول والتناسخ والاتحاد، والعبث بالقيم الإسلامية على سبيل الدعابة أو المجون أو الزندقة... وغير ذلك من التجاوزات الكبيرة والصغيرة، ولقي بعضها معارضة السلطات الرسمية، وعوقب أصحابها بالسجن أو القتل ـ كما حدث لبشار والحلاج ـ بينما ظلت الغالبية العظمى منها في منأى عن المحاسبة أو المناقشة، وسكت النقد ـ إعراضاً أو تقصيراً ـ عنها.

وعلى الرغم من خطورة هذه التجاوزات، فإنها لم تكن ذات أثر كبير

---

(١) أمر الرسول ﷺ بقتل عدد من الشعراء المشركين واليهود ممن آذوا المسلمين بشعرهم، والشعراء الذين قتلوا فعلاً هم: أبو عفك، أحمد بن عمرو بن عوف، عبدالله بن خطل القريشي، ومقيس بن صبابة الكناني، وأبو عزة الجمحي، وعصماء بنت مروان، وكعب بن الأشرف، وأبو رافع سلام بن أبي الحقيق، وهناك شعراء لم ينفذ فيهم القتل لهروبهم أو توبتهم ودخولهم في الإسلام مثل: هبيرة بن أبي وهب، وأسيد بن أناس، وكعب بن زهير، والحارث بن هشام.
انظر: سيرة ابن هشام، ج٥، ص٦٣٦؛ والطبري، ج٣، ص٥٩.
انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ج١، ص١١٦، وص٣٨٦. والموشح، ص٢٠٣.
رجاء النقاش، أدباء معاصرون، ص١٣١، بغداد ١٩٧٢.

على الأدب العربي في رحلته، ولم تطغ على العلاقة الإيجابية بينه وبين الإسلام، بل إنها لم تكن مدرسة فكرية أو مذهباً أدبياً يخاصم العقيدة الإسلامية. . .

وقد سوغ النقاد والجمهور عدداً من هذه التجاوزات ـ ولا سيما تجاوزات الشعراء ـ وحملوها على أنها مبالغات تدخل في الوصف الذي وصف الله به الشعراء في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[1].

وجاء العصر الحديث وظهر دعاة التغيير بكثافة لم تعهدها الحياة العربية من قبل، وكان معظمهم ممن درس الآداب الغربية وفتن بها، ورأى أنها الأنموذج المثالي للأدب الإنساني، فأخذوا يدعون إلى احتذائها وإنتاج أدب عربي يشابهها أو يقاربها وفي الطريق إلى تحقيق هذا الهدف قاموا بنقل عدد من الأدوات الفنية والقوالب الأدبية من الأدب الغربي إلى الأدب العربي، وتأثروا بأدباء ومذاهب أدبية مختلفة وقد بذل هؤلاء ـ والحق يقال ـ جهوداً ضخمة في سبيل «تطوير» الأدب العربي ونجحوا في تغيير مسار جزء كبير منه في الشعر والنثر، وأدخلوا إلى النقد مفهومات غريبة أبعدته أشواطاً كثيرة عن البلاغة والنقد التراثيين.

وطبيعي أن يحدث هذا «التطوير» تلويناً جديداً في الأدب العربي، وأن يكسبه أدوات فنية يقدم الموهوبون بها أعمالاً أدبية رائعة، كالرمز والأسطورة والقالب القصصي الحديث وقالب المسرحية بألوانها، الكثيرة الفنية، ولو أن التطوير اقتصر على هذا الجانب لكسب الأدب العربي منه مكاسب هائلة، ولقدم بها نماذج إنسانية عالمية تلتحم فيها أصالة الشخصية العربية بالأداة الحديثة وترسم تجربة فذة. . .

ولكن الذي حدث غير ذلك تماماً، فالأدوات الفنية المستعارة لم تحسن التعبير عن الشخصية العربية بارتباطاتها التاريخية والعقيدة، وظلت مشدودة إلى أصولها الغربية وبدا الرمز والأسطورة في كثير من القصائد

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٦.

الحديثة جزءاً من مناخ غربي يسيطر على القصيدة ويجعلها غريبة عنها، وظلت المسرحية مدة طويلة تتذبذب بين التقليد الأعمى والتهريج، والعروض التافهة في مسارح وضيعة، إلى أن انتشلها الشاعر الكبير (أحمد شوقي) ووضع منها مسرحيات شعرية رفيعة، تسكن الشخصية العربية في أعماقها وتظهر في أجزاء بنيتها كلها، وتبعه توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير وكتاب آخرون طوعوا هذا القالب إلى حد كبير.

ولكن بقية المشكلة الكبيرة سواء في الأدوات الفنية التي لم تطوع بعد، أو في بعض القوالب الأدبية التي طوعت فناً ولم تطوع موضوعاً، مشكلة الخلفيات الفكرية والعقيدية التي انتقلت من الآداب الغربية إلى أدبنا الحديث:

فالأعمال الأدبية الغربية التي فتن بها أدباؤنا الرواد ومن تبعهم كانت مرتبطة ارتباطاً قوياً بخلفيات فكرية وعقيدية صنعتها ظروف الفرد الغربي، وعلاقاته المضطربة مع السماء وقلقه وتمزقه وإلحاده.

ولا يجهل دارس أن الرومانسية الفرنسية - مثلاً - تحمل خلفها ركاماً هائلاً من الظروف المضطربة والفشل وخيبات الأمل، وعجز العلمانية عن تحقيق حلم الإنسان بالسعادة، وفشل الكنيسة في تنظيم حياة الفرد، وكفر الغربي بها... إلخ.

...وأن أدب الوجوديين أثر مباشر لفلسفتهم الغارقة في «الوجود المادي» والمنقطعة عن السماء والعاجزة عن التعامل مع البيئة، وأن أدب الاشتراكيين الماركسيين ظل لصيقاً لمذهبهم المادي الجدلي الذي يربط الحياة كلها بمحور واحد هو المادة، ويدير ظهره نهائياً لعالم الغيب والخالق.

وعندما نقل الرواد دعوات التغيير من هذه الآداب أو حاكوها، نقلوا بقصد أو دون قصد خلفياتهم الفكرية والعقيدية إلى أدبنا، وعندما كتبوا قصائدهم وقصصهم ومسرحياتهم شحنوها بسحابات القلق والتمزق والاضطراب، وانزلق بعضهم إلى الإلحاد الذي ولغت فيه تلك الآداب،

وأقام خصومة مع الإسلام تحاكي خصومة الوجودية أو الماركسية مع الكنيسة.

واندفعت سحب سوداء في أدبنا العربي الحديث تحاول أن تنسق علاقته الحميمة بالإسلام فتعريه من كل القيم الإسلامية، ثم تتخذه أداة من أدوات الخصومة على العقيدة الإسلامية ووسيلة من وسائل سلخ المجتمع من جلدته الدينية.

وعندما ينظر المرء إلى القيم الإسلامية في الأدب خلال السبعة عقود من هذا القرن يروعه انحسار هذه القيم إلى حد كبير في العقود الأخيرة، كما تروعه الصور والمواقف غير الإسلامية، والتي تحاول أن تنسف مفهومات إسلامية أساسية ويقفز إلى ذهنه سؤال محير:

كيف دخلت كل هذه الصور والمواقف إلى الأدب العربي؟

وكيف نمت وتكاثرت في العقود الأربعة الأخيرة وفاقت في خصومتها مع الإسلام التجاوزات العقيدية التي مر بها الأدب العربي في تاريخه الطويل؟

لا شك أن الإجابة الدقيقة على هذا السؤال تقتضي بحثاً موسعاً يدرس النصوص الأدبية والحياة الثقافية العربية الحديثة والمؤثرات الفكرية والعقيدية فيها، بل والحياة السياسية التي أسهمت في الأدب والثقافة في عدد من البلدان العربية وجهات مختلفة.

وفي الطريق إلى تلك الدراسة أقف عند بعض المعالم التي تواجه الدارس مواجهة مباشرة بسبب ألوانها الفاقعة من جهة، وتأثيرها الفكري والعقيدي على الأدب الحديث، تأثيراً لا يخفى على دارس مبتدئ من جهة أخرى.

فقد تبين لي أن الموجة السوداء ـ التي تحولت في بعض الأحيان إلى تيار قاتم يعمق العلاقة السلبية بين الأدب العربي الحديث والإسلام ـ قد تضخمت واشتدت قوتها بفضل عاملين اثنين هما:

الأول: التأثر بالمذاهب الأدبية الغربية ونقل قيمتها ومبادئها الفكرية جنباً إلى جنب مع الأدوات الفنية إلى الأدب العربي الحديث.

الثاني: جهود بعض الأدباء النصارى في فصل الأدب العربي القديم عن روابطه الإسلامية وبث مناخ نصراني فيه.

وسنمر ـ خطفاً ـ على العامل الأول في هذه الحلقة، ونخصص الحلقة الثانية للعامل الثاني.

إن دراسة مذاهب الأدب الغربي وتأثيرها في الأدب العربي أمر يحتاج إلى وقت طويل وشرح لا تتسع له سطور مقالة، لذلك أكتفي بعرض شديد الإيجاز لتأثير مذهبين أدبيين غربيين في أدبنا العربي الحديث هما:

الواقعية الاشتراكية (النسخة الأدبية للنظرية الماركسية) والوجودية، ولا يعني هذا أن المذاهب الأدبية الأخرى كالبرناسية والسريالية والرمزية غير مسهمة في (عدم إسلامية) الأدب العربي الحديث، فقد كان لها دور كبير في زرع مفهومات تناقض القيم الإسلامية، ولكنني أقتصر على المذهبين المذكورين رغبة في الاختصار ولأن هذين المذهبين يصدران عن مذهبية فلسفية ترفض الديانات السماوية رفضاً قاطعاً، آملاً أن أدرس آثار المذاهب الأخرى في فرصة قادمة، كما أنني سأتتبع ـ باختصار شديد ـ آثار الأدباء النصارى خاصة الذين كانوا جسر الحداثة ووسائل الاتصال بالأدب الغربي.

للماركسية أثر واضح وقوي في الأدب العربي الحديث، فقد تغلغلت في أجناسه كلها وصنعت مكتبة مليئة بالقصص والمسرحيات ودواوين الشعر وصار لها مذهب أدبي نشط لا يمكن إغفاله.

والسبب في ذلك، أن الماركسيين وظفوا الأدب في خدمة قضاياهم، واستطاع أدباؤهم أن يبثوا قضاياهم الفكرية في أعمالهم الأدبية، ووقف وراءهم نقاد ودارسون يوجهون ويعلون إنتاجهم ويزاحمون به الأعمال الأدبية الأخرى، بل يطاردونها ولا سيما ـ الأعمال الأدبية الإسلامية ـ وكونوا مدرسة نقدية لها وزن مهم في النقد العربي المعاصر.

ففي ميدان الشعر ظهر شعراء يتبنون وجهة النظر الماركسية ويديرون قصائدهم حول قضايا الصراع الطبقي، مستغلين الأوضاع الاقتصادية المتردية في عدد من البلدان العربية، والتخلف والجهل والمرض، ودعوا إلى الثورة الحمراء وإقامة نظام شيوعي يخلص المجتمع ـ كما يزعمون ـ من مشكلاته كلها، وأشهر هؤلاء الشعراء عبدالوهاب البياتي، وعبدالرحمن الخميسي، وأحمد سليمان الأحمد، ومحمد الفيتوري، وتوفيق زياد... إلخ، وقد لاقى عدد منهم بعض الاضطهادات من الحكومات في فترات متقطعة، ولكن إنتاجهم الغزير دخل معظم البلاد العربية.

وإلى جانب هؤلاء ظهر شعراء آخرون استفادوا من التيار القومي، الذي بلغ ذروته في الخمسينيات، فدفعوا إلى الاشتراكية العربية «وهي خلطة غريبة من الدعوة القومية والدعوة الماركسية غير القومية»، وجسدوا مبادئ الأحزاب والاتجاهات الاشتراكية العربية التي تصارع لاستلام الحكم.

ويدور شعرهم حول التطلع إلى وحدة عربية في ظل نظام اشتراكي محدد ومحاربة «الرجعية» والاستغلال والإقطاع... والقضاء على الجهل والتخلف، وقد استفاد هؤلاء من أنظمة الحكم الاشتراكية في عدد من البلدان العربية، وانتشر إنتاجهم بين الجماهير، ودخل مناهج التعليم والجامعات، وأشهرهم: سليمان العيسى، ومحمد مهدي الجواهري، وممدوح عدوان، وبدر شاكر السياب... إلخ.

غير أن أصواتهم خفتت بعد نكبة حزيران ١٩٦٨ وتحولت إلى قضايا أخرى متفرقة.

وفي ميدان القصة ظهرت موجة من القصص التي تحمل القضايا الماركسية وتبثها من خلال مضامينها ووسائلها الفنية الأخرى، وتركز بصورة خاصة على مشكلات الطبقة الفقيرة، وتصنف المتدينين في زمرة أتباع الإقطاعي أو الرأسمالي وأشهر كتابها: رئيف الخوري، وفارس زرزور، وتوفيق يوسف عواد، وعبدالرحمٰن الشرقاوي، ومولود فرعون.. وغيرهم.

وفي ميدان المسرحية ظهرت عدة مسرحيات ذات مضامين «اشتراكية»

وأسهم في كتابتها أدباء ليس لهم صبغة ماركسية مثل: (توفيق الحكيم الذي كتب مسرحيتي الصفقة، والأيدي الناعمة، وحمل فيها كثيراً من القضايا الاشتراكية) مجاراة لأنظمة الحكم في بلادهم، وقد نجحت في استثمار مشكلات العالم العربي المتراكمة وتوظيفها في الدعوة إلى الحل الاشتراكي وإيهام الجمهور بأنه الحل المثالي وأشهر كتابها: سعد الله ونوس، لينين الرملي، وكاتب ياسين.

وخلف أولئك الشعراء والقصَّاصين وكتَّاب المسرحية وقف نقاد ماركسيون يؤصلون قواعد نقدية خطيرة في ساحة الأدب والنقد، وقد تغلغلوا إلى مراكز مهمة في الإعلام في عدد من البلاد العربية، وتسلطوا على ساحة الأدب وصنعوا منابر كثيرة لأدبائهم، وسلطوا الأضواء عليهم، وأشاعوا القيم الفكرية المستمدة من الواقعية الاشتراكية الغربية، ولا سيما تلك التي قررها جورج لوكاتش، وماياكوفسكي وروجيه غارودي ـ قبل إسلامه ـ وسعوا إلى بناء نظرية جمالية ماركسية في النقد العربي، وأشهر النقاد الماركسيين أو الاشتراكيين العرب: مفيد الشوباشي، وعبدالعظيم أنيس، ومحمد أمين العالم، وصبري حافظ، وحسين مروة، ومحمد مندور (في المرحلة الثانية من نقده)، وعبدالعظيم تليمة.

إن التجاوزات والبعث بالقيم الإسلامية لم تكن ذات أثر على الأدب العربي في جملته، ولم تطغ على العلاقة الإيجابية الغربية، ونقل قيمها ومبادئها الفكرية إلى جانب أدواتها الفنية، بطريقة التقليد والتبعية، والعشوائية غير الواعية.

وأما الوجودية فظهرت آثارها في الأدب العربي من خلال القضايا الفلسفية التي حملتها بعض الأعمال الأدبية، وكان أصحابها متأثرين بأعمال أدبية لأدباء الوجودية الغربيين كسارتر، وألبير كامو، وكارل يسرز... وغيرهم.

والمعروف أن الوجوديين يولون القصة والمسرحية عناية كبيرة ويتخذونهما وسيلة من وسائل نشر مبادئهم، وقد بث معظم الوجوديين

قضاياهم عبر هذين الجنسين الأدبيين وشكلوا مذهباً أدبياً ذا خصائص متميزة.

وأهم القضايا التي يحملها المذهب الأدبي الوجودي هو عبثية الحياة، والتمرد الفوضوي على المجتمع، والقلق الدائم، ولا سيما القلق من الموت، واعتبار الموت نهاية غير عادلة للحياة، وتنصيب الذات في مقام الألوهية ومنحها القدرة الكاملة على تسيير الحياة.

وقد تأثر عدد من أدبائنا بهذه القضايا وبثوها في أعمالهم الأدبية وزعموا أنها أهم قضايا الفرد العربي المعاصر، وخصوصاً باهتمام شديد، ويكفي أن ننظر في إنتاج أديبين كبيرين هما نجيب محفوظ، وصلاح عبدالصبور، لندرك مدى شيوع هذه القضايا وأثرها في قراء الأدب.

فنجيب محفوظ هو القصاص العربي الأول، بلغت شهرته أطراف العالم العربي كلها وطبعت أعماله طبعات كثيرة، وأخرجت في أفلام سينمائية ومسلسلات إذاعية وتلفزيونية، وصار رأس مدرسة في القصة العربية الحديثة لها أتباع في معظم البلاد العربية...

وتعد قصصه «السمان والخريف، الطريق، اللص والكلاب، الشحاذ» أنموذجاً عالياً لقضايا وجودية كثيرة، كالخوف من الموت والبحث عن تفسير مقنع له غير التفسيرات الدينية والشك والقلق وسقوط القيم وضياع اليقين في أي شيء والبحث عن الحقيقة، عن المجهول الذي يفسر الأشياء كلها ويعطيها معناها العميق وهذا المجهول طبعاً خارج النظم والأديان والقيم التي عرفها المجتمع من قبل.

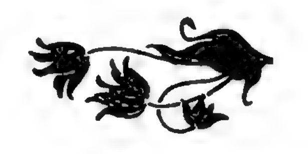
وقد استطاع نجيب محفوظ ببراعته الفنية أن يقر لدى القراء العاديين والنقاد الشعور بأن هذه القضايا هي مشكلات الفرد العربي المعاصر، وسبب أزماته المتوالية، وأنها «مأساة إنسانية تستمد جذورها من واقع مجتمعنا وظروفه وتعلو بعد ذلك إلى مستوى الإنسان في كل مجتمع آخر».

وبوسع الدارس أن يتتبع ظلال هذه القضايا ـ بمستويات فنية متفاوتة ـ لدى معظم قصاصينا، ولا سيما القصاصون الذين نالوا حظاً من الشهرة، بدءاً بسهيل إدريس وانتهاءاً بحنا مينه.

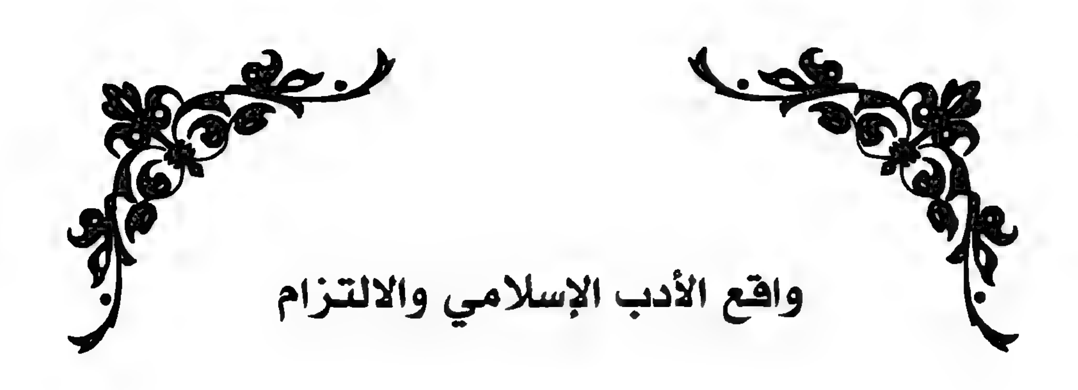
وأما صلاح عبدالصبور فهو الشاعر الذي حمل الشعر قضايا وجودية لم يحمله إياها الوجوديون الغربيون أنفسهم، فمن المعروف أن «سارتر» يعفي الشعر من الالتزام ويعدّه بنية فنية غير صالحة لحمل القضايا الفكرية عامة، مثله في ذلك الموسيقى... ولكن صلاحاً زرع القضايا الوجودية في شعره وجعلها موضوعه الأول والأهم، فمنذ ديوانه الأول «الناس في بلادي» راح يصرخ في قصائده بأن الحياة عبث، وأن الناموس الذي يسيرها خطأ، وأن فيها انحرافاً صميماً يعجز الإنسان عن إصلاحه، وأن الموت نهاية غير عادلة للحياة، وأن القدر ظلم محض.

وقد ظلت هذه القضايا تدور في دواوينه التالية إلى نهاية حياته، وكان غرضها الفني، وتطبيل النقاد لها سبباً في شهرته وارتقائه أعلى مكانة أدبية ورسمية في بلاده بل وترشيحه لإمارة الشعر العربي بعد شوقي[1].

بقلم: د. عبدالباسط بدر



(١) مجلة الأمة، العدد ستون، السنة الخامسة، ذو الحجة ١٤٠٥هـ، آب (أغسطس) ١٩٨٥م.



واقع الأدب الإسلامي والالتزام

يفرق الأدباء بين واقعين يستمد منهما الأديب صوره وهما: الواقع الحسي، والواقع المادي[1]. فالانبهار بالحدث ثم ترجمته إلى عمل أدبي هو تعبير عن الواقع الحسي لا يزيد كثيراً عن الصورة التي تنقلها آلة التصوير، أما معايشة الحدث والتأثر به والانفعال المباشر به فهو تعبير عن الواقع المادي، لأنه تعبير حقيقي عن الواقع معتمد على رؤية واضحة لها ارتباط بأصول الحدث وجذوره، ولهذا كان اهتمام الأدباء دائماً بتصوير الأحداث في واقعها العام والتجربة الشخصية، ومن هنا كان الجمال الأخاذ لأدب الرحلات المستمد من الواقع المادي، فالتعبير الأدبي المادي هو الذي نشتم فيه أريج الأزهار ونشم منه رائحة الدم ونسمع هدير السيول وخرير المياه.

ولذلك كان أدب المعارك الإسلامية أدباً يستمد صوره من جذور المعركة ومعايشة التجربة والصدق الذي ينقله إلينا الأديب بأسلوب غني بالعاطفة.

فالأديب أو الشاعر المسلم كان يستمد شعره من لهيب المعارك ومعاناة

---

(١) لا يوجد واقعان في آن واحد، الموجود فعلاً هو: الواقع، والحقيقة، ولعل الباحث الفاضل يعني بالواقع الحسي الحقيقة، والواقع المادي الواقع المعيش. والالتزام يكون بالحقيقة الثابتة التي تمثل الأصالة وليس بالواقع المتغير وغير الثابت، والعلاقة بين الواقع والحقيقة قد تكون علاقة تطابق وتماثل مثل واقع المسلمين في عهد الرسول ﷺ. وقد تكون علاقة تناقض كما هو واقع عامة المسلمين بمعاصيهم وذنوبهم وأخطائهم المخالفة للقرآن والسنة وهما الحقيقة.

الحروب والامتزاج بالواقع الذي يصوره، مما جعل معايشته الأحداث بفكره وقلبه ووجوده وتصوير ذلك في قصيدة أو فن من فنون الأدب جديراً بالاستمرار والبقاء.

إن الأدب العربي يجب ألا يكون أدباً انطوائياً قائماً على الإحساس الفردي والانفعال الوقتي والعاطفة الدفاقة، بل لا بد من أن ينفعل بالأحداث ومعايشتها.

ومع أن الأدب ـ كما هو معلوم ـ تعبير عن ذات الإنسان، إلا أنه لا ينعزل عن واقع المجتمع الذي يعيش فيه الأديب، ولا عن تراثه الحضاري وقيمه الموروثة وتاريخه، وعلى هذا فإن قضية الالتزام لم تكن مجال أخذ ورد في الأدب الإسلامي لأن الأديب المسلم إنسان ملتزم بمجتمعه، وبواقع أمته المسلمة، وبقيمها ومبادئها المستمدة من دينها فهو وثيق الصلة بالمجتمع يكتسب مكانته وقدره من إبداعه في فنه وتناوله لمشكلات مجتمعه، الأمر الذي يجعل واجب المجتمع أيضاً حيال الأديب أن يحقق له أهدافه، ويمهد له طريقه، ويمكنه من أداء رسالته في المجال الاجتماعي الذي يعيش فيه والإنساني الذي ينتمي إليه.

وليس معنى هذا أن الأديب المسلم ملتزم بواقع مجتمعه المتخلف البعيد عن منهج الله ونظامه، المعطل لشريعته وأحكامه، وإنما هو ملتزم بواقع مجتمعه كما يجب أن يكون عليه المجتمع المسلم. فإذا كان المجتمع بعيداً عن واقعه الذي أراده الله له، فإن التزامه يتجسد في محاولة تغيير الأوضاع المخالفة للإسلام، والشرائع السائدة في المجتمع والتخلف الذي يكبله بالأغلال والقيود، والمعوقات التي تقف في طريق تطلعات الأمة، وآمالها نحو حياة أفضل في ظل المنهج الرباني، وهو في مثل هذا الموقف داعية إلى التغيير من أجل تبديل صور الحياة الجاهلية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، واضعاً نصب عينيه تأمين الحرية في مفهومها الأكبر الخاضع للعبودية لله وحده، لأن التحقق بالعبودية لله هو منتهى الحرية، وهي تعني التخلص من جميع مظاهر العبودية الأرضية...

ويتطلب ذلك أيضاً تأمين حرية الوطن الإسلامي والفرد المسلم في تحقيق مظاهر الحرية التي منحها الله له وطالبه بالحفاظ عليها.

فإذا كان المسلمون اليوم يعانون من أوضاع الفقر والتخلف والظلم والاستبداد والتسلط والطغيان والكفر والإلحاد والتشكيك في العقيدة والدين، فإن الالتزام من الأديب هو مواجهة هذه الأوضاع لتغييرها إلى الأفضل والأمثل والتخلص من قيود المرض والجهل والتمييز الطبقي والطائفي، والتفتح على قيم الإسلام وتراثه والارتفاع بمستوى المجتمع والأمة لتتناسب أوضاعها مع مبادئ الإسلام التي يؤمن بها والفكر الرباني الذي يدين به.

إن الأديب لا يقل دوره عن رجل الحروب والسياسة، فعليه ألا يغفل واجبه الأساسي بالالتزام مع مجتمعه وأمته وتطلعاته وطموحاته والدفاع عن حريتها وحقها في الحياة الكريمة، وتبصيرها بالواقع، والصدق مع النفس، والتجاوب العاطفي والوجداني مع المشكلات الحياتية النابعة من ممارسات الواقع.

والالتزام الذي يجعل الأديب منطلقاً من حريته المسؤولة هو الذي يجعله مجاهداً في صفوف المجاهدين، وعاملاً من أجل تغيير البنية المادية والنفسية للأمة، وفرق بين الالتزام والالتزام، فالالتزام ارتباط حر بقضايا المصير، وفعالية في تطور المجتمع وإسهام في أداء الأمة مسؤولياتها، فهو داعية إلى التضامن والتكاتف والوحدة رافض لأنواع القهر والاستبداد والاستغلال، قائد الأمة إلى أهدافها الرئيسية في الحياة، لأن الالتزام أيضاً حالة اختيارية، فإنه ضد القسر والالتزام، وهذا يقتضي أن يترفع الأدب عن تقديم قصائد الشعر المتخمة بالمبالغة والكذب والثناء والإطراء في بلاط الملوك والأمراء والساسة والرؤساء، لأن فيها امتهاناً لدور الأدب وإذلالاً لمكانته، كما أن قسر الشعراء على كتابة الأناشيد والقصائد التي تمجد الديمقراطية الزائفة والشيوعية الماكرة ليردد ذلك العمال والفلاحون، يعد أدنى أنواع الاضطهاد للأدب والأدباء والمفكرين.

إن الأدب الذي يأتي للتملق والزلفى أو نتيجة القسر والضغط يكون

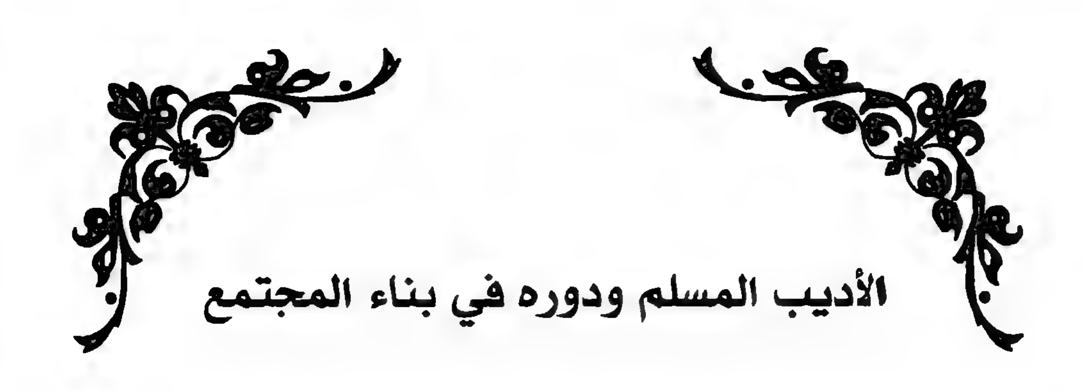
أدباً ميتاً لا يتعدى في تأثيره حدود زمانه ومكانه لأنه أدب طبول دعاية ونفاق وتملق وتزييف وتدليس للسلطة والأمة.

وأدب الالتزام أدب إبداعي يقوم على المبادئ والنظرة الإنسانية، يكتسب منها صفة، الفعالية والاستمرار والخصوصية... وهو الذي يرتفع بمستوى الأمة في تربية ذوقها وإرهاف حسها، لأن الأديب الملتزم روح الأمة وضميرها الحسي، ولذلك كان على السلطة الحاكمة تهيئة الجو المناسب له والمناخ الذي يبدع فيه، والحرية التي لا تحد من حدوده وطاقاته، وما دامت في حدود الالتزام بالدين والأخلاق والمثل التي تعيش الأمة لها وتعمل على نشرها وتأصيلها، ولا يمكن للأديب أن يقوم بهذا الواجب إلا إذا توفرت له الوسائل المادية والمعنوية التي تساعده على عملية الإبداع والإنتاج، وعلى رأس هذه الوسائل قضية النشر لإنتاج الأدباء وأعمالهم إلى جانب كفالة الحرية ـ للكلمة ـ المكتوبة لأن قيام الدولة بمسؤولية النشر هي التي تشجع الأدباء والمفكرين وناشري الحركة الفكرية وتمدها بأسباب البقاء والاستمرار[1].

بقلم: الدكتور عباس محجوب



(١) مجلة الأمة، العدد ٥١، الأول ١٤٠٥هـ ـ ديسمبر ٨٤م.



الأديب المسلم ودوره في بناء المجتمع

لكي يتمكن الأديب المسلم من أداء رسالته في خدمة مجتمعه، وليشارك في العطاء ويسهم في مجال الإبداع الأدبي، لا بد أن يكون كامل الإيمان بالله سبحانه وتعالى، إيماناً صادقاً ويقيناً لا يتطرق إليه شك، وأن يكون مؤمناً بالقيم الدينية والتعاليم التي جاء بها أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام من عند الله، وأن يكون بالإضافة إلى ذلك قوياً في عقيدته، معتزاً بدينه، صلباً في مبادئه، ثابتاً في مواقفه يمشي على الشوك إن اضطر لذلك، ويتحمل الجوع والتشريد في سبيل الله، وفي سبيل رسالة الكلمة، وقدسية التعبير المستمدين من أهدافه الإيمانية، لأن القلم واجهة من واجهات الجهاد، بل إن دوره لا يقل عن أعتى الأسلحة وأحدث الوسائل في سبيل إلهاب الجماهير وتحريكها، وإشعال الحماس في قلوبها، والذود عن الدعوة إلى الله وإبلاغها إلى الناس. ولهذا أقسم الله سبحانه وتعالى به لخطورة وفعالية تأثيره، وسرعة نفاذه إلى القلوب والعقول، وجاء ذكره في أولى آيات الوحي الإلهي، ولهذا أيضاً كان الرسول ﷺ يشجع الشعراء المؤمنين العاملين والخطباء النابهين، ويدفعهم إلى استعمال سلاحهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ويقول لحسان بن ثابت، شاعر الإسلام:

«قل وروح القدس معك»[(١)].

وإذا كانت أساليب القتال قد تعددت اليوم وتنوعت، وإذا كان العالم

---

(١) أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والإمام أحمد، المعنى واحد والألفاظ مختلفة.

قد اتخذ كثيراً من الوسائل، واستخدم أنماطاً متعددة من المعطيات الحضارية، فإن دور الأديب كذلك أصبح متعدداً ومتنوعاً ومهماً، وليست المعطيات الحديثة كلها إلا أدوات تخدم الكلمة، وتعبر بها الآفاق، وتصل بها إلى أطراف الدنيا وأرجائها حيث أصبح العالم صغيراً بلا حواجز ولا قيود، وهذا كله يجعل الأديب المسلم في صورة أعلى وأسمى من غيره، لأنه ـ وهو يؤدي رسالته الأدبية ـ ملتزم بدينه متمسك بتعاليم نبيه، منفذاً لأمر الله، مطالب بالصدق والأمانة والموضوعية في أدبه، حتى مع أعدائه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ اعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[1]، هذه الخصائص التي تميز الأديب المسلم، تقضي أن يكون الأدب الإسلامي عالمياً في مجاله، إنسانياً في أهدافه منطقياً في انتشاره، لا يخضع للعاطفة فقط، ولا يقوده الانفعال فحسب فإذا كان الإسلام عالمياً، فإن عالمية الأدب الذي ينتمي إليه أمر حتمي، وإنسانيته أمر لازم لأن النزعة العالمية الإنسانية هي التي تثير الأدب، وترفع من شأنه، وتدل على حضارته، والحضارة الإسلامية خير ما عرفت البشرية في تاريخها الطويل، إذ أن مفهوم الحضارة في الإسلام ليست مادية فحسب، فهي ليست مصانع تبنى وسدود تقام، ومنشآت تعلو وتشمخ، وليست وسائل نقل مختلفة ومتطورة، بل هي إلى جانب ذلك كله إنسان يعيش عصره، وعقل متفتح على المنجزات العصرية إنسان يشارك في الحضارة، ويصنع التقدم، ويتفاعل مع حقائق الحياة والكون ويتحدى الصعوبات، ويبذل العطاء.

والأديب المسلم لكي يؤهل نفسه لبناء مجتمع عصري مسلم، يحتاج إلى عدة عناصر تتظافر لتحديد شخصيته وإبراز سماته، وأهم العوامل التي تؤدي لبناء المسلم العصري يمكن أن نتمثلها في بعض الأمور منها:

أولاً: إبراز الأصالة الإسلامية:

ولا تعني الأصالة ـ بداهة ـ أن نعيش في الماضي ولا نتعداه، لأن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

هذا هو الجمود، ولا أن نتنكر لهذا الماضي ونتبرأ منه، لأن هذا هو الجمود، بل المقصود بالأصالة أن نبرز القيم التي جاء بها الإسلام، لتكون أساس سلوكنا، ومنبع تفكيرنا وضابط حركتنا ثم طبع الحضارة المعاصرة بهذه القيم لتكون معايير للسلوك في هذه الحضارة المادية، وبحيث نوفق بين الأصالة بهذا المفهوم والتطور لأن المجتمع المعاصر مجتمع متطور تتجدد خلاياه وأنسجته على الدوام، والمسلمون عليهم مسايرة هذا التطور وعدم التخلف عن ركب الحياة وحركتها، مع الاحتفاظ بعناصر أصالتهم ومميزات شخصيتهم لكي تحافظ الشخصية الإسلامية على أصالتها فهي بحاجة إلى إعادة النظر في أساليب السلوك، ووسائل تناسق القيم مع مستويات التطور، حتى لا ترتبط الأصالة كما يفهمها بعضهم بالتخلف والجمود، وتتخذ ذريعة لمقاومة مد الحياة، وحركة التطور، مع أنها في الحقيقة تدفع إلى صقل الشخصية وتحفز على الإبداع.

ثانياً: رفع راية الحرية:

إن حرية الأديب لا تعني الحرية المجردة المرتبطة بالإحساس الداخلي له، والذي لا يرتبط بمواقف في الحياة، ولكنها حرية الممارسة في موقف معين، والمجسدة لإحساس الإنسان من خلال مواقفه، وهنا لا يتناول الأديب المسلم الحرية كشعار يتحدث، بل ليحققها في العالم، لأن الحرية الإسلامية هي حرية المسؤولية والالتزام، وهذا هو الذي يربط مفهوم الحرية عند الأديب بالممارسات التي يجعل الحرية في صالح الإنسان وفي سبيل الارتقاء بروحه ووجدانه، وفي سبيل إرهاف إحساسه ومشاعره، وربط ذلك كله بالقيم الإسلامية المتفتحة على التطور والمحاربة للتزمت والجمود. إن حرية الأديب تدفعه إلى أن يرتفع إلى مستوى التحديات التي تواجهها الأمة الإسلامية وهي تحديات تشكل خطورة على وجودها المادي والحضاري وتدفعه إلى العمل على أن تكون الأمة قادرة على تأصيل قيمها واستعادة قدرتها على العطاء والبذل، ودفع عجلة الحضارة والإسهام فيها.

وأهم جوانب الحرية هي الحرية الفكرية المرتبطة بعطاء الأديب

وإبداعه، وما لم يجاهد الأديب في سبيل حرية الفكر، فإنه يصعب تحول المجتمع المسلم من مجتمع متخلف إلى مجتمع متطور.

والمعروف أن الفكر الإسلامي كان وما يزال يتعرض للظلم والقهر والاستبداد والإرهاب، وهذا الفكر في حاجة إلى أن يستعيد حيويته، ويفك أغلاله ويحطم قيوده، لأن انعدام الحرية الفكرية يؤدي إلى فقدان الأديب لشخصيته، وإلى إبراز المواقف التي لا يؤمن بها، والآراء التي لا يعتنقها، والسلوك القائم على التملق والرياء، ومداهنة الحكام وغيرهم، الأمر الذي ينتج عنه ضمور المواهب وموت الرأي الحر.

والحرية في مجالها الأخلاقي تقتضي أن يكون سلوك الأديب ورأيه ناتجين عن اقتناع، ونابعين من مجموعة القيم الإسلامية التي تعد جماع الأخلاق الإنسانية متجاوبين مع التطلع إلى روح الخير استجابة لتعاليم الإسلام ورغبة في الجزاء الأخروي.

إن الحرية الأخلاقية هي التي تلهب جذوة البطولة، وتحيي روح المخاطرة وتحافظ على كرامة الإنسان ذي الإرادة الحرة، والاختيار الواعي، وهي التي ترفعه إلى مستوى الأحساس بالتبعية الجماعية التي تحرر الأديب من دائرة ضيقة، هي دائرة المشاغل اليومية والمطالب الصغيرة المرتبطة بشخصه وأسرته فقط.

أما الحرية الاجتماعية، فهي التي تجعل الأديب يمارس حقه في بناء أمته وإدارتها لشؤونها، وإبراز قدراتها ومواهبها، لأن هذه الحرية هي التي تمنح الأمة أيضاً حقها في اتخاذ المواقف الإيجابية الرافضة للخضوع والاستسلام، إلا لخالق الكون وبارئ الوجود.

إن الحرية هي المشكلة الكبرى التي يواجهها الأديب كقضية في المجتمعات المعاصرة حيث يواجه الأديب بأنماط متباينة من المواجهات، التي قد تكون استقطاباً وتذويباً في المجتمع، وقد تكون تحطيماً وإخراساً وسجناً وتشريداً، وذلك لأن الفن الأدبي رؤية تتجاوز الواقع المرفوض، وتمرد على القيم الإسلامية وغير الإنسانية، كما أنها حرية يمارسها الأديب

ليمنحها من خلال ممارساتها رؤية واضحة للواقع المليء بالتناقضات وللمواقف العادية للحياة، وليمنحنا أيضاً استيعاباً واعياً لمشكلات الحياة وهمومها حتى يمهد الطريق إلى مستقبل مشرق.

ولذلك كان من أهم مسؤوليات الأديب المسلم في سعيه إلى بناء مجتمعه وتغيير واقع أمته، أن يقف مدافعاً عن الحرية مهتماً بالإنسان، ومنادياً بالتغيير، لأنه لن يكون هناك دور للأدب بدون حرية واعية، وتمرد على الواقع المخالف لمنهج الله وأهداف الإنسان في الأرض، ولن يتيسر للأديب أداء دوره في مجتمع تأصلت الحرية فيه، إلا إذا انتفى خوف الحاكم والمحكوم من ممارسة الأفراد لحرياتهم، فالشعوب لا تبني حضارتها وتسهم في البناء والتقدم وهي ترسف في قيود القهر والإذلال والظلم والتجبر.

إن دور الأديب المسلم في ظل الحرية التي يجب منحها له أن يمازج بين الفكر والعمل، فلا يكون من الذين يقولون ما لا يفعلون، وأن يقف بجانب حرية الإنسان، وأن يناهض جميع أشكال التخلف والقهر والتسلط باعتبارها عقبات في سبيل الحرية، وأن يطالب بالتغيير في المواقف والقيم والتقاليد التي نشأت في ظل الأنظمة الجاهلية ومجتمعاتها، وأن يثبت القيم الإسلامية الحية المستمرة، وأن يعبر عن مشكلات التحول الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بصدق وأمانة، يستمدهما من المسؤولية الإسلامية، وأن يحلل الأمور تحليلاً علمياً عميقاً بوعي وتفتح ذهن، لأن الأمة الإسلامية قد ملت الشعارات الزائفة، وخبرت الأنظمة البشرية، فهي في حاجة إلى التغيير والعودة إلى منهج السماء ونظامه، وشرع الله وحكمه، لينقذ هذا العالم الذي تنكر لقيم الحق، وأولويات العدل، وقتل الطاقات الحيوية للإنسان بافتعال المعارك الدائمة والمشكلات المتجددة داخلياً وخارجياً.

ثالثاً: إبراز أهمية التفكير العلمي:

إن المعطيات الحضارية التي ينعم بها الإنسان نتيجة الازدهار والتقدم، إنما هو عطاء التفكير العلمي العقلي التجريبي الذي استخدم العلم في فهم

الكون والحياة والنفاذ إلى أسرار الكون وقوانينه الطبيعية التي أودعها الخالق سبحانه وتعالى فيه وبالتالي الاستفادة منه، والتسخير له في سبيل الخير، وسعادة الإنسان.

وهذا العصر الذي تميز بأنه عصر العلم والتكنولوجيا هو نتاج الإنسانية في الماضي.

إن غياب التفكير العلمي يؤدي إلى ظاهرات متعددة في الأمة، مثل المواجهة الانفعالية لمشكلات الحياة بدون دراسة وفحص وربط للأسباب بالنتائج، وهذا يجعل الارتجال العشوائي من الظاهرات الواضحة في الأمة، لأنها لا تواجه شؤونها بالتخطيط والمنهجية والعقلية العلمية، وقد أدى انعدام التفكير العلمي إلى انعدام النقد وإلى الاستسلام للأمور، والنقد ليس للأشخاص سواء أكانوا أصحاب سلطة مدنية أو دينية، والارتباط بهم دون الارتباط بالأهداف، والسذاجة في تقبل الأمور وفهمها، وتحكم الطائفية واستغلالها للناس، وشيوع روح التواكل، والصمت والتفسيرات الخاطئة لأهداف الدين ونصوص الكتاب والسنة لتعميم روح التبعية والخنوع في الناس، وتجاوز الزمن لهم وهم يجترون ذكريات الأجداد وأمجادهم وتراثهم من غير أن يتخذوا من ذلك كله منطلقاً للمستقبل المشرق، والتطور القائم على جهد الماضي وعطاء الحاضر، ونتاج المستقبل المشرق.

إن واجب الأديب المسلم يتمثل في إشاعة الوعي العام المبني على الفكر المستنير، ولا يكون الوعي إيجابياً إلا إذا نميت أساليب التفكير العلمي عن طريق البحث والتقصي والتجرد من الهوى، بحيث تكون الأهداف الإسلامية جزءاً من التركيب العاطفي والوجداني والعقلي والإرادي للفرد المسلم.

رابعاً: محاربة مظاهر التخلف:

تتميز المجتمعات الإسلامية بظاهرة التخلف التي لم تعد ظاهرة اجتماعية فحسب، بل ظاهرة نفسية تكشف عنها توالي الأحداث في هذا

العالم الإسلامي، ومن مهام الأديب المسلم أن يدرس مجتمعه دراسة علمية، ويكشف عن الخصائص النفسية والاجتماعية لمجتمعه حتى يجنب قطاعات المجتمع الأخرى الوقوع في كثير من الأخطاء والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، والأدب له دوره الكبير في تغيير البناء النفسي والاجتماعي للأفراد وإعادة البناء وفق المعايير والقيم التي تؤمن الأمة بها.

والتغيير لا يقتصر على هياكل المجتمع، بل على العادات والتقاليد غير الإسلامية والتقاليد الفاسدة، والقيم المستحدثة، والمعتقدات الدخيلة على عقيدة الأمة، ولا تتغير المجتمعات إلا إذا توفرت عوامل التغيير والرغبة فيه، فقد يعيش المجتمع بدائياً متخلفاً لا يتغير ولا يتطور، وفي عزلة عن حركة الحياة، إذا لم تطرأ عوامل التغيير بينما تتغير بعض المجتمعات في خلال فترة وجيزة من تاريخها، لرغبتها في ذلك، وجديتها وتطلعها إلى الأفضل والأحسن.

إننا نجد في كل مجتمع أفراداً صالحين وأفراداً فاسدين، ولا يستطيع الفرد الصالح بجهوده الشخصية تغيير المجتمع الفاسد، لأن المجتمع سيتصدى له ويعزل عنه أو يقضي عليه، أو يجبره على أن يكون واحداً منهم، وأما إذا كان مع الفرد أفراد آخرون مؤمنون بأهمية التغيير، ومصممون على مواجهة مجتمعهم الفاسد، فإنهم سيعملون على جذب أكبر عدد معهم، وعندما تقوى جماعاتهم يمكنهم أن يغيروا مجتمعهم لأنهم مؤمنون بقضيتهم، مخلصون لها، ولذلك نسب الله سبحانه وتعالى عملية التغيير إلى الجماعة وليس إلى الفرد المصلح، كما أن عناصر النجاح وضمانات التغيير إلى الأفضل تقتضي توفر عنصر الإيمان أولاً ثم الإخلاص والطهارة والتضحية ونكران الذات.

إن التجمعات الدينية والسياسية عبر عصور الإسلام المختلفة جاءت

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

كلها كردود فعل لإحساس هذه الجماعات بأهمية إحداث التغيير في مجتمعاتهم، وكان التغيير يتحقق إذا توفرت العناصر السابقة، ويخفق إذا انعدمت، والمجتمعات الفاسدة لها أدباؤها، كما أن الجماعات الصالحة لها أدباؤها الذين يمكنهم أن يسهموا في بناء المجتمعات الجديدة، وهل معنى هذا أن ينتظر الأديب المسلم حتى تتغير المجتمعات في بلاد المسلمين؟ أم عليه أن يقوم بواجبه في أحداث عملية التغيير؟

إن الأديب المسلم الصالح وهو يملك إلى جانب موهبته الشخصية ما يؤهله علمياً وفكرياً، عليه أن يبدأ أولى خطوات القضاء على التخلف وهدم الجدران المتداعية في المجتمع غير الإسلامي، ويتطلب منه ذلك أن يحلل مظاهر الخلل والاضطراب في المجتمع ويبرز مواطن الضعف في البناء الاجتماعي والنفسي للمجتمع، وهذا من أصعب المهام على الأديب المسلم، لأن المجتمع العربي المسلم والذي نشأ في ظل الفخر الزائف والتعالي الممقوت، والكبرياء التي حاربها الإسلام، كان يعاني من انحراف في بنيانه الاجتماعي والنفسي، حيث أن نزعة التفاخر والتعالي المسيطرة على تفكير العربي، خلفت آثارها السيئة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، فإذا بها تتباهى بالحفلات والمناسبات التي تنفق فيها الأموال الطائلة بإسراف وبذخ وسخاء، لمجرد إرضاء هذه النزعة الممقوتة في الكيان النفسي للأمة، في الوقت الذي يعيش آلاف المسلمين المشردين بلا كساء ولا مأوى في مجاهل إفريقيا وأكواخ آسيا ومخيمات اللاجئين في فلسطين وأرتيريا وأوغندا وتشاد والصومال وغيرها من بلاد المسلمين، وكان من آثار هذا الفخر الزائف والتعالي صراعات يعاني منها المجتمع المسلم في كل مكان، فضلاً عن التمزق والتناصر عن السلطة والتطرف والإفراط في شؤون الحياة كلها.

إن دور الأدباء المسلمين يتمثل في إقامة هذا الكيان وإصلاح اعوجاجه وإحداث التوازن في قيم المجتمع بحيث يضمن له الاستقرار والنماء والبناء، لأن اختلال التوازن الاجتماعي إنما هو نتيجة لاستعلاء القيم الزائفة والمشاعر الخادعة في الإحساس بالذات والتفوق، وتعضيد هذه المشاعر بالسلطة والفكر والإعلام.

إن مظاهر الخلل في البنيان الاجتماعي للمجتمع المسلم العربي يتمثل أيضاً في النزعة العاطفية التي تحكم التصرفات وتسيطر على القرارات بدلاً من الحكمة والعقل والتدبر، فالمواقف السياسية العربية انعكاساً للعاطفة، وردود أفعال عاطفية سريعة وانفعالات لا تدع مجالاً للمنطق، وقد أرجع بعضهم هذا إلى سيطرة المفاهيم القبلية القائمة على الاعتزاز والفخر بالأنساب والأصول، والمطالبة بالثأر والتراخي والكسل والتواكل واجترار الذكريات عن التفوق الحضاري... كل هذه المفاهيم هي التي سيطرت على الأدب العربي قديماً وحديثاً، بالإضافة إلى أن هذه المفاهيم جعلت العربي قليل الإحساس بالمستقبل يحلو له أن يردد قول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

كما جعلته قليل التفكير في المستقبل مع أن القرآن الكريم كله دعوات متصلة للتفكير في المستقبل باعتباره نتيجة الحاضر، ولذلك كان من مسؤوليات الأديب المسلم التركيز على محاربة هذه السلبيات وتزكية الشعور بالمستقبل ووضع الاحتمالات وتوقع الأحداث قبل أن تقع، والاستعداد لذلك، واتخاذ المبادرات حتى تختفي المفاجآت المتكررة في حياة المسلمين.

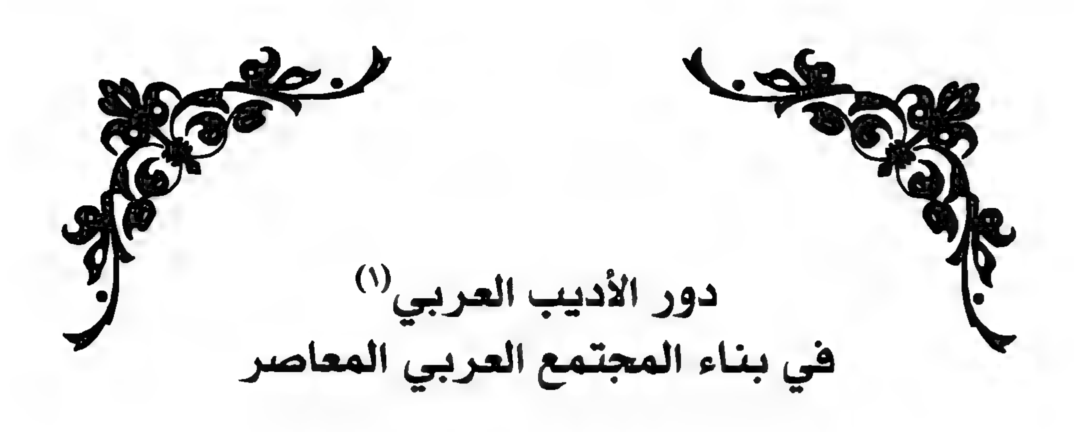
إن أولى خطوات التقدم الاجتماعي والنفسي ونبذ التخلف: التخطيط وتحديد الأهداف ثم استخدام أسلحة الأدب المقاتلة من قصيدة وقصة ومقال ومسرحية تسخَّر كلها لبناء مجتمع مسلم جديد متطور بعيد عن مظاهر التخلف. اهـ[1].

بقلم: الدكتور عباس محجوب



---

(١) مجلة الأمة، العدد ٢٢، السنة الثانية، شوال ١٤٠٢هـ، آب (أغسطس) ١٩٨٢م.



دور الأديب العربي[1]
في بناء المجتمع العربي المعاصر

إننا كلنا متفقون حينما نقول: إن الفكر والأدب في العالم العربي الحديث يعكسان فترة حاسمة في تطور المجتمع العربي، وأن مسؤولية الأدب في تكوين وتوجيه النهضة الفكرية لا يقل أهمية عن التسيير السياسي والكفاح المسلح، لا لحفظ كيان الأمة العربية والإسلامية فحسب، بل ولبعث نهضة شاملة تذهب به إلى الالتحاق بالحضارة العلمية والفنية المعاصرة لتقوم هي بدورها برسالتها الإنسانية العالمية.

ولكن الأفكار والعقليات كثيراً ما تختلف في تحليل وتصوير هاته النهضة مما يجعلنا نأسف لتشتيت الطاقات الفكرية كما نتألم تألماً مراً على بعثرة القوات المادية والسياسية والبشرية التي جعلت العالم العربي عرضة للمطامع التوسعية والاستغلالية. وهنا تظهر مسؤولية المفكرين العرب في تحليل حقيقتهم القومية ثم في تمهيد الطريق الذي يجب على المجتمع العربي أن يتبعه في سيره إلى القوة والرفاهية والرقي، ثم في توحيد الجهود الفكرية والبشرية التي لولاها لا يمكن للعالم العربي أن يحرز مكانته في الحضارة العالمية.

---

(١) في منطقة المغرب العربي لا يفرق الناس بين عبارات: عربي، أو مسلم، ومن.هذا المنطلق تحدث د. أحمد عروة رحمه الله الذي تولى رئاسة وإدارة الجامعة الإسلامية بقسنطينة قبل وفاته عن دور الأديب العربي، فهو لا يعني العروبة بمعناها العرقي كما يدل على ذلك ظاهر عنوان المقال. وإنما يعني العروبة بمعناها الإسلامي.

إن النهار يطلع على العالم العربي بعد سير طويل في ظلمات الانحطاط وفي قيود الاستعمار فيستيقظ ويجد نفسه يتخبط تحت ضغط مزدوج: ضغط الرجعية التي تزيف حق حقيقة رسالته التاريخية فيجعلها تنتمي إلى تيارات سياسية تستخدمها لأغراض استعمارية جديدة؛ وضغط الدوافع التقدمية التي تفرض عليه تغيير المجتمع وتطوره نحو الحضارة والرفاهية، ولكنها في نفس الوقت تغريه بالتخلي عن الحقائق الإنسانية والتاريخية والفكرية الإسلامية التي كانت سبباً في وجود الأمة العربية وفي تكوين وانتشار الحضارية العالمية الراقية التي تنتمي إليها.

يستيقظ العالم العربي ويرى نفسه متخلفاً في جميع المرافق الحيوية المادية منها والمعنوية، بينما تقدم العالم الغربي في حضارة علمية واقتصادية وفكرية رائعة تجعله يسيطر على العالم حتى في الوقت الذي تقهقرت فيه سلطته السياسية والعسكرية المباشرة. ونرى العالم العربي والإسلامي عامة يواجه في جميع حدوده الإقليمية والفكرية صدمات جبارة متوالية متعددة الأساليب لا تريد إلا القضاء عليه كقوة فكرية قادرة على التأثير من جديد في مصير الإنسانية مما يجعله يتساءل عن مستقبله العاجل ويكافح عن كيانه المهدد.

وللمسؤولين على مستقبل هاته الأمة، السياسيين منهم والمفكرين، أنظار متباعدة وآراء متضاربة يزيدها تعقداً اختلاف الأوضاع السياسية والاجتماعية والتفاوت في اكتساب العلوم والفنون، وذلك لأن الاحتلال الأجنبي والتأثر الفكري أعطى لكل قطر من الأقطار العربية صبغة قومية، ووضعاً سياسياً يختلف بهما عن الأقطار المجاورة له، وإضافة لتلك الصعوبات الوضعية والاقتصادية يواجه العالم العربي مشاكل أخرى شتتت الوحدة التاريخية وقسمتها أمماً ودولاً تتجاهل، بل وربما تتعارض تعارضاً حاداً ودامياً.

ومع ذلك، فإننا إذا أمعنا النظر ودققنا البحث نجد بأن الفوارق كثيراً ما تكون سطحية اصطناعية، لأن الوسائل التي تؤلف بين الشعوب العربية أكثر وأمتن من أسباب النزاع والتصادم، وأن التباعد السياسي والوضعي الذي هو وليد عصور الاستعمار والانحطاط لا ينفي وحدة العقيدة والشعور

والطموح في أعماق الشعوب العربية. وهذا ما يسأل عنه السياسيون والأدباء والمفكرون، وما تلح وتطلب به الجماهير العربية في كل مكان. إن أزمة الفكر ناتجة عن اختلاف التأثيرات الخارجية في عقول المواطنين العرب فنرى فيهم نوعاً من القلق والتردد بين تعلقهم بحضارة عريقة وتراث فكري أصيل وبين متطلبات الحضارة العصرية.

فمن المفكرين والمناضلين من يعتقد أن لا سبيل للعالم العربي أن يلتحق بالعالم الغربي إلا بتقليد الوسائل التي جعلت الغرب يتقوى ويترقى ويغير الأوضاع الاجتماعية ويتخلى عن الماضي بأكمله حيث يعتبرونه سبباً في التخلف والانحطاط، وذلك الموقف السلبي تجاه التراث العربي يجعلهم - المثقفون عامة - ينخرطون باستسلام مطلق في تيارات فلسفية غربية تتراوح ما بين الفلسفات التشاؤمية أو الفوضوية التي أنتجها الغرب الرأسمالي والفلسفات المادية الثورية التي استقرت في العالم الاشتراكي.

ومنهم من ينظر إلى كل ما يأتي به الغرب بمزيد من التحفظ والارتياب خوفاً من أن يوقع الغرب بمقدسات الأمة العربية التي طالما كافحت واستماتت في سبيلها.

والحقيقة أنه مهما كانت التحفظات من جهة، والجحود من جهة أخرى فإن مستقبل الأمة العربية يتكون في التقاء الحقائق، وتشابك الأفكار، وتصادم التيارات المختلفة، وأن من يريد نكران الواقع الإنساني، أو تعسف الإرادة الشعبية، أو تجاهل القوانين الكونية سيجد نفسه منعزلاً عن الركب البشري في صحراء خالية ويقتنع بلوامع السراب الكاذبة.

إنه على من يتقلد المسؤولية، ويتحمل الأمانة أن لا يبتعد عن حقيقة شعبه الواضحة، وحاجاته المادية المستعجلة، ومطامحه المعنوية السامية، أما إذا أراد أن يطبق في بلاده نظريات كانت منتهى تطور طويل في متجمع ما بدون واقعية فطنة وتحرز سليم، فإنه يصل إلى حلول مزيفة تنكر مصالح الشعب الحقيقية وينكرها الشعب بدوره إذا لم يرها تعبر على مطامحه وشخصيته. إن على الذين يريدون تغيير المجتمع العربي وتنميته ونهضته أن

يبحثوا على الحقائق التي يرتكز عليها مصيره والتي تختلف على وضعيات الأمم الأخرى مهما كان نجاحهم في البلاد.

وتلك الحقائق ترجع إلى ملتقى أطوار تاريخية ثلاثة تندمج في بعضها فتتمخض عن رجل الغد ذلك الرجل الذي نتصوره على حسب بيئتنا وأفكارنا واطلاعنا وتحليلنا للأوضاع الإنسانية، وربما نخطئ وربما نجيد، إنما المهم أن نباشر مسؤوليتنا القومية بالتبصر العميق لمصالح المجتمع، بالإخلاص لمطامحه العادلة السامية، وبالابتعاد عن التأثر السهل بالواقع النفساني والعصبيات الفكرية والإقليمية. وإن ذلك يتطلب مجهودات كبيرة متواصلة في الزمان ممتدة في المكان يشترك فيها جميع أفراد الأمة العربية.

ومن حظ الأدباء أن لهم في التعبير عن ذلك حق وقدرة، وكما يتأثرون بحقائق شعبهم فإنهم يؤثرون بدورهم في توعيته وترقيته وتوجيه نهضته بأحسن طريق.

ولنباشر باختصار عرض هاته الميادين الثلاثة التي تجتمع انفعالاتها في بعث النهضة العربية وهي:

- الأمة العربية في حقيقتها التاريخية.
- الأمة العربية في حاضرها وكفاحها.
- الأمة العربية في تطورها وانطلاقها.

إن للأمة العربية حقيقية تاريخية ذات وجهين متناقضين.

وجه إيجابي (فعال) حقق رسالة سماوية سامية، وخلق حضارة وضاءة طالما أنارت العالم في ميدان الفكر والعلم والأخلاق والآداب، مما جعل الحضارة العربية الإسلامية تسيطر مادياً ومعنوياً على أكبر ربوع العالم القديم فأخرجته من ظلمات الجاهلية والفوضى والاستعباد إلى عصر النظام والفكر والتقدم، وهذا مما كرر تارة حتى سئم ومما سكت عنه حتى كاد ينسى، ومن حق المفكرين المسؤولين عن تطور الأمة العربية أن يخرجوه من تحت أكداس الخرافات والادعاءات وأن يغسلوه من لطخات الأكاذيب

والتحريفات، لا ليجعلوه مرآة تعجب متقنع وتأمل رهباني سالب، وإنما لتنبعث فيه من جديد تلك الطاقة الكامنة الخالدة وتلك القوة المحركة الدافعة التي (تنشط الأجسام وتنور الأفكار وتقوي الإرادة) وتجعل الإنسان مؤمناً بمستقبله وبرسالته الكونية.

أما الوجه السلبي فيتمثل في عهد الانحطاط: انحطاط الفكر، وانحطاط المجتمع وانحطاط الفضائل، مما جعل الحضارة تتجمد، وتتدهور، وجعل الدول تتمزق وتتبعثر، وجعل الإنسان ينكمش، ويتخاذل، وجعل الأجنبي يطمع فيه، ويوقع به فكان عرضة لتكالب الاستعمار، وميداناً لتسابق الدول الغربية للاستيلاء عليه والتوسع فيه، واستغلال خيراته، وتدنيس مقدساته. لكن الأمور كما شاهدتها دول والليل يسلخ منه النهار. وها هي الأمة العربية تفتح أعينها وتجس أطرافها وتشعر بدواعي الحياة تنبض في عروقها ولكنها ترى الأعداء محلقين بها مستهترين بكرامتها، يمتصون دماءها، وينهبون ذخائرها فكان أول رد على ذلك هو الكفاح المسلح لتكسير الأغلال السياسية، ولطرد السلطة الاستعمارية، وهذا ما قامت به الشعوب التي تمكنت من انتزاع الاستقلال واستماتت في سبيل الكرامة والتحرر، وهي اليوم تبني مستقبلها (على أثر الناهب المنهزم) ولتؤسس مجتمعاً راقياً مزدهراً قوياً، ولكن للطامة سبعة رؤوس منها ما قطع ومنها ما زال يلهث طمعاً ويزيد غضباً ويدس خديعة لأن نهضة العرب والمسلمين تعرقل نهمها، وتهدد مصالحها، وتضيق معيشتها.

إن الأمة العربية تواجه اليوم فترة حاسمة من تاريخها، وحيث أنها في حين واحد تقاوم صدمات الاستعمار.

وتشيد مجتمعاً متقدماً.

وتبني نهضة فكرية راقية.

فإننا سنتعرض إلى هاته المظاهر التي ما هي إلا فروع من حقيقة الكفاح الواحد الذي يرمي إلى ضمان سيادتها وبناء مستقبلها.

إن الأمة العربية اليوم تكاد تقتصر على مقاومة الاستعمار الجديد في

جميع مظاهره: السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والفكرية، وما ملحمة فلسطين إلا فترة حادة دامية تواجه فيها أكبر معركة وأبشع مؤامرة يقوم بها الاستعمار العالمي ليسيطر على العالم العربي. وكلنا على يقين «مهما كانت التصريحات المزيفة والدموع الكاذبة» أنه لا يقصد من خلق دولة إسرائيل تنفيذ حكم عادل وتعويض اليهود عما أصابهم في حجر الغرب من خزي وتعذيب وإفناء، وإنما هدفه الأول هو نصب قلعة استعمارية في قلب العالم العربي تقوم له بالمرصاد، فتراقب تطوراته وتهدد كيانه وتعرقل نهضته وتلهيه عن مهامه المستعجلة للتشييد والتنمية وتشتت قوته، وتمزق وحدته، وتهين كرامته، وأخيراً لتسيطر وتخمد جذوته من قبل أن تكون لهيباً ونوراً. إن متطلبات الكفاح لتحرير فلسطين تفرض الجهود الجبارة والتضحيات الكبيرة والتناسق الدقيق لأن وراء الزحف العسكري نوايا شريرة متنكرة بملابس النفاق والتقارب والتعاون ولها أهداف عالمية شاملة لا يسمح للمسؤولين وللمفكرين أن يتجاهلوها أو يخترقوها، فإن الهدف الذي ترنو إليه الشعوب العربية هو أن يكون المصير مصيرها، لا مذاباً ولا منساقاً إلى أي تيار فكري أو سياسي يدعوها إلى الاندماج فيه، والذي مهما كانت فضائله ومزاياه سيؤدي إلى نوع جديد من الاستيلاء السياسي، والاستنساخ الذاتي والسلب الفكري، مما يتنافى مع حقيقة الأمة العربية ومطامحها الخاصة، وهنا يتضح ويتأكد دور المفكرين والأدباء في تأدية رسالتهم لأنهم يخطون طريق المستقبل، وينيرونها لشعوب تتأهب للزحف الجديد الشامل والتي هي في حين واحد متمسكة بحقيقتها التاريخية ومؤمنة بمستقبلها الكبير المنطلق.

ولكن يمكن لذلك المستقبل أن يبنى بمعزل عن الحضارة العالمية المعاصرة، فإننا طوعاً أو كرهاً نتأثر بها كما يتأثر الضعيف بالقوي. فما هو إذن موقف الضعيف من القوي؟

إن في القوة ضعف، وفي الضعف قوة، فإذا كانت الأمة العربية مع ضعفها تشعر بقوة إرادتها وبالإيمان بنفسها فإنها تقتبس من العلوم والفنون والنظم العالمية ما تنمو به وتزدهر بقوة وفعالية لا تفشل ولا تقهر. وإذا كان موقفها موقف الإعجاب المستسلم، والتبعية (الباهتة) فإنها تستعبد من جديد

ولو حلقت بالصواريخ المستوردة ولو تدفقت فيها أودية من النفط والتعدين.

إن موقف الضعيف هو أن يعمل ليكون قوياً بنفسه وبإرادته، وبساعده وبعقله.

إن موقف الأمة العربية هو أن تفهم الحقيقة التي مرت بها لا حقيقتها الداخلية فحسب، ولكن الحقيقة العالمية التي نعيش في وسطها، وأن تحلل الأوضاع الراهنة بمنطق وسداد، لا متعصبة لما لديها، ولا مستسلمة لما تستعيره من غيرها. لا تعظم النفوذ الأجنبي حتى تستسلم إليه طوعاً ولا تتجاهل حتى تنقاد إليه كرهاً.

وإننا اقتفاءاً لهاته الحقيقة وامتثالاً لهاته الحكمة سنقدم الآن عرضاً بسيطاً وتحليلاً مختصراً لأهم التيارات الفكرية التي يتألف منها وفيها مصير هاته الأمة وتلك التيارات مهما اختلفت وتناقضت فإنها راجعة إلى تطور الحضارة الغربية من النواحي العلمية والاجتماعية والفلسفية، فالمجتمع العربي تأثر ويتأثر بالغرب ويقلده في كثير من مظاهره: السياسية والفكرية والمعاشية ويتبعه ويحاول في آن واحد المحافظة على كيانه ومعنوياته والالتحاق بموكب الحضارة الغربية. لذلك ظل في اضطراب دائم ولربما يظهر لنا أن نميز بين مرحلتين:

- مرحلة كفاح ضد الاحتلال الأجنبي التي كانت سياسية وعملية أكثر مما كانت فكرية اجتماعية.

- ومرحلة الاستقلال، وأعني بذلك أنه في المرحلة الأولى كان الهدف الرئيسي للأمة العربية هو التخلص من قبضة الاستعمار بالنضال السياسي والمقاومة المسلحة. وإذا كان لتلك المرحلة جانب فكري فقد كان يتمثل في الحركات التجديدية والإصلاحية التي قام بها أمثال الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس وغيرهم، وإذا أردنا الاختصار فيمكن لنا أن نقول:

إن المرحلة الأولى كان لها هدفان: الاستقلال في طابعه السياسي والقومي من جهة، وإحياء التراث الفكري وتجديده حسب متطلبات العصر الحديث من جهة أخرى.

أما المرحلة الثانية، فكانت أحرج مشاكل وأشد تعقداً من الناحية الفكرية، لأنها تأثرت كثيراً بالتيارات الجديدة التي ظهرت في العالم في النصف الأول من القرن العشرين حيث طرحت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بحدة لم تعرف من قبل وصار هدف المسؤولين العرب بعد الاستقلال هو تجديد الاقتصاد وتنمية الإنتاج وتنظيم المجتمع، وذلك مهما كانت المناهج المتناقضة التي اختيرت لها هنا وهناك وأدت إلى سياسات متباعدة وأساليب متنافرة كثيراً ما تتأثر بالضغوط والمصالح الأجنبية وكثيراً ما تبعد عن الحقيقة ومطامح الشعوب العربية.

وفي هذا الصراع الشديد وفي ملتقى الزوابع الفكرية العاتية ماذا كان موقف الأدباء والمفكرين؟

إننا نقول: بصراحة، لم يكونوا في مستوى النضال الفكري الجبار الذي يصادمه مجتمعهم في بناء مصيره. وإذا وجدنا في النصف الأول من هذا القرن مفكرين ومجددين قاموا بدور زمني بارز في توجيه الكفاح السياسي الفكري، فإننا نكاد لا نجد في يومنا هذا من يعطي لمجتمعنا فكرة فلسفية واجتماعية تعبر عن حقائقه بصدق وواقعية وتثير مطامحه السامية، لتنبعث منها أمة طلائعية قادرة على تحمل رسالتها الخالدة، بل كثيراً ما نجد في الكتب والصحف والمجلات والأفلام التي تصدر بالعربية ترجمات حرفية أو معنوية للإنتاج الأدبي الأجنبي الذي يتدفق علينا بإسهاب ذات اليمين وذات الشمال.

نعم. إنه يوجد كثير من الأدباء العرب من يحاولون إحياء التراث وانبعاث الفكر العربي، ولكن يباشرونه غالباً بأساليب تقليدية مختلفة لا يمكن لها أن تؤثر تأثيراً حقيقياً في عقول تطورت مع العلم والمنطق الحديث، وإذا كانت تخاطب القسم المتخلف من طبقات الشعب فإنها لا تقنع عقول النخبة العلمية والشباب المتطلع الذي استنار بالعلوم الحديثة، والذي يلفت أنظاره للإبداع والإنجاز والرقي والرفاهية التي أحرز عليها العالم الغربي في جميع الميادين الفكرية والحيوية.

ومن جهة أخرى، نجد أدباء ليسوا بأقل عدداً تشبعوا بفلسفات الغرب الحديثة ولم يروا للفكر العربي الإسلامي آفاقاً مثلها وضربوا صفحاً محتقراً على ما أنتجه الفكر العربي في تجربته المثمرة وفي تصاعده البشري وفي تفوقه الفكري والروحي وتشبثوا بالجديد وأغراهم ما في الجديد من بدائي قديم فانقلبت المعاني، وانعكست الصور، حتى ظن الإنسان أنه سيسيطر على الأرض إذا تخلص من جبروت السماء. فاستولى على صرح كبريائه وصاح: «لا إله إلا أنا والأرض ملكي والكون تحت سيطرتي وعلمي»، ظن أنه تحرر وأنه كان من قبل سلبياً ومن يا ترى سلبه؟ فكرة الإله الخالق التي نشأت في مجتمع الجهل والخوف والغرور (كما توهم المقلدون للغرب).

وهكذا بقي الأديب العربي متشبثاً بدخان الماضي أو تائهاً في سراب ينظر إلى حقيقة أمته من نافذة طمسها نسيج العنكبوت أو من مرصد متباعد متعالي، وصار يحكم عليها بمقاييس استعارها من دنيا غير التي يعيش ويكافح فيها. ويجهل حقيقة الشعب، والشعب بدوره يجهله ويتوقاه، وليس في هاته الطريق ولا في تلك ذلك الموقف الواقعي الحكيم الذي توحي به الأمة العربية من أعماق شعورها ومطامحها لقادتها ولمفكريها.

إن مستقبل الأمة العربية مستقبل شامل. والإنسان العربي الذي يترجاه الغد ليس إنساناً اكتسى بدلة استوردها من الشرق أو الغرب، وإنما هو إنسان متجدد منطلق يتغذى من تربة وطنه، ومن تراث أمته وفي الوقت نفسه يقتبس من محتويات الحضارة الحديثة. رجل يصل بين الماضي والمستقبل المرتجى، رجل يجمع بين متطلبات المادة ودوافع الروح يتصل بالتيارات الفكرية التي انبثقت في العالم ويتفتح بنفسه لاستنباط فلسفة واقعية إنسانية شاملة يكون بها شاهداً على الناس وشاهداً على نفسه، وكما أنه لا يجور على الاستقلال الاقتصادي باستيراد المصنوعات والمنتوجات الأجنبية وإنما باستعمال إمكانياته وبتنمية إنتاجه، فإنه لا يتمكن من بناء مجتمع عربي عادل راقي متفتح إلا إذا أخذ من نفسه معنوياته وخط من حقيقته منهاجه الذي يضمن للمواطن كرامة ورفاهية وعدلاً وانطلاقاً مادياً وثقافياً وفنياً وأدبياً. وإن هذا التمسك بالأصالة العربية في جميع محتوياتها ومميزاتها لا يمنع بل يؤكد

الدور الذي تلعبه في مساندة وتدبير الحركات العالمية العادلة التي تسعى لتحرير الشعوب وضمان العدالة والرفاهية والحرية لجميع الشعوب، وإنها لقوية في ذلك برسالتها الأخلاقية السامية التي جعلت من أصالتها أنها تقدس كرامة الإنسان وتحارب أساليب الاستعباد والاستغلال والاحتقار التي هي من مظاهر السلبية البشعة التي لم تستطع الحضارة الغربية أن تتخلص منها. ولكن الأمة العربية لن تلعب دورها العالمي ولن تقوم برسالتها الإنسانية إلا إذا احترمت مقوماتها واعتزت بشخصيتها وانطلقت في تشييد وتجديد وتوحيد قوتها المادية والمعنوية. كما أنها لن تقوم بواجباتها نحو مجتمعها إلا بتغيير النظم الاجتماعية لتكون مستخدمة لترقية الإنسان وتحريره من الاستغلال ومن الفقر ومن الجهل ومن الخوف.

إن النقلة الشاملة التي تطمح إليها الأمة العربية ليست تقليداً للوضع القديم ولا تقليداً للحاضر الأجنبي، ولكنها تجمع بين الوفاء لنفسها وبين الانطلاق السليم وتقتبس من الحضارة المعاصرة اقتباساً لا وصاية فيه ولا انتداباً ولكن لتتمون من العلوم والفنون والنظم حتى تلتحق بموكب الرقي من دون أن تنكر خاصياتها، بل ولتؤكد معنوياتها مع تجديد أساليب الإبداع والتعبير، تتأثر بالحضارة العالمية في محتوياتها الراقية وتؤثر فيها بما تحمله هي من رسالة فكرية وروحية وأخلاقية لا يستغني عنها عالم اليوم مهما عظمت إنجازاته واختراعاته.

إننا نتأكد أن الحضارة المعاصرة الغربية ضعيفة في قوتها معرقلة في سيرها مستعبدة في حريتها سلبية في رفاهيتها المادية والثقافية، وإن من شأن الحضارة العربية الإسلامية أن تعطيها الانطلاقة الخلقية والفكرية السامية التي تتركز على التوازن الواقعي فتعطي لحياة الإنسان ووجوده الكوني معنى متكاملاً يجمع بين المتطلبات الحيوية والدوافع والروحية بين زمنية الإنسان وأبدية الأهداف الكونية.

إن للأمة العربية الإسلامية طاقات جبارة مادية وبشرية ومعنوية تكاد لا تشعر بها، وأن للأمة العربية الإسلامية عالمية ترمي لترقية الإنسان في أحسن

ما تملكه وأسمى ما يهدف إليه، وإن للأمة العربية أعداء كثيرون في داخلها وفي خارجها يريدون أن ينزعوا منها خيراتها المادية وفضائلها الأخلاقية، وطاقاتها الروحية في صراع قديم تتجدد أساليبه وأغراضه، وما غرس دولة إسرائيل المزيفة في تراب المقدس إلا فترة حاسمة من معارك متوالية، ولن تنتصر فيها الأمة العربية إلا بتوحيد الجهود وتعزيز المعنويات القومية والإيمان بعدالة قضيتها والتغلب على التناقضات السياسية والاجتماعية التي تبعثر طاقاتها وتبث العداوة فيما بينها، وأن نفساً مؤمنة بحقها صامدة في إرادتها أقوى من فيلق يكسب الصواريخ والطائرات ولا يثق بنفسه.

وإن ألفاً من المقاومين الفلسطينيين يهددون حياة إسرائيل أكثر من مائة مليون من العرب متشائمين ومتخاذلين. تلك هي الحقيقة التي يعبر عنها منطلق الكفاح وتلك هي الأساليب التي تسمح للمستضعفين في الأرض أن يتغلبوا وينتصروا على العمالقة الظالمين. وتلك هي الرسالة المقدسة التي يشترك فيها الأدباء والمفكرون والسياسيون والتي تهدف إلى بعث هاته الأمة بعدما استكانت وتجمدت ونست رسالتها في ليل طويل من التخلف والاستعباد.

وتلك هي الحقيقة الأساسية التي من حق الأديب العربي أن يشعر بها وينطلق بها ويغذيها بعبقريته وفنه وأسلوبه ليخلق لها جواً ملائماً خصباً يوحي، ويعمل لانبعاث النهضة الإسلامية لا التي يغرسها في آذان صاغية مسلوبة أساتذة متنكرون، متعلقون بالغير ويسعون لإخماد النهضة التي ينطق بها واقع الأمة والتي تندفع من صميم السرائر الشعبية ومن أعماق حقيقتها التاريخية[١].

بقلم: د. أحمد عروة



(١) مجلة الأصالة، العدد ٧، السنة الثانية، صفر - ربيع الأول ١٣٩٢هـ/ مارس - أفريل ١٩٧٢م.



الشعر دوره في أخلاق المجتمع

رأي الشريعة فيه

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾[1] صدق الله العظيم.

إنه لمن دواعي الفخر حقاً أن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية في هذا البلد الإسلامي العزيز، قد وجهت عنايتها إلى موضوع غاية في الأهمية والخطورة، كان له الأثر الأكبر في تلون العصور وتبدل الأحوال على مدى التاريخ الإسلامي فسجلته في قائمة الأبحاث التي يركز عليها البحث في هذا الملتقى الإسلامي المبارك وهو موضوع الشعر والأدب ودوره في أخلاق الأمة، وذلك حتى يناقش فيه ليحصحص الحق الذي لا بد وأن يتبع. والحقيقة أن الموضوع في حد ذاته لا يخلو من الطرافة أيضاً، فما أحوجنا عملياً أيها السادة الكرام أن نعيش برهة من الزمان في جو من الامتزاج الروحي والعاطفي. إذ أن الأدب من طبيعته أنه يبهج الفكر ويطيب النفس والنفس إن طابت تغني، فهو مظهر من مظاهر العاطفة الإنسانية طالما أشار إلى الحقيقة وأفاء على مريديها ظلال المعرفة والوجود. وطالما خلق

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

من أكوان الجمال عوالم الإنسان، اللهم إلا أن ينقلب الوضع فيلقى الشياطين في أمانيهم.

ولما كان الشعر بطبيعته يتكون من عناصر تعتبر العاطفة والخيال أساسين مهمين فيها، وكان الإنسان بطبيعته عاطفياً ـ فالعاطفة لا تقل عن العقل في التعامل مع الحياة ـ وكان الإنسان مفتوناً بالخيال وممالكه العجيبة، فقد مال إلى الشعر من أقدم العصور حتى أن الحكم لم يصدر بعد قطعياً في أسبقية أي الفنين على الآخر، الشعر على النثر أو العكس. والواقع أن الشعر قوة روحية قادرة على التحويل والتبديل. وقد قيل في تعريفه: «بأنه صناعة يؤلف بها الشاعر المقدمات التي تنشأ عن الوهم[1]، فيؤلف منها القياسات المنتجة ويجعل المعنى الصغير كبيراً والمعنى الكبير صغيراً ويرد الحسن في زي القبيح ويجلو القبيح في صورة الحسن ليثير بالإيهام القوى الغضبية والشهوانية فيحدث للطباع انقباض وانبساط وتنشأ في العالم الأمور العظام»[2].

فللشعر وللقياس الشعري قوة لا توجد في النثر، بل ولا تعادلها في القوة الخطابية وإن نشأت هي أيضاً عن مقدمات غير بديهية. وهذا هو الأمر الذي جعل الشعراء يقتبسون أغراضهم من مقتضيات الحال وواقع الحياة. وليس هناك من دليل أسوقه على قيمة الشعر إلا ما ورد من اختلاف العلماء في الحكم عليه عبر التاريخ فقد بالغ قوم في وصف وحسن أثره، حين نقم الآخرون عليه واعتبروه بدعة[3].

---

(١) عبارة «الوهم» في هذا التعريف المهم للشعر لا تؤدي المعنى المطلوب، وعبارة «الخيال» أولى منها وأهم، لكون الخيال عامة، إبداع محض، بينما الوهم، قد يكون مجرد خطإ غير مقصود، ولا يؤدي معنى الخيال، وهو الأليق بالشعر.

(٢) وقال الآخر: الشعر هو الكلام الموزون المقفى ويغلب فيه الخيال المطلق على التفكير الصحيح.

(٣) قال ابن قتيبة: «الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها وديوان أخبارها ومستودع أيامها والسور المضروب على مآثرها والخندق المحجوز على مفاخرها والشاهد العدل يوم النفار».

وقد ضرب أمثلة في قوة تأثير الشعر على النفس أضرب الصفح عنها حفظاً للوقت ورعاية لتركيز البحث، ولكن لا أرى مانعاً من ذكر إحدى هذه الطرائف.

يقول النظامي العروضي:

«سئل أحمد بن عبدالله السجستاني كيف ارتقيت إلى عرش الإمارة وكنت مكارياً فقال: قرأت يوماً شعر حنظلة بادغيسي إذ يقول ما معناه: لو أن العظمة بين أنياب الأسد أتقحم وأنتزعها من بين أنيابه، فإما بلغت الشرف وإما أن تموت ميتة الرجال»[١].

قال فأثر فيَّ هذا الشعر فتركت شغلي والتحقت بآل ليث. ثم حدث أن تدخل الرجل في شؤون الملك وتقلبت به الأحوال حتى تولى الحكم على بعض البلاد الإسلامية الشرقية، وكان السبب لهذا الانقلاب الروحي ذينك البيتين. وإلى جانب هذا كثيراً ما نرى جنايات الشعر على المجتمع والإنسانية من النواحي الأخلاقية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو أنه: هل لنا أن نضع الشعر في قفص الاتهام فنخاصمه ونحكم عليه ونقول: إن الشعر سبب لانحلال أخلاق الأمة وقتل روحها وسوقها إلى الهمجية الهدامة لشخصيتنا؟ وأنه عامل سلبي في سبيل نهوضها؟

أو نحكم له ونقول: إن الشعر علة قوية في تعزيز أخلاق الإنسان[٢]، وشحذ همته وارتقائه إلى قمة المجد والشرف، وعامل إيجابي في نموها وازدهارها؟

---

(١) مهتری کربکام شیر درست ... شو خطر کن زکام شیر بجوی
یا بز زکی وعزو نعمت وجا ... باجو مردانت مرك رویاروی

(٢) ويقرب هذا مما قاله العتالي:
فإن جسيمات الأمور منوطة ... بمستودعها في بطون الأوارد

أعتقد أنه لمن التعسف أن نضع الشعر، بل وكل ما له صلة بالعاطفة والروح على قلب هذا الميزان الذي يفصِّل بمؤشر قائم بين نقيضين كاملين، لأن الشعر في حد ذاته وسيلة للتعبير عن العاطفة، فإن كان هناك سؤال بعد ذلك فهو الواسطة بين الشعر ومجتمعه، فالشعر بجملته ومقاطعيه وألفاظه ومادته مرآة تتجلى فيها نفسانية الشاعر، وسجل تاريخي عن المجتمع الذي نشأ وترعرع فيه، ويحكي عن مبلغ رَقي هذا المجتمع في مدارج الشرف والتقوى والعفاف، أو يرسم درجة انهماكه في الشهوة والبهيمية. أو بعبارة أخرى تنعكس في الشعر سريرة الشاعر وسريرة أبناء جنسه. والشعر ليس إلا تعبيراً عن الخلق الذي يسود على مجتمعه صلحت أم فسدت.

دعنا ننظر إلى الشعر العربي خاصة وندرس البيئة التي نشأ فيها الشاعر وتأثيرها لنرى مرآة صادقة تلائم أخلاق هذه الأمة. فالشعر الجاهلي مثلاً ميزته الأنفة وصدق اللهجة والبعد عن التكسب والتكدي والاعتزاز بالشخصية والعصبية، بيد أن الشعر المخضرم يمتاز بنفحة دينية نفحه بها الإسلام بعد ظهوره، فنلمس فيه روح الدين ونعيم الآخرة ومغفرة الرب ورعاية حقوق المسلم والتنزه عن الخلق السيئ، (ومن يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما تضمنه كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم، ولشعراء المدينة القدح المعلى في هذا الميدان فهم الذين وقفوا مع الرسول ﷺ منذ نزوله بين ظهرانيهم يدافعون عن دعوته مصورين لهديه الكريم)[1].

---

(١) وإليكم نماذج من شعر هذا العصر:

أعـذنـي ربـي مـن حـصـر وعـي ... ومـن نـفـس أعـالـجـهـا عـلاجـا
ومـن حـاجـات نـفـس فـاعـصـمـني ... فـإن لـمـضـمـرات الـنـفـس حـاجـا
وأنـت ولـيـهـا فـبـرئـت مـنـهـا ... إلـيـك ومـا قـضـيـت فـلا خـلاجـا

(نمر بن تولب)

إنـي وجـدت الأمـر أرشـده ... تـقـوى الإلـه وشـره الآثـم

(نمر بن تولب)

=

لكن عندما فتحت خزائن الأرض على المسلمين، وانقلبت الخلافة إلى ملك وسلطان، وتمركز الذهب والنقود تحت أريكة العرش، وفتحت سوق المواهب استعبدت ملكات وفتحت أبواب المشارق والمغارب على عالم لم يعد عربياً، وإنما عالم إسلامي جديد بما لديه من أفكار وقيم، فإذا بالمجتمع غير المجتمع.

فكانت نتيجة ذلك أن الجراثيم الخبيثة تمكنت من نفوس المسلمين فشغلتهم عن الحق بالباطل، إن كثيراً من المسلمين أترفوا ترفاً شديداً إذ أحاطوا أنفسهم بكل مظاهر النعيم من قصور باذخة ومطاعم وملابس أنيقة وجوار ورقيق. وإذا غرقت الأمم في الترف يتورط كثير من أبنائها في آثام مختلفة من اللهو والمجون.

وطائفة من الشعراء ـ وهم الذين يهيمون في كل واد ـ لما رأوا أن سوق الفسق والمجون ووصف الخمر والاستهتار والعهر أنفق الأسواق مالوا إلى الجهر بالسوء من القول وبالغوا في الإكثار من هذا النوع من الشعر، لأن من يمتهن المدح لا يهمه إلا السوق التي يبيع فيها سلعته فيقول ما يحب من يغليها ثمناً كائناً ما كان فخلعوا رداء الحياء، فكان شعرهم صورة لتلك البيئة المريضة الأخلاق، والعصور تحدثنا عن عمر بن أبي ربيعة، وبشار بن برد، ومعاوية بن أرطأة، وعبدالرحمن بن الحكم، وأمثالهم. يقول الأصبهاني: «ذكر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبي ربيعة عند أبي عتيق»، فقال ابن أبي عتيق: «لشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لشعر، وما عصى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر بن أبي ربيعة».

= إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
إن كان في الناس سابقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أهدى لهم مدحي قلب يؤازره ... فيما أراد لسان حائك صنع
(حسان بن ثابت)

وقد أفرطوا في الخلاعة والمجون وترك العفة والاستهتار إلى حد لم يستطع الحاكم أن يحتمله، ولم يرَ بدًّا من كبحهم. فمنعهم من الإكثار من هذا النوع من الشعر. يقول أبو الفرج أيضاً: أخبرني هاشم قال: حدثنا أبو غسان دماذ قال: سألت أبا عبيدة عن السبب الذي من أجله نهى المهدي بشاراً عن ذكر النساء قال: كان أول ذلك استهتار نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال سوار بن عبدالله الأكبر ومالك بن دينار: ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى وما زالا يعظانه. وكان واصل بن عطاء يقول: إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد. . .، ولم تكن الحالة في البلاد غير العربية أحسن من البلاد العربية. فإذا مضينا إلى أصبهان وخراسان وسجستان وجدنا كثيرين من الأمراء والأكابر المترفين ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾[1]، كانوا يتورطون في الفسق والمجون ويقربون من ينادمهم في معاقرة الكؤوس، وينفقون أغلى الأموال وأنفس الأشياء على الشاعر الذي يصف الخمر بأدق توصيف أو يشبه بالنساء بأقبح صورة فشاعت الأغراض الشعرية الرديئة الخبيثة الدواعي بين الناس وشغلتهم عن الحق بالباطل. إذاً فمن المدين؟ وعلى من يحكم في هذه المحكمة؟ ومن المعتدي على المثل الأخلاقية والقيم الإنسانية؟ هل هو الشعر؟

كلا أيها السادة. ليس الشعر إلا لغة الإنسانية في أتم إرهافها وشحذها وأتم دقتها وشحنها، والشعراء ليسوا إلا أقدر الناس على استعمال اللغة للتعبير عن تجاوبهم وعواطفهم التي يمارسونها مع الكون المحيط بهم والمجتمع الذي يعيشون فيه والحياة التي يحيونها والنفس الفردية التي يصارعها كل منهم وما يصاحب هذا من المشكلات والرغبات والمخاوف والآمال. أو قل بعبارة أخرى أنهم أقدر الناس على التعبير عن إنسانيتنا الكامنة.

إنما المجرم هو المجتمع المريض والبيئة الفاسدة التي تفسح المجال لابن أبي ربيعة وبشار في سالف الزمان ومن اقتدى بهما مدى التاريخ وتفتح

---

(١) الإسراء: ١٦.

أحضانها لأخلاقهم في هذا العصر، والتاريخ كما يقال: يعيد نفسه. لا أيها السادة. (إذا وجدتم شعراً سخيفاً يدعو الناس إلى الفسق بدل التقوى، وإلى الشهوة بدل العفة، وإلى اليأس بدل الرجاء، وإلى الذل والعبودية بدل العز والرفعة، فلا تلوموا الشعر فقط، بل لوموا أمة تبعت هواها وسخر الشيطان قلبها وقواها، لوموا فئة صغرت همتها وتضاءلت عزائمها وفسدت أخلاقها، لوموا قوماً اجتزأت بالقليل وقنعت من دهرها بالدون، لوموا أمة ركضت إلى الدعة قبح الله الدعة).

والآن ننتقل إلى النقطة الثانية من البحث أعني الشعر وأثره من وجهة نظر الإسلام أو موقف الشريعة الإسلامية من الشعر.

وقد سبق لنا، أن القول بالشعر غريزي للإنسان ولا يمكننا أن نمنعه عنه، فإذا كان هذا صحيحاً فلا يمكن أن نقول: إن الإسلام حرم هذا الأمر الغريزي على الإنسان، إذ لم تكن الحركة الإسلامية متنكرة للحياة العاطفية، ولا متجهمة لها ولم يكن من شأنها أن تهمل هذا الجانب من حياة الإنسان، محتقرة له، أو مزدرية بشأنه، وإنما كان من همها دائماً أن تستثير هذه الحياة العاطفية وأن تجعل منها قوة دافعة نحو الخير العام والصلاح المشترك. وأن يحوّل الشعر من سلاح في يد العصبية الحمقاء إلى سلاح في سبيل دعوة الحق[1].

ولولا خِلالٌ سنها الشعر ما درى بناة المعالي من أين تؤتى المكارم
يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ونرضى بما يقتضي به وهو ظالم

وأنت تجد تأثير الشعر الرائق في نفسك فوق أية دعاية وتبليغ. والحق أن هذا من الشعر يوقظ الأمة ويعزز أخلاقها ويبث فيها روح الحياة ويسدد خطاها للقفز إلى الأمام.

---

(١) فكم من أبحاث راقية من علمي الكتاب والسنة ومن العبر والموعظة الحسنة والأخلاق يحتويها الشعر. أضف إليه ما فيه من فنون الأدب والشعر، ديوان العرب ومواد اللغة ومباني التاريخ. فإذا كان الشعر حافلاً لهذه النواحي فهو مأرب المجتمع.

فأي رجل عربي، بل وأي مسلم ذاك الذي يقرأ هذه القطعة ولا يثور لانتهاك حرمة الإنسان في فلسطين العزيزة ولا يطمئن في نفسه بأن جولة الباطل ستزهق، وأن دولة الحق ستعود ويورث الله عز وجل أرضها عباده الصالحين.

يا فاتح القدس خل السيف ناحية ليس الصليب حديداً كان بل خشبا
إذا نظرت إلى أين انتهت يده وكيف جاوز في سلطانه القطبا
علمت أن وراء الضعف مقدرة وإن للحق لا للقوة الغلبا

أو يمر على هذه القطعة لشاعر الأرض المحتلة التي تقطر منها دم الشرف والكرامة والتي تزخر ببطولات الجرائم الآثمة ثم لا يجد نفسه فخوراً لما قدم أبناء أمته من التضحية ليعلو بها صرح العروبة والإسلام:

لا تدفني موتاك
خليهم كأعمدة الضياء
خلي دمي المسفوك
لافتة الطغاة إلى المساء
خليه ندا للجبال الخضر
في صدر الفضاء
لا تسألي الشعراء أن يرثوا زغاليل الخميلة
شرف البطولة إنها
خطر على أمن القبيلة.

ولقد كان الشعر في العصر النبوي والخلفاء يذهب في ميادين الحرب مع صوارم الشجعان جنباً إلى جنب، وكان الرسول ﷺ يحث الشعراء على هذه الناحية ويأمرهم بالاحتفاظ بها، وكان يراه نصراً للإسلام وجهاداً دون الدين الحنيف، وكان يصور للشاعر جهاده وينصح به ويقول: **«اهجوا**

بالشعر، **إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمد بيده، كأنما تنضحونهم بالنبل**»، وفي رواية: «**والذي نفس محمد بيده، فكأنما تنضحونهم به نضح النبل**» وفي رواية: «**والذي نفس محمد بيده، فكأنما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم من الشعر**»، وكان ﷺ يرتاح لشعرهم، كما ارتاح لشعر كعب بن زهير لما أنشده في مسجده الشريف لاميته التي مطلعها:

بانت سعادة فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

فكساه بردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم وهي التي يلبسها الخلفاء في العيدين، ولما أنشده النابغة الجعدي قوله:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له   بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال ﷺ: «**لا يفضض الله فاك**».

وهذه الطائفة من الشعراء هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾[1]. وروي أنه لما نزلت الآية: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾[2]، جاءت عدة من الشعراء إلى رسول الله وهم يبكون قائلين: إنا لشعراء، والله أنزل هذه الآية، فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال: «**أنتم**». ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «**أنتم**». ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ قال: «**أنتم**». وفي هذا النوع من الشعر قال ﷺ: «**إن من الشعر حكماً**»، وهكذا كان الشعر موضع اهتمام لدى الأئمة والعلماء يعدونه دعاية روحية ونصرة للدين وكانوا يعظمون الشعراء، ونرى كثيراً من العلماء والفقهاء من شتى المذاهب الإسلامية نظموا القريظ ويرغبون طلابهم فيه، إذاً فمن الخطأ أن ننخدع فنأخذ بظاهر بعض الآيات الكريمة، أو نعتمد على بعض الروايات التي

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤.

وردت في نوع خاص من الشعر كقوله ﷺ: «**لإن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً، خير له من أن يمتلئ شعراً**»، وذلك لأن شعراء مكة في عصر النبي ﷺ كانوا لسان مقاومة زعمائها أمام تعاليم الإسلام المقاومة التي لقيها الإسلام. وبعضهم كانوا دعاة للترف واللهو والخمر والتشبيب بالنساء.

والآن أستسمحكم أيها السادة مع كل التواضع أن ألخص ما ألقيت على مسامعكم الشريفة كل الاختصار:

أولاً: قد رأينا أن للشعر أثراً فنياً في النفوس لا يعادله في الغالب أي قول، أو بعبارة أخرى أية صناعة منطقية غيره.

ثانياً: وظيفة الشعر كما يحكم بها المنطق الصحيح وتقره الشرائع السماوية أن يكون في خدمة المجتمع وأن يستخدمه الشاعر لتعزيز أخلاق أمته.

ثالثاً: لو رأينا أن الشعر عدل عن وظيفته أعني صالح الحياة ليس لنا أن نلوم الشعر والشاعر فقط بل يجب علينا أن نلوم أنفسنا لأننا ندع المجال لهؤلاء ونشجعهم على عملهم. فالمقصر نحن أيضاً فلا بد حينئذ من عمل جماعي مشترك للقضاء على كل ما له أثر في انحراف الفكر عن الأصول الدينية الثابتة والقيم الأخلاقية الإنسانية. وليست المسألة وقفاً على الشعر أو الأدب فقط، بل هي تتناول كل ما من شأنه أن يستخدم الوجدان الإنساني لتوجيه الحياة في ناحية خاصة.

وإذا كانت المسألة في مرحلتها الأخيرة هي تفاعل مشترك بين المجتمع والشاعر، فالمجتمع يؤثر في الشاعر والشاعر يؤثر في المجتمع، فمسألة قيمة الشعر بالنسبة للمجتمع مسألة تحكم فيها الظروف والأحوال فقد كان الشعر ولا يزال ذلك السلاح ذو الحدين الذي أينما وجهته قطعه[1].

بقلم: د. جعفر شهيدي
أستاذ الأدب العربي بجامعة طهران
- إيران -

---

(١) الأصالة، العدد ٢٧، السنة الرابعة، رمضان - شوال ١٣٩٥هـ/ سبتمبر - أكتوبر.





مصادر البحث

١ ـ **القرآن الكريم**: آية: ١٧ ـ ١٨، سورة ٣٩.

٢ ـ **مقالات أربع**: عبدالوهاب عزام ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٨هـ، ص٣٥.

٣ ـ **أدباء العرب في الجاهلية والإسلام**: بطرس البستاني، ج١، ص٥.

٤ ـ **عيون الأخبار**: ابن قتيبة، طبع دار الكتب المصرية، ج٢، ص١٨٥.

٥ ـ انظر: **مقالات أربع**، ص٣٤.

٦ ـ انظر: **فوات الوفيات**، طبع مصر، ج٢، ص١٣٩.

٧ ـ **أدباء العرب**: ج١، ص٢٢٩.

٨ ـ **تاريخ الأدب العربي**: العصر الإسلامي، دكتور شوقي، ج٢، ص٦.
وانظر: شوقي، شعره الإسلامي الدكتور ماهر حسن فهمي، ص٢٣ ـ ٣٢.

٩ ـ نفس المصدر، ص٥٩.

١٠ ـ نفس المصدر، ص٣٧٦.

١١ ـ **الأغاني**: طبع دار الثقافة، بيروت ١٣٧٤، ج١، ص١١٣ ـ ١١٤.
وانظر: **تاريخ الشعر العربي**، نجيب محمد البهبيتي، دار الكتب، ص١٩٥.

١٢ ـ **الأغاني**: ج٣، ص١٧٦.

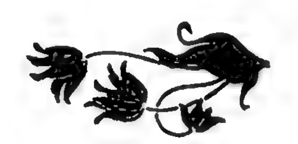
١٣ ـ **وظيفة الأدب**: الدكتور محمد النويهي، طبع معهد البحوث، ص١٨١.

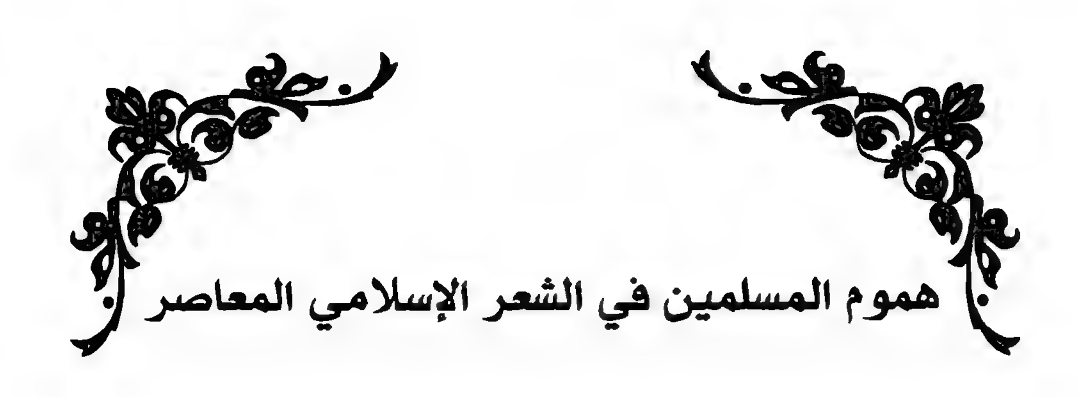
١٤ ـ **العربية ومشاعرها**: أحمد شوقي، أسعاف النشاشبي. مطبعة المعارف ١٣٤٦، ص١٤.

١٥ ـ **تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام**: الدكتور شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، ص١٧٢.

١٦ ـ **الغدير عبدالحسين**: أحمد أميني، طبع بيروت، ج٢، ص٢.

١٧ ـ **أبو تمام الطائي**.
١٨ ـ **أدباء العرب**: ج٤، ص١٩٤.
١٩ ـ **دراسات في شعر الأرض المحتلة**: الدكتور عبدالرحمن يلفي، ص٣٠٩، طبع ١٩٦٩.
٢٠ ـ انظر: **مسند أحمد**، ج٣، ص٣٦٠، ٤٥٦، ج٦، ص٣٧٦.
٢١ ـ **الشعر والشعراء**: ابن قتيبة، تصحيح مصطفى، مطبعة المعاهد، ص٦٢، الإصابة، ج٥، ص٣٠٢.
٢٢ ـ **الشعر والشعراء**: ص٩٦، وانظر: الإصابة، ج٦، ص٢٢٠.
٢٣ ـ **القرآن الكريم**: سورة ٢٦، آية: ٢٢٧.
٢٤ ـ **القرآن الكريم**: سورة ٢٦، آية: ٢٢٤.
٢٥ ـ **تفسير ابن كثير**، ج٣، ص٣٥٦.
٢٦ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**: ج٣، ص١٤٠.
٢٧ ـ **البخاري**: أدب، ص٩٢. وانظر: معجم المفهرس، ج٣، ص١٤٠.





هموم المسلمين في الشعر الإسلامي المعاصر

كثيرة هي هموم المسلمين في هذا العصر! ومتشعبة!! ولا إخال مسلماً صادق الإيمان، صالح القلب، مهتماً بأمر المسلمين ـ ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ـ. . . ينفي عن نفسه الإحساس بضغط هذه الهموم على شعوره ووجدانه.

وإذا كان التاريخ ـ وهو وعاء الأحداث والتجارب ـ يحدثنا: أنه لا تكاد تخلو سجلات عصر من العصور المنصرمة دون تسجيل اضطهادات في صفوف المسلمين، وجراحات وآلام وقد تحمَّلها الجسد الإسلامي وقاسى من ويلاتها. . .

فإن هذا العصر ـ رغم الشعارات الحضارية البراقة التي يرفعها: كاحترام الحريات، وحقوق الإنسان، والإخاء البشري، والسلام العالمي، والديمقراطية ـ قد فاضت دفاتره بما سجلت من معاناة أمة الإسلام دون غيرها من أمم الأرض، وما يلقاه أتباع عقيدة التوحيد وأحباب محمد ﷺ، من التنكيل والتآمر ومن سموم مخططات الإفناء الأدبي والمادي ومن الاستفزاز الحضاري بوجهيه: الثقافي والتقني على طول خارطة الوجود الإسلامي.

ذلك أن القوى العالمية الغاضبة والحاقدة في صميمها على دعوة الحق، قد رمت المسلمين عن قوس واحدة وكالبتهم من كل جانب، حتى أصبح تدمير الإسلام وتصفية أهله هدفاً استراتيجياً في سياسة اليمين واليسار،

تخطط له أمريكا كما تخطط له روسيا، إذ ليست الرأسمالية بأرحم بالمسلمين من الشيوعية، ولا أتباع بوذا وعباد البقر بأشفق عليهم من عباد الصليب وأولاد الأفاعي.

فكل ملل الكفر والإلحاد والشرك، ورغم التناقضات الصارخة بينها والصراعات الموهومة الحاصلة بين صفوفها... فهي تلتقي يداً واحدة وفكراً واحداً وصفاً واحداً عند الكيد للإسلام والتآمر على أنصاره، وهذه حقيقة لم تغلب ولن تغيب عن وعي الإسلاميين ما لم تفتر علاقتهم بكتاب الله الخالد، وما لم يتبلد فهمهم لمحكم آياته وصريح توجيهاته: ذلك أن القرآن الكريم قد نبههم إلى استمرارية الكيد العالمي لأصحاب الحق وإلى ضراوة التآمر الدولي على المؤمنين الصادقين قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[1]، وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير ـ كما يقول سيد قطب رحمه الله ـ:

«...يكشف الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم، وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة الإسلامية في كل أرض وفي كل جيل... وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته، ولكن الهدف يظل ثابتاً: أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحاً غيره، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا غيرها... والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام...»[2].

موقف الشعر الإسلامي المعاصر من معاناة الأمة:

إذا كانت هناك مرآة ـ في وقتنا الحاضر على الأقل ـ تعكس بصدق هذه الهموم وتعبر بعمق عن مشاعر هذه الأمة وأحاسيسها وتجلو أحزانها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

(٢) في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص٢٢٧.

وترسم بواقعية مبدعة ملامح معاناة ملايين المسلمين واهتماماتهم وطموحاتهم... فلن تكون هذه المرآة غير الشعر الإسلامي الملتزم: ذلك أن لهذا الشعر رسالة تملي عليه خدمة الإسلام والذود عن حمى عقيدته والإفصاح عن هموم المسلمين حيثما كانوا... وهو متى تخلى عن هذه المهمة وفاته أن يكون سلاحاً من أسلحة الدعوة ومنبراً من منابرها... فهو باطل من القول وزور.

ما هو المطلوب من الشاعر الإسلامي؟

إن المطلوب من الشاعر الإسلامي المعاصر هو أن يشارك في رسم صورة لحياة المسلمين، بكل ما تحتويه هذه الحياة من آمال وطموحات، وآلام وأفراح وأحزان وهجرة وجهاد ونصر وفتح وسيادة وتمكين... وهذا ليس تكليفاً عصرياً جديداً بقدر ما هو استئناف لرسالته الشعرية الخالدة منذ فجر العصر الإسلامي الأول وعلى طول مسار الدعوة المباركة: ذلك أن من ميزة الشعر الملتزم ـ والشعر الإسلامي هو الذي أعنيه في هذا المقام ـ كان ولا يزال دائم الحضور في المحن والملمات، في الكر والفر في المنشط والمكره... حتى لكأنه ـ في حسي ـ: ذلك القمر الصناعي الاكتشافي الذي يلتقط بعدساته الحساسة، كل سكينة وحركة وكل دمعة وابتسامة... بل كل مد وجزر في حياة الأمة، وهذا ما يجعل منظومات الشعراء الإسلاميين وقوافيهم تتسم بالشفافية والصدق والواقعية.

فلننظر إذن في وجه هذه المرآة، ولنتأمل صفحتها النابضة والمفعمة بالصور الحية والرسوم الناطقة والمشاهد المعبرة، ولنعش بعض الوقت في ظلال القافية المجاهدة والكلمة الداعية، نستوحي منهما بعض ملامح هموم أمتنا الإسلامية ومعاناتها.

الشعر الإسلامي... وهموم العقيدة والدعوة:

إذا كان لكل عقيدة من عقائد العصر، شعرها وأدبها وفنها وإعلامها الذي يعمل على نشرها والتعريف بها والدفاع عنها... فهل يعاب على

الإسلام وهو الدين الحق والخالد والمهيمن، أن يكون له شعراء يدافعون عنه ويجاهدون بالكلمة الصادقة القوية، ويتغنون بمحاسنه ويمجدون فضائله... ويترجمون هموم أهله وأتباعه ويرسمون بالقافية النابضة معاناتهم وآمالهم؟!... خاصة إذا علمنا بأن نمو العقائد المعاصرة وتكاثر المنهجيات وتراكم الإيديولوجيات في هذا العصر إنما جاءت بغرض التضييق على عقيدتنا ومحاصرة إسلامنا، وتشويه واستفزاز أنصاره، وطرحها ـ أي هذه العقائد ـ كبدائل حضارية عصرية أمام الناس وأمام أبناء المسلمين خصوصاً حتى يتركوا دين آبائهم الخالد وينسلخوا من أصالتهم، ويعقوا عقيدتهم السمحة الخالصة تحت غطاء الشعارات الفخمة المزيفة والتبريرات الواهية.

فتارة يستفزهم عواء الملحد، ولسان حاله يقول:

دولة الإلحاد معبودي وأمي وأبي

وزعيم ماركس عقل عظيم المآرب

بطل أحيا عصور الغاب في ذي الحقب

أنكر الله ولم يؤمن بدين أو بنبي

إن في مبدئه السامي نجاة العرب

فانصروه تأمنوا فيه شرور النوب[1]

وطوراً يعكر صفاء ساحتهم: صفير جاهلي يهمهم:

هذه قوميتي: ديني وأهدافي السنيه

إنها فلسفة تصنع للشعب رقيه

فانصروها تبلغوا الغاية من كل قضيه.

ويتحد الإلحاد الماركسي مع الصفير الجاهلي ليثيروا إعصاراً وقحاً

---

(١) من قصيدة مجمع القرود، أحمد محمد الصديق، مجموعة شعراء الدعوة، ج١، ص٢٢٧.

يعصف بالمسلمين في محاولة لإحباط حركة الدعوة وتشويه نضارة البديل الإسلامي:

لو أقاموا دولة الإسلام مات الناس جوعاً

حرموا الخمرة والرشوة والفن الرقيعا

كيف نجني بعدها الربح؟ ألا ماتوا جميعاً[١].

وهنا يأتي دور الشاعر الإسلامي الذي لا يرضيه هذا التحدي الماجن! فيبادر بترجمة غضب الرأي العام الإسلامي ورفضه لمثل هذا الاستفزاز الحاقد:

تارة بحدة الثائر لكرامته، المعتز بدينه:

يا دعوة الحق سيري رغم أنفهم   وجلجلي في الورى فخراً وإيماناً
لن نستكين لمغرور يحاربنا   مهما تطاول إلحاداً ونكراناً[٢]

وتارة وفق التوجيه القرآني: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[٣]:

أيها الناس أجيبوا دعوة الحق المبين

إنها دعوة إيمان برب العالمين

شرعت ما يسعد الإنسان في دنيا ودين

أطلقت فيه قوى الخير وروح الطامحين

أرجو الله، للحق.. وكونوا مسلمين[٤].

---

(١) من قصيدة مجمع القرود، أحمد محمد الصديق، مجموعة شعراء الدعوة، ج١، ص٢٢٧.

(٢) من قصيدة ـ يا دهر عفواً ـ جمال فوزي، مجلة الدعوة، عدد ١٢، السنة ٢٦، ص٥٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٤) من قصيدة مجمع القرود، أحمد محمد الصديق، مجموعة شعراء الدعوة، ج١، ص٢٢٧.

ثم بلهجة المتحدي الواثق:

قالوا: العروبة، قلت: دين محمد إنما به لا بالعروبة نهتدي
هي قالب الإسلام إما أفرغت منه فقد صارت مطية ملحد
يا من يريد الجاهلية منهجاً يدعو إليه ويا لسوء المورد
بل أنت في رجعية مذمومة وتقهقر نحو المتاه الأبعد[1]

ثم يلتفت الشاعر إلى الدعوة ليجدد لها وفاء الأنصار على العهد وبقاءهم على الود وإصرارهم على النصرة وأفرادها بالولاء:

يا دعوة الحق إنَّا لا نزال على درب العقيدة لم نحجم ولم نخب
نغدو على ساحة الإسلام عن ثقة ولو صلبنا على الأعواد والقضب[2]

وهذا الجزم والإصرار والثبات على المبدأ قد كلف المؤمنين الصادقين ثمناً باهظاً وذاقوا في سبيله شتى ألوان التنكيل والتآمر... بل لقد مستهم البأساء والضراء من أعدائهم بمجرد إعلان الانتماء الواعي للإسلام.

نجد هذا في شكوى الشاعر المسلم الذي في هذه الأبيات النَّابضة الصارخة ومعاناة ملايين المسلمين الذين زج بهم في السجون وذاقوا ألواناً من العذاب البربري الحاقد لا لشيء إلا لأنهم اختاروا الإسلام عقيدة ومنهاجاً:

إلهي قد غدوت هنا سجيناً لأني أنشد الإسلام دينا
وحولي إخوة بالحق نادوا أراهم بالقيود مكبلينا
فطوراً مزقوا الأجسام منا وطوراً بالسياط معذبينا[3]

---

(١) من قصيدة ـ قالوا العروبة ـ أحمد محمد الصديق، مجلة الإصلاح، عدد ٦١، سنة ٦، ص٢٢.

(٢) عصام العطار، شعراء الدعوة، ج١، ص٧٨.

(٣) جمال فوزي، شعراء الدعوة، ج١، ص٩٤ ـ ٩٥ و١٠٦.

هكذا يتضح لنا من خلال ما عرضنا من أمثلة مختارة ومختصرة، بأن هموم العقيدة قد تبوأت مكاناً بارزاً في الشعر الإسلامي المعاصر، وأولاها الشاعر المسلم اهتماماً رئيسياً لائقاً بمقامها حتى جعل الروح فداء:

روحي على كفي فداء عقيدة   في ظلها الوافي اتخذت مكاني[1]

إن هموم الأرض المحتلة، سواء أكانت هذه الأرض فلسطين أو لبنان أو أفغانستان أو غيرها من التراب الإسلامي الممتد شرقاً وغرباً... وما تحويه من تشريد وتقتيل وتدمير، وجراح وآلام ودماء وجوع وعطش وفقر وحرمان... لم تهملها القريحة الإسلامية ولم تسقطها من اهتماماتها، فقد رسمتها بريشة الألم، وصورت عذاب اليتامى ودموع الثكالى وغصص المشردين وشكاوى المظلومين المهجرين من ديارهم وأوطانهم:

كل ما أريده أني ذات ليلة

كان لي طفل صغير... ذبحوه

كان لي بيت جميل... دمروه

وخرجنا..

وعبرنا النهر في جنح الظلام...

ونساء الحي تمضي ذاهلة...

تتهاوى كالورود الذابلة

ومتاعي ذكريات حائلة[2].

كما ترجمت في الوقت نفسه، معاناة الأمهات المسلمات في الأرض المغصوبة: ذلك أن المتمعن في صفحات الشعر الإسلامي المعاصر، يجد لوحات حية تنبض بالصدق والشاعرية في رسمها لخلجات الأمومة المكابدة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) محيي الدين عطية، شعراء الدعوة، ج٦، ص١٠.

وتصويرها لكثير من أشكال معاناتها وآلامها، فكم من أم مؤمنة سهرت على تربية وليدها، ومنحته كل عطفها الصادق وحنانها الواعي، وأولته رعايتها الحانية من أجل أن يشب مؤمناً مسلماً ملتزماً مجاهداً، فتساهم به في تعزيز الصف الإسلامي وتقوية كتائب الإيمان:

حملته في أحشائها، ربته في أحضانها

ودعت إله الكون أن يرعاه من أعماقها...

وتفتحت آفاقه... وتحققت آمالها[1].

ولكن ما إن تحلو الحياة في عين مثل هذه الأم، إذ ترى الأمل يزهر وثمرة الرعاية تنضج والرجاء يتحقق... حتى تمتد يد البغي وقحة لتخطف الأمل الزاهر من أمام العين التي طالما سهرت على رعايته وحمايته... لترمي به في زنزانات الظلام ومقابر العذاب:

...وانقض أعوان الطغاة يكبلون حبيبها

...وطوته جدران السجون لكي يرى أهوالها

كم مزقته سياطهم وتلقفته كلابها[2].

وفي الزاوية المقابلة، ارتعاشة الأمومة ولوعة القلب الحاني في الأم الواجمة وهي ترى فلذة كبدها ينهشه الظلمة وتنغرس فيه أظافر البغي والعدوان فماذا يكون جوابها يا ترى!

صرخت وقالت: ويحكم

ماذا جنى أطهارها؟

---

(١) قصيدة ـ شهيد ـ جمال فوزي، شعراء الدعوة، ج١، ص٩٧ إلى ١٠١ مختارات.
(٢) قصيدة ـ شهيد ـ جمال فوزي، شعراء الدعوة، ج١، ص٩٧ إلى ١٠١ مختارات.

همت بلثم جبينه

فيردها أشرارها[1].

إنها هموم آلاف الأمهات المسلمات في فلسطين ولبنان وأفغانستان... إنها معاناة الأمومة الصادقة المفجوعة في أكبادها والملوعة في أحبابها، تترجمها القوافي الغاضبة والكلمات النابضة بالألم والاحتجاج... والتحدي...

وإذا كانت القرارات الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة أو القوى العالمية الأخرى تحت الضغط الصهيوني ومن خلال تأثير الجذور الصهيونية والصليبية الممتدة في مؤسساتها وهياكلها تصرخ - بين الحين والآخر - بحق اليهود في فلسطين... فإن ما يؤمن به المسلمون أنه لا مكان لليهود في أرضهم مهما كانت الدعاوى والشكاوى والأضاليل... وهذا لا يفصح عنه الخطاب السياسي المعلن في المحافل الدولية، ولكن الشاعر الإسلامي الملتزم يترجم بشعره هذا الإيمان ويصدع بهذا اليقين:

أما اليهود فليس في أرضي مكان لليهود

وليعطهم بلفور من إنجلترا بدل الوعود

وبذكر بلفور أقول لكل ذي كرم وجود

أنا ما رأيت كمثل بلفور صفيقاً في الوجود

يعطي اللصوص على هواه من الوعود بلا حدود

وبرغم ذاك فما البلية عند بلفور الحقود

بل عند من يتجاهلون بأنها أرض الجدود...[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) قصيدة - وعد بلفور - محمد صيام، شعراء الدعوة، ج٢، ص٧٩.

وبالمناسبة نقف هنا لنسأل: متى استطاع المقص الصهيوني والصليبي أن يقضم أطرافنا من الجسد الإسلامي؟... هل عندما (احتمينا باللصوص جاء اللصوص)؟!

كما أكد ذلك جهرة على مسامع المسلمين، ودون حياء من يسمونه بشاعر الأرض المحتلة!!... أم أن المخلب الصهيوني توغل في أرضنا الإسلامية عندما تخلينا عن النصوص: قرآناً وسنة، وتبلد فهم الرأي العام لصريح الأمر والنهي فيهما وتهنا بين عقائد الشرق والغرب!؟

إن لدى الشاعر الإسلامي الجواب الفصل:

فلسطين ضاعت يوم ضاعت عقيدة	وبات فساد الحال أقبح مقتنى
أيجحد دين أورث العرب سؤدداً	وينقض ما شاد النبي وما بنى؟!
ليرضى علينا الغرب حيناً ويحتفي	بنا الشرق أحياناً... ونفقد ذاتنا
وما زادنا هذا التذبذب عزة	ولكن حصدنا دونه الشوك والعنا... [1]

بينما - وهذا يشهد به التاريخ - يوم كنا على ميراث النبوة، محتمين بالنصوص ومقتفين آثار الصالحين ومتخذين القرآن دستوراً والله غاية ومحمداً ﷺ أسوة وقائداً... يومها حزنا المجد كله والنصر كله...:

حين كنا...

نتغذى من عقول الفضلاء

وتربينا شريفات النساء

آلت الأرض إلينا...

والسماء

---

(١) شعراء الدعوة، ج١، ص٥٧.

أشرق النور فينا...

وتباهينا...

بجيل العظماء.

* * *

وسقطنا...

إذ رضعنا كلمات الآخرين

وطعمنا من فتات الغالبين

أوهمونا

أننا نطفو

بإغراق السفين

أننا نحيا

بدفن السابقين

فتسابقنا

لسلب العلماء

وتندرنا بقول الأنبياء!![1].

وبعد...

هذه إذن بعض الهموم الإسلامية المعاصرة التي شغلت مساحة محترمة من شعر الإسلاميين وأولاها هؤلاء اهتماماً خاصاً فجاء تصويراً إبداعياً واقعياً شفافاً يأخذ القلوب وينم عن صدق الإحساس وعمق الشاعرية.

---

(١) محيي الدين عطية، شعراء الدعوة، ج٦، ص٢٦ ـ ٢٧.

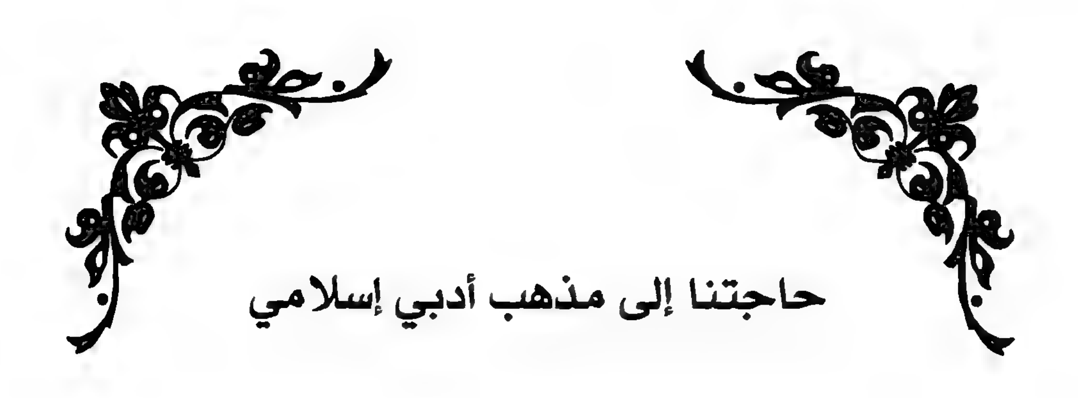
ثم إن هموم العقيدة والدعوة وهموم الأرض المحتلة ليست هي كل ما تمخضت عنه معاناة الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر... بل هناك هموم أخرى لا تقل أهمية، قد ترجمها الشاعر المسلم في قوافيه ورسم ظلالها في منظوماته كالهموم الثقافية والهموم السياسية والهموم الاجتماعية... وهي موجودة في مظانها من الدواوين والمجلات.

وما هذا الذي نقدمه هنا إلا إضاءة على الطريق... ويوماً بعد يوم، سنشهد للشعر الإسلامي صولات وجولات... في ميادين الجهاد... وكلما تمرس في العطاء... وتقدمت به الخبرة والمعاناة... واستكمل أدواته... انطلق في آفاق أوسع من المعاني والأخيلة وعمق التعبير... وارتفع إلى مستوى الأحداث بصدق وجدارة[1].

بقلم: عبدالقادر عبار



(١) مجلة الأمة، العدد الثامن والأربعون (٤٨)، السنة الرابعة، ذو الحجة ١٤٠٤هـ - سبتمبر ١٩٨٤م.



حاجتنا إلى مذهب أدبي إسلامي

هل نحن ـ المسلمين ـ في حاجة إلى مذهب أدبي إسلامي؟ ولماذا؟

للإجابة على هذين السؤالين ينبغي أن ننظر في أربعة أمور هي:

العالم من حولنا، والعالم الإسلامي المعاصر، وواقع الأدب في العالم، وواقع الأدب في العالم الإسلامي.

أولاً: العالم من حولنا:

لا جدال في أن الحضارة الإنسانية المعاصرة وصلت إلى درجة لم تعرفها البشرية من قبل، فقد وضع الإنسان أقدامه على القمر، وتطلع إلى الكواكب الأخرى، وحصل على وسائل هائلة للراحة والرفاهية، ويقدم له العلم منجزات يطول الحديث عنها، وفي الوقت نفسه حملت هذه الحضارة حروباً لم تنقطع، وشروراً ودماراً عجيبين، وحملت أيضاً الألم والقلق والضياع للكثيرين ولم تستطع أحدث منجزات العلم وأفضل النظريات النفسية والاجتماعية أن تحد من الجرائم المتزايدة، ولا أن توقف الشرور والدمار، ففي أرقى البلاد حضارة نجد أعلى نسبة للجريمة والانتحار، وقد انقسم العالم «الأكثر حضارة» إلى معسكرين: شرقي بزعامة روسيا، وغربي بزعامة أمريكا، وقام بينهما صراع مرير، وتسابق لبسط النفوذ على الأمم الأخرى، ورصدت أموال طائلة لسباق التسلح، والحفاظ على التوازن العسكري، وقام ـ نتيجة لهذا التوازن ـ وفاق قلق يضطرب كلما اشتد التنافس على أمة من الأمم، ثم ينتهي بالوئام المؤقت وتبادل المنافع على حساب الأمم المقسمة،

ولكل من المعسكرين حضارة ونظام ينبعان من فلسفات وتصورات خاصة فالمعسكر الشرقي ـ مثلاً ـ يرى أن الكيان الجماعي أهم من الكيان الفردي، لذلك يعتمد على نظام الحزب الواحد، ويطبق النظريات الماركسية في الاقتصاد، ويلغي الملكية الفردية أو يحدها، ويقلل من أهمية الحرية الفردية.

بينما يرى المعسكر الغربي أن الكيان الفردي أهم من الكيان الجماعي، ويعتمد على النظام الديمقراطي في الحكم، ويطبق النظريات الرأسمالية في الاقتصاد ويسمح للملكية الفردية بالتضخم الشديد، ويعطيها حريات واسعة تجعلها قوة تتحكم في كل شيء. ويدعو كل من المعسكرين الشعوب الأخرى إلى الأخذ بنظامه، ملوحاً بما حققه من تقدم حضاري، وبشعارات كثيرة خادعة، كالحرية أو العدالة الاجتماعية والرخاء أو الحرية الديمقراطية... إلخ، ويستخدم وسائل كثيرة لإغرائها كالمساعدات العسكرية والاقتصادية والثقافية... ولكن أخطر وسائله هي الغزو الفكري، حيث ينشر في الأمة المغزوة قيمه وتصوراته وآدابه وفنونه، ويطمس قيمها وتصوراتها ويميع شخصيتها الخاصة، ويوهمها بأن الأخذ بنظامه وفكره وآدابه... إلخ... هو الحضارة والتقدم.

وقد يستخدم القوة العسكرية لمواجهة ما يظهر فيها من مقاومة أو تهديد بالمقاومة كما فعلت روسيا في تشيكوسلوفاكيا والمجر وأفغانستان، وكما فعلت أمريكا في كوريا وفيتنام ولبنان. ويبقى الغزو الفكري الهادئ أشد خطراً لأنه يمس شخصية الأمة المغزوة ويلحقها بركب التبعية دون حاجة إلى دماء وحروب.

ثانياً: العالم الإسلامي المعاصر:

نرى في العالم الإسلامي المعاصر ظاهرتين متضادتين:

الأولى: حالة الضعف والتخلف والتمزق التي يعيشها.

الثانية: الصحوة الواعدة والتطلع إلى الوحدة والقوة والتقدم.

وصور الظاهرة الأولى كثيرة، نلمحها في خريطة العالم الإسلامي المعاصر بوضوح وفي وضعيه: الدولي والداخلي، فهو دول كثيرة مبعثرة لا تملك قوة التأثير على أي من المعسكرين اللذين يقتسمان العالم، وليس هناك ـ بعد إسقاط الخلافة العثمانية ـ كيان إسلامي كبير يجمع عدداً من الشعوب الإسلامية في إطار واحد، وبعض الدول الإسلامية متنافرة متحاربة والدول الإسلامية التي تعلن في قوة ووضوح أنها تطبق الشريعة الإسلامية قليلة جداً، ومعظم الشعوب الإسلامية تحكمها أقليات غير مسلمة، أو فئات مسلمة في هويتها ولكنها أشد عداءاً للإسلام ونظامه من الصهاينة والصليبيين، والأقليات الإسلامية مضطهدة ومقهورة غالباً، والوضع الحضاري للعالم الإسلامي متخلف كثيراً عن المعسكرين الشرقي والغربي، ووضعه الاقتصادي متخلف أيضاً، فهو مصدر للمواد الخام، وسوق مستهلك للمنتجات المادية التي تنتجها مصانع المعسكرين: الشرقي والغربي ـ لذلك أصبحت الشعوب الإسلامية مطمعاً للمعسكرين، ونجح كل منهما في شد بعضها إليه وإلحاقها بتبعيته، والمدهش أن هذه الشعوب جميعاً ـ على ضعفها وتخلفها ـ لا تزال تتعرض إلى الغزو الفكري المكثف، وإلى حملات تنصيرية تنفق فيها الأموال الطائلة، وتبذل لها الجهود الضخمة، لقتل ما بقي من شخصيتها الإسلامية ولمحاصرة إسلامها في زوايا المسجد وعزله عن الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ولتصويره ـ في أحسن الأحوال ـ على أنه تراث مجيد، لا يصلح للحياة المعاصرة. ومن أشكال هذه المحاصرة أيضاً، تطبيع الفرد المسلم بطوابع المدينة الشرقية أو الغربية وملئه بقيمها وتصوراتها، وسلخ عقيدته وتغيير ثقافته وآدابه وفنونه، وتحويله إلى مسخ يقلد الثقافات الأخرى، وأما صورة الصحوة الإسلامية الواعدة فمنها: الثورات التي يقودها المجاهدون ضد الشيوعيين والصليبيين وأعداء الإسلام الآخرين. والوعي الإسلامي المتزايد بين المثقفين خاصة وبروز الكتاب الإسلامي إلى جانب المسلم المثقف، معلمين بارزين، والسعي الحثيث إلى بناء كيان إسلامي حديث والعمل على إبراز الشخصية الإسلامية في مجالات الحياة كلها، والتأكيد على قدرة الإسلام الفائقة على إرادة الحياة في كل

زمان ومكان، وتزويد الفرد المسلم بالنظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفنية الإسلامية، لتعينه على مواجهة التحديات، وتحرضه ضد الغزو الفكري الشرس.

ثالثاً: واقع الأدب في العالم:

تبدو في الأدب العالمي المعاصر عدة سمات، منها:

١ ـ أنه متأثر بروح العصر، وبطبيعة الحضارة التي يصدر عنها، وهذا أمر طبيعي في كل أدب حي. ويبدو تأثره بالحضارة في تطور أدواته الفنية واستفادته من الدراسات النفسية والاجتماعية والفلسفية، وفي تجاربه الشكلية الواسعة وفي اختلاطه بهموم العصر، وتعبيره الفذ عنها في شحنات القلق والضياع والغربة التي تحملها أجناسه الأدبية كلها، وفي توزعه بين الاتجاهات الفكرية المختلفة.

٢ ـ أنه متأثر بالفروق الكبيرة بين الكتلتين الشرقية والغربية، وبالصراع القائم بينهما، ففي كل كتلة تجد أدباً يحمل طوابعها الشخصية، ويظهر اتجاهاتها الفكرية ويعرض تصوراتها للإنسان والحياة والكون، فأدب الكتلة الشرقية يلتزم بقضايا المجتمع الشيوعي، ويبرز في خلفياته المفهومات الاشتراكية، ويرتبط بالمذهب الواقعي الاشتراكي، ويرسم صورة زاهية ـ ومزورة غالباً ـ للحياة في ظل الشيوعية، وفي الوقت نفسه يصور المفهومات الرأسمالية في صورة قاتمة، ويجعل شخصياتها ظالمة وكريهة، وأدب الكتلة الغربية يبرز الاتجاهات الفكرية الكثيرة فيها من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ويجسد قلق الفرد الغربي وغربته الروحية وبحثه عن الخلاص في دروب معتمة، كما يجسد اعتداده بحضارته ومنجزاته المادية وسخريته من الفكر الشيوعي، ويشنع على النظم الشيوعية بأنها تخنق الحريات وتستعبد الشعوب.

٣ ـ أنه أصبح أداة مهمة من أدوات الغزو الفكري، فالكتلتان تجتهدان في نشر آدابهما ـ ولا سيما التي تبرز الجانب الإيجابي في حضارتيهما ـ وفي ترجمته إلى لغات الشعوب الأخرى، وتشجع دارسيه من أبناء تلك

الشعوب، وتغريهم بالمنح والجوائز والكراسي الجامعية والمؤتمرات الأدبية. . . إلى آخر الوسائل الذكية التي تضمن تسلل الأدب وانتشاره في الشعوب المغزوة، فإذا فقدت آداب تلك الشعوب طوابعها الشخصية ولونها المحلي ولهثت وراء قيم فنية مستوردة، تنازلت عن قسم من مقومات شخصيتها الأصلية وأصبحت أكثر استعداداً للالتحاق بركب التبعية.

رابعاً: واقع الأدب في بلادنا:

تطور الأدب في بلادنا حديثاً، وتأثر بالعوامل السياسية والاجتماعية والثقافية وبالغزو الفكري الذي نتعرض له، بدأ تطوره بعودة حميدة إلى أصوله التراثية على يد البارودي وتلاميذه، وظهرت فيه الشخصية العربية الإسلامية صافية وأصيلة، ولكن خريجي المدارس التنصيرية أمثال: رزق الله حسون، وخليل مطران وجبران خليل جبران. . . وغيرهم، نقلوا إليه بعض صفات الشعر الأوروبي الذي تثقفوا به فبدا انعطاف مهم في مسار تطوره، ثم قام العقاد والمازني وعبدالرحمٰن شكري بأول حركة أدبية مذهبية، وأسسوا تياراً رومانسياً أدخلوا به أدوات فنية وصوراً وقضايا مستعارة من الرومانسية الإنكليزية، ولكن أصالة هؤلاء الثلاثة واتصالهم القوي بالتراث حفظ شخصيتهم الأدبية من الضياع.

ثم جاءت بعدهم أجيال من الشعراء لم يكن لديهم اتصال عميق بالتراث، وكانت ثقافتهم الأدبية الغربية أكبر من ثقافاتهم العربية، فاندفعوا وراء المذاهب الأدبية الغربية بقوة. . . ولم تمض سنوات قليلة حتى صار عدد من شعرائنا أتباعاً للرمزية الغربية أو الواقعية الاشتراكية أو البرناسية أو الرومانسية. . . إلخ، وصرنا نقرأ شعراً عربياً في ألفاظه، غربياً في صوره وأفكاره ومشاعره، وشهدنا بعض الشعراء والنقاد يرفضون الأعمال الشعرية العربية لأنها تراث فحسب، ويدعون بحماسة إلى تطبيق قواعد الشعر الغربي خطوة خطوة، حتى وصل الأمر إلى الدعوة إلى الشعر المنثور، والقصة ـ مثل آخر ـ أخذ قالبها الفني من الغرب الأدباء رواد مثل: محمد حسين هيكل، ومحمود تيمور، ويحيى حقي. . . وغيرهم، وصاغوا بها قصصاً تظهر فيها

ملامح الشخصية العربية الإسلامية، وكان من الممكن أن تتطور وتتجاوز الضعف فيها لتبني لنا تياراً قصصياً، ولكن تلاهم قصاصون فقدوا بعض هذه الملامح، فأصبحت موضوعات قصصهم وشخصياتهم متأثرة ـ إلى حد كبير ـ بموضوعات القصص الغربية وشخصياتهم، حتى يجد القارئ بوضوح آثار «ألبرتو مورافيا، وأرنست همنغواي، وألبير كامو، وكافكا». . . في قصص سهيل إدريس، ويوسف الشاروني، وإحسان عبدالقدوس، والطيب صالح. . . وغيرهم. ويلاحظ دارس الأدب العربي الحديث أن هذا الأدب ـ بكل أجناسه ـ قد ازداد تأثراً بالمذاهب الأدبية الغربية منذ منتصف القرن العشرين الميلادي، وتحول بعضه على يد «المغتربين» إلى دعوات فاجرة وهجوم شرس على العقيدة الإسلامية وتراثها، وصار جهداً دؤوباً لتأصيل القيم الغربية في الفن والحياة، ولم يقتصر التأثير على استعارة الأدوات الفنية فحسب بل امتد إلى الخلفيات الفكرية والفلسفية التي تصدر عنها المذاهب الأدبية الغربية، وصدرت قصص ودواوين تحمل تصوراتها وتدعو إليها صراحة وضمناً.

كما توزع قسم من أدبنا بين المعسكرين الشرقي والغربي، ووجدت الكتلة الشرقية أدباء يجسدون أفكارها، ويدعون ـ من خلال أعمالهم الأدبية ـ إلى الالتحاق بها أمثال: عبدالوهاب البياتي، ومحمد الفيتوري، وعبدالرحمن الخميسي، وعبدالرحمن الشرقاوي، ومحمود درويش، وتوفيق زياد، وأحمد سليمان الأحمد. . . وغيرهم.

ووجدت نقاداً يجتهدون في تثبيت الواقعية الاشتراكية أمثال: محمود أمين العالم، وعبدالعظيم أنيس، وحسين مروة، ومحمد مندور، وعبدالمنعم قليمة. . . ووجدت الكتلة الغربية أبواقاً تدعو بقوة إلى اعتناق حضارتها وتقليد فنونها وآدابها أمثال: أدونيس، ويوسف الخال، وسعيد عقل، وغالي شكري، . . . وغيرهم بل أن النصرانية التي هزمت في بلادها وعزلت عن الحياة دخلت بفضل الغزو الفكري المكثف إلى إنتاج عدد من أدبائنا أمثال: صلاح عبدالصبور، وبدر شاكر السياب. . . فضلاً عن التيار الأدبي النصراني الذي يعمقه يوسف الخال، وخليل حاوي، وتوفيق صايغ، ولويس عوض،

وغالي شكري. . .، وقد خلف هذا التيار وذاك التأثير آثاراً كبيرة في الأدب المعاصر، أظهرها الرموز النصرانية المتفشية في الشعر الحديث وقصص الإنجيل التي أصبحت مادة لعدد من الشعراء والقصاصين. وهكذا. . . اختلطت الأصوات، وتوزع قسم آخر من أدبنا المعاصر وراء المذاهب الأدبية الغربية وحمل أدواتها الفنية من جهة، وقيمها وتصوراتها من جهة أخرى، ففقد كثيراً من ملامح الشخصية العربية الإسلامية، وتحول إلى حرية تهاجم الإسلام والمسلمين لذلك كله ولكي:

يكون للشعوب الإسلامية أدب متميز يجسد شخصية ألف مليون مسلم ينتشرون في رقعة واسعة من العالم.

ولينطلق أدبنا من عقيدتنا الإسلامية ويعبر عن تصورها وليبرز مشاعرنا الإنسانية الصادقة.

وليشارك في واجب الدعوة إلى الله.

ولنحفظ أدبائنا وقرائهم من التمزق والجري وراء الشخصية الأدبية الغربية.

ولنحصنهم ضد الغزو الداهم والتنصير النصراني الخطير.

وليكون للمسلمين أدب جميل ينمي أذواقهم باتجاه صحيح.

ولنربي أبناءنا وأجيالنا المتوالية تربية سليمة من كل الشوائب. . . لهذه الأسباب كلها نقول: إننا في حاجة إلى مذهب أدبي إسلامي، وعلينا أن نعمل ـ جاهدين ـ على تأصيل وجعل المذهب الأدبي الأول في ساحاتنا الأدبية[١].

بقلم: د. عبدالباسط بدر

---

(١) مجلة الأمة، العدد ٦١، سبتمبر ١٩٨٥م.



مقومات الثقافة الإسلامية

نعني بالمقومات: العناصر التي تستمد من التعريفات، والأسس التي تقوم عليها الثقافات ويمكن معرفة المقومات الأساسية للثقافة الإسلامية فيما يلي:

أولاً: الدين الإسلامي:

يعتبر الدين بصفة عامة، من أهم المقومات التي تقوم عليها ثقافات الأمم والمجتمعات الإنسانية، ويعتبر الدين الإسلامي بصفة خاصة، القوام الأول في ثقافة الأمة الإسلامية، فهو الذي حدد اتجاهها وشخصيتها وقوامها ووجودها، لأنه عقيدتها التي تؤمن بها وتحرص عليها، ونظامها الذي تعمل على الالتزام به، وشرفها الذي تخشى عليه.

ولا تتأتى المعرفة الدينية للإسلام، إلا بدراسة العقيدة، وما يتعلق بها من مباحث تدلل على الإيمان بالله تعالى، من صفات، ومعرفة النبوات والرسل والكتب السماوية ومعرفة الغيبيات وما يتعلق بها من أحداث وأمور.

ودراسة القرآن الكريم وتدبيره، وفهم غاياته وأحكامه، والوقوف على إعجازه وبلاغاته، وما احتواه من عقيدة ونظم، وأخلاق وسير، والوثوق بأنه أصدق ميراث إلهي بين أيدي البشر، من خلال جمعه الدقيق ونقله الوثيق.

ودراسة الحديث النبوي الشريف، ونصوصه وعلومه ومصطلحه، حتى يعرف المثقف المسلم، تلك الجهود المضنية التي بذلت في جمع السنة

النبوية وتدوينها وتنقيح أسانيدها، عن طريق قواعد البحث بأرقى أساليب المنهج العلمي وأمانة التدوين. وما بذله العلماء في شرحها، وبيان أحكامها التي دارت على القرآن الكريم توكيداً وتفصيلاً وتشريعاً.

ودراسة علم الفقه وأصوله، ليقف المسلم على مصادر الدين الإسلامي وقواعد الأحكام الشرعية ومناهج الاستنباط وضوابط الاجتهاد، ويعرف الرصيد الكبير في ثورة الفقه الإسلامي وأنشطة الفقهاء، لمواجهة الأحداث وتغطية الأحكام، مما يؤكد استمرار الفقه وعطائه في كل مكان وزمان.

ودراسة السيرة النبوية بأحداثها ورجالها، للوقوف على مسيرة الدعوة الإسلامية وصراع الحق مع الباطل، وتضحية الصحابة في الدفاع عن الإسلام وتثبيت أركانه في الأرض، ونشره في الأصقاع والأمصار. وبهذا نتعلم حمل أمانة الدعوة وخبرتها في الحياة، ونحقق ما حققه المسلمون الأوائل من عزة وانتصار.

ثانياً: اللغة العربية:

تعتبر اللغة العربية لغة مقدسة لأن الله تعالى اختارها لتكون لغة القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[1]، وعلى هذا فهي لغة مقصودة أراد الله لها أن تكون لغة البشر والحياة، وفي تقديرنا أنه لو وجدت لغة غيرها تستطيع أن تكون لغة عقيدة عالمية، لاختارها الله تعالى للقرآن الكريم.

ومن هنا لا بد من التمسك باللغة العربية ودراسة آدابها وفروعها وما فاض عنها من تعبير خلاق في الحكم والأمثال والشعر والنثر، والنحو والصرف والبلاغة والبيان ورصيد من الإنشاء، يحوي تجربة الحياة وديوان الأحداث، بما يغذي العقل ويحيي الضمير ويوقظ روح الإنسان.

إن اللغة العربية لغة عبقرية، قادرة أن تكون لغة العلم في هذا العصر،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢.

كما كانت من قبل في الطب والصيدلة والفلك والطبيعة والكيمياء والرياضة، وذلك لأنها لغة غنية بألفاظها وأساليبها، وتستطيع التعبير عن أدق القوانين العلمية إلى جانب قدرتها في التعبير عن أعمق مشاعر النفس الإنسانية الأدبية والنظرية.

وقد حرص الاستعمار على محاربة اللغة العربية وإضعافها، فمرة: كان يمنع انتشارها ويحاول نشر لغته وثقافته ومدارسه التبشيرية، ومرة ثانية: كان ينادي باستخدام الحروف اللاتينية في الكتابة والتأليف، بدلاً من الحروف العربية، ومرة ثالثة: دعا إلى استخدام اللهجات العامية في الكتابة والتأليف والتدوين.

وليست هذه الدعوات إلا لقطع أواصر الوحدة بين المسلمين، وقطع أوصال حاضر الأمة الإسلامية عن ماضيها الكبير، وقطع الصلة بالقرآن الكريم.

ثالثاً: التاريخ الإسلامي:

إن التاريخ بشكل عام من أهم الأسس التي يقام عليها بناء المجتمعات والأفراد، وذلك لأن التاريخ النظيف، يستطيع أن يبني أمة تعتز بذاتها، وأفرادها يفتخرون في الانتماء إليها، وأما التاريخ الرخيص، فإنه يخلف أفراداً يتحرجون من الانتماء إلى أمتهم، ويتبرؤون من تاريخهم.

ولهذا، فإن دراسة التاريخ الإسلامي تكون بتسليط الأضواء على مواقف النصر والبطولات، وفترات الإبداع والنضوج، وذلك من أجل غرس الثقة في نفوس الأجيال بماضيهم التاريخي، وشرف الاعتزاز والاتصال بأجدادهم، وأما فترات الاضطراب والخطأ والضعف، فيقتصر فيها على دراسة العبر والعظات.

وإن الذي يؤسف له اليوم أن تدور دراسة التاريخ على «علي ومعاوية، أو صفين والجمل»، حتى إذا ما سئل أحد عن الملّتان وقائدها محمود الغزنوي، ذلك الذي قال فيه ابن خلكان: «بلغ محمود الغزنوي في الجهاد

إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تنزل به قط سورة ولا آية، فدحض أجناس الشرك، وأقام بدلاً من بيوت الأصنام، مساجد الإسلام، وبدلاً من مشاهد البهتان معابد التوحيد والإيمان»[1]. أو سئل عن معركة الزلاقة، أو الأزك، أو ملاذ كرد، أو ذات الصواري، أجاب بأنه لم يسمع بهذه الكلمات والواقعات.

وأشد من هذا إيلاماً، ذلك السد الرجعي في تاريخ المسلمين، فخذ مثلاً: هارون الرشيد، فقد صورته الأقلام المأجورة بأنه صاحب الليالي الحمراء مع أبي نواس، ولكن التاريخ الصحيح يقول: «كان يصلي في اليوم والليلة مائة ركعة وكان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان يتصدق من ماله الخاص في كل يوم بألف درهم فوق الفريضة[2]، وهو صاحب الرد المشهور: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام على من اتبع الهدى».

ويجب التوكيد في دراسة التاريخ وتدريسه، على أن الإسلام هو الذي أنشأ الأمة الإسلامية، وأعطاها الامتداد الذي نراه اليوم، وهو الذي كان على مر التاريخ صاحب الانتصار في أحوال القوة، كما كان صاحب الصمود في أحوال الضعف. ولولا الإسلام، لما كان لنا تاريخ يحفل بانتصارات اليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت، ولا تاريخ يفخر بقيادات خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وصلاح الدين الأيوبي وقطز المملوكي... وغيرهم.

ولولا الإسلام، لبقيت الجزيرة العربية أعراباً من بني ثعلبة وسليم، وهوازن وثقيف ولحيان وغطفان، يشتغلون بوأد البنات، وخطف الذراري، ونهب المتاع والضياع في الصحراء.

---

(١) وفيات الأعيان: ١٧٧/٥.

(٢) الكامل: ١٨٤/٦ ـ ١٨٥، وانظر سيرته: ٢١٧/٦.

رابعاً: الحضارة الإسلامية:

من الضروري لكل مسلم أن يقف على الذوق الحضاري الذي لعبته الأمة الإسلامية في التاريخ الإسلامي، والذي جاء على يد الفتوحات الإسلامية وتحرير العقول والشعوب من الخرافات والاستبداد، وتوجيهها نحو عصر حضاري جديد، لتجديد المعرفة ونهضة العلم، واصطناع مناهج الملاحظة والتجربة، إلى جانب ما أقامه المسلمون من تقدم عمراني وصناعي وممارسات اجتماعية لترقية الحياة.

فقد عرف المسلمون أسلوب الحياة الإدارية وتدوين الدواوين، وميزوا بين نظام القضاء المدني والقضاء الشرعي، واهتم المسلمون بدور سك العملة والبريد، واهتم المسلمون بالجيش على أسلوب حضاري في التقسيم والتسليح، ودعموه بأسطول بحري، كذلك اهتم المسلمون بالزراعة وأفردوا لها «ديوان الماء» كان يشرف عليه أمير خاص، يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل، واستخرج المسلمون المعادن والبارود، وصنعوا الكاغد (الورق) والزجاج والصابون، واهتم المسلمون بالتبادل التجاري ونظام الأسواق العامة والخاصة[(١)].

وأبدع المسلمون في فن العمارة على أحدث طراز معماري، ولا زالت المساجد والقصور والقلاع والأسوار، بالأندلس وغرناطة ومصر وبغداد ودمشق والقدس وغيرها، شواهد حق على معالم حضارة المسلمين. وأبعد من هذا، فقد أنيرت شوارع بغداد في الليل بالشموع، وغسلت شوارع القاهرة بالصابون[(٢)]، وعرفت دمشق دوراً لعجزة الحيوانات.

واستخلص المسلمون علوم الهند والفرس والإغريق، فحفظوها

---

(١) راجع الفصل الثاني من رسالة الدكتوراه، ج١، المؤلف، النتف الحسان في الفقه، تحقيق ودراسة. تحت الطبع.

(٢) يغفر الله للكاتب، فهذه المظاهر التي ذكرها لا علاقة لها بالإسلام «القرآن والسنة»، وما كان عليه النبي ﷺ، وإنما هي مما قلد فيه المسلمون غيرهم من الكفار والمشركين، وكانت من أسباب هلاكهم والعياذ بالله.

وعدلوها وزادوا عليها زيادات لا تحصى في الطب والصيدلة، والفلك والجغرافية، والعلوم والرياضة وغيرها، وأقاموا المراكز الثقافية في الأندلس، وغرناطة أمدت أوروبا بزاد النهضة الحديثة[1].

من المؤلم بعد كل هذا، أن نجد من المستشرقين أو الشيوعيين، من يحاول إسناد الحضارة الإسلامية إلى أصول هندية وفارسية وإغريقية، منكرين الدور الحضاري والفكري للمسلمين.

وأشد من هذا خطراً، ما يبذله الغربيون من جهود شديدة ومريبة في الاهتمام بالآثار والحضارات المحلية القديمة، وإقامة المتاحف الوطنية، لقد وضعوا في متاحفهم أصنام الفراعنة بمصر، وتماثيل السومريين بالعراق.

وضخموا حضارة قوروش بإيران، ونقبوا عن آثار الفينيقيين بلبنان، وذكريات الكنعانيين بفلسطين، وثوروا الأصول البربرية بالمغرب، لتعميق النزاعات الإقليمية وإحياء الارتباط بالحضارات القديمة، وتربية الأجيال الجديدة على تجاوز الأثر الإسلامي في بلاد المسلمين. ولهذا نقول: إن الغلو في دراسة الحضارات القديمة على حساب الحضارة الإسلامية، نوع من المغالطة في تثقيف أجيال المسلمين.

خامساً: القيم والأهداف المشتركة:

ونختتم هذه المقومات، بالقيم والأهداف الإسلامية المشتركة، تلك القيم التي اتصفت على مر التاريخ الإسلامي، بالتقارب والاحترام، وقامت على قانون الفضيلة والخلق والحياء.

فكان المسلمون ينتقلون من بلد لآخر، في إطار وحدة النظام الأخلاقي كالغيرة والشرف الأسري، وتقارب السلوك الاجتماعي في الأعياد والمناسبات وحسن الاستقبال والضيافة والوداع، وآداب الأكل والشرب واللباس، والاعتزاز بمواقف الرجولة والشهامات.

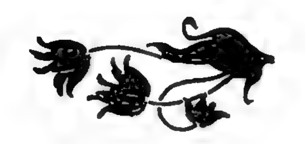
---

(١) انظر فيما بعد موقف العلماء المسلمين من العلم.

وذلك لأن أكثر قيم الشعوب الإسلامية وأهدافها، تنبع من أصول دينية توجهها عبر جذور التاريخ للاقتداء برسول الله ﷺ، ومجتمع أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد بقيت هذه القيم والأهداف بخير، حتى جاء العصر الحديث، فانتشر الخمول والتواكل والسطحية والارتجال والعرقية والإقليمية، وهبت بعض القيم الغربية على المسلمين، كالاختلاط والسفور والمجون والتخنث.

وإذا كانت القيم والأهداف في كل أمة من الأمم، من صميم ثقافتها، فعلى المسلمين اليوم أن يحددوا قيمهم، ويوحدوا أهدافهم، بأسلوب يقوم على الأصالة والتميز والاستقلال[1].



(١) دراسات في الثقافة الإسلامية، تأليف جماعة من الأساتذة، ص١٥ ـ ١٨.



خصائص الثقافة الإسلامية

عند الكلام عن الثقافة الإسلامية في خصائصها ينبغي أن ننوه بحقيقة أساسية وهي أن هذه الثقافة مستمدة من القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، وهذان هما المورد الأصيل الذي يدر في سخاء سائر ما تنطوي عليه ثقافة الإسلام من معان وقيم وأفكار وتطورات.

أما خصائص الثقافة الإسلامية في إطارها الشامل المرن فيمكن بيانها فيما يلي:

أولاً: إن الثقافة الإسلامية ربانية الأساس والمورد، فهي كما بينا آنفاً إنما تستند دائماً إلى الكتاب والسنة، وهذان ينطلقان من منطلق الوحي المنزل من السماء والكتاب والسنة يستويان في كونهما قد جاءا عن طريق الوحي، والنبي ﷺ لا يتكلم إلا ملهماً من ربه فلا يجري على لسانه غير الحق في كل ما يلفظ أو يقول. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1].

وعلى ذلك فليست الثقافة الإسلامية كغيرها من الثقافات التي يقررها تفكير البشر وتصوراتهم، وذلك فارق أكبر يفرق بين ثقافة الإسلام والثقافات الأخرى. فإن الثقافة الإسلامية لا تقوم على أهواء الناس وطباعهم

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣، ٤.

وتصوراتهم القاصرة المحدودة، أو أي شيء من هذا القبيل وهو رهين الضعف والنقص، ورهين القصور والمحدودية.

وعندما نقول: (ربانية)، لا ينبغي أن يحمل القارئ في ذهنه تصوراً مشوهاً ناشئاً عن رواسب العصور الوسطى إبان الصراع المرير بين الناس والكنيسة، ذلك الصراع الذي أفسد على العالم كله تصوره للدين في مفهومه ومعناه.

لا نبتغي أن يحمل القارئ هذا التصور الفاسد المؤسف عن الدين ونحن نقول عن الثقافة بأنها ربانية، ليست الربانية طقوساً أو شكليات بلهاء، ولا هي إجراءات تنفذ بالقسر والإرهاب من غير قناعة أو وعي، ليست الربانية من ذلك في شيء، وإنما الربانية تعني أن الله وهو مالك الحياة والخلائق جميعاً لهو من شأنه أن يضع للبشرية موازين الحق والقسط ليسير الناس على سواء، وهو من شأنه أن يستأثر بالتشريع وإحقاق المنهج الثابت الذي يحدد فكرة واسعة شاملة للحياة والكون والإنسان.

وبعبارة أخرى، فإن الربانية أن يقوم في الأرض منهاج حياة يؤلف فيها بين المادة والروح، ويحقق الترابط الوثيق بين الدنيا والآخرة على نحو يوافق الفطرة البشرية ويوافق العقل السليم.

ثانياً: إن الثقافة الإسلامية تتسم بالانفتاح على العلوم والأفكار الصحيحة النافعة. فإن من اعتبارات الإسلام أن: «**الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها**»[1]، فالحكمة بما تنطوي عليه من مختلف العلوم والحقائق لهي ضالة الإنسان المسلم يبحث عنها متواصلاً ليقف عليها ويعيها.

ومن المعلوم بالقطع، أن الإسلام دين العلم، بمعنى أنه يقوم على التفكير السليم المؤيد بالوحي الصادق المبرأ من الخطإ، ومن معطيات

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم، بلفظ: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها**» الحديث رقم، ٢٦٩٦ ص٧٧١ وهو غريب، ضعيف.

التفكير السليم أن تتحقق للإنسان منجزات كبيرة في العلم، وذلك أمر يقدره الإسلام أبلغ تقدير كما سنبينه في موضعه إن شاء الله.

ومن أشد ما يبغضه الإسلام ويندد به، ذلكم الانكماش والانحسار دون الانتهال من زاد العلوم الثابتة النافعة، وهو انحصار ضار منكمش سيؤول بأهله إلى أوضار الجهالة والسلبية والتخلف عن ركب الحياة السريع.

لا يرضى الإسلام بالإدبار عن العلم والاستفادة من معانيه وحقائقه، ولا يستطيع المدبر عن ذلك أن يتذرع بأية ذريعة، وهو في ذلك لا يعدو أن يكون متخاذلاً جهولاً، فإن من الحقيقة أن يدعو الإسلام للاستفادة من معطيات العلوم على تعددها وكثرتها ليكون ذلك باعث قوة للمسلم وهو على طريق العبادة لله.

وبذلك فإن الثقافة الإسلامية غير منكمشة على نفسها فتنبذ ما تمخضت عنه أدمغة البشر، وما تفتقت عنه أذهان الناس من أقوال وآراء سديدة جديرة بالتقدير، ولكنها تنظر لكل حكمة نافعة ورأي سديد بمنظار من التقدير والاحترام.

وثمة أكذوبة مصطنعة قد تكلفها الماديون الملاحدة أو الموتورون والجهلة بين الدين أو العلم فقالوا «بوجوب الخيار، فإما الدين وإما العلم!».

ذلك اختيار فاسد حقاً، ولا جرم أن هذا التفكير يبرهن على حقيقة الجهل المطبق الذي يركب مثل هذه الرؤوس الفارغة التي لا تفهم عن الإسلام ومفاهيمه شيئاً.

إنه لا تخيير للمسلم بين الدين والعلم، فإن الدين مفهوم كبير شامل يندرج فيه كل معاني الخير في هذه الحياة ومن جملتها العلم، وعلى ذلك، فإن أي تخيير من هذا القبيل لا يستند إلى أساس صحيح، فأي تخيير هذا الذي يكون بين الإسلام من جهة وبين أجزائه من جهة أخرى؟ وذلك باعتبار أن السعي لطلب العلم لهو بمثابة عبادة إن كان طالبه يبتغي بذلك وجه الله.

أي تخيير للإنسان بين الإسلام والعلم؟ مع أن الإنسان المسلم يدرك تماماً أنه بمزاولته للتعلم والتعليم إنما يمارس حقيقة من حقائق العبادة أو سبباً من أسباب التقرب إلى الله.

وأكذوبة الاختيار بين العلم والدين إذا ما أمكن تحققها في أديان أخرى قد خالطها التشويه، فإنه من التعسف الجائر إلصاق هذه الأكذوبة بالإسلام وهو دين العلم.

ثالثاً: الثقافة الإسلامية ذات طابع إنساني يتسم بالعالمية.

فهي لا تقيس الأمور بمقاييس البشر المعروفة، تلك المقاييس التي تقوم على اعتبارات ضالة سقيمة كروابط العشيرة والقوم والوطن، أو روابط العرق واللون أو المصالح الشخصية التي تستند إلى الأنانيات الضيقة البغيضة.

إن الإسلام بثقافته لا يلتفت لمثل هذه الاعتبارات فهي قد أسقطها الإسلام من الحساب عند تقدير الأمور، ولا يزن الإسلام الأمور إلا بميزان العدل الذي لا يحابي ولا يميل، وهو في ذلك كله يعول على رباط العقيدة فقط من غير أن يعبأ بموازين الناس واعتباراتهم اللصيقة بالرغام والتي مبعثها الهوى.

ولقد بيَّن الإسلام هذه الحقيقة في القرآن الحكيم ليضع الميزان الحق في الأرض بما يقدر من البشر لدينهم وتقواهم، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

ولذلك فإن الإسلام لا يعبأ بمظاهر اللون أو الجنس أو القوم أو غير ذلك مما درج عليه البشر. إنه لا يعبأ بشيء من ذلك وإنما يعول على الأساس الأول وهو التقوى، وكلمة التقوى تنطوي على خير كثير، بل هي (التقوى) جماع الخير كله بكل ما في الخير من معنى، فإن من معاني

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

التقوى أن يتمرس الإنسان في العلم فيسعى جاداً لطلبه والتزود منه ليحظى بمرضاة الله، والله سبحانه يقدر العلم وأهله مثلما يقدر التقوى والمتقين، وفي هذا يقول القرآن: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

ومن جهة أخرى، فإن الثقافة الإسلامية معطاءة فهي سخية بالأفكار والآراء والعلوم والتصورات التي يوجب الإسلام بثها وذيوعها في جميع الآفاق من غير تعصب، فإن الإسلام لا يتعصب ضد الشعوب والمجتمعات على اختلافها ليحجب عنها ذخائر العلم وروائع المعرفة، والتعصب مثلبة من المثالب المشينة التي تحرض على الضن بالخير وتسول للمرء أن يشح في الإعطاء.

رابعاً: من مزايا الثقافة الإسلامية أنها تتصف بالشمول والتوازن.

وهذه إحدى الحقائق التي أكسبت الإسلام خاصية الصلاح لكل زمان ومكان. ويعني بالشمول أن الإسلام بثقافته يتناول شتى مناحي الحياة للإنسان ويتناول كافة الجوانب الرئيسية الأصلية للبشر، فهو يتناول كلاً من الجانب البدني والنفسي والروحي والعقلي، وبعبارة أخرى فإن الإسلام يجمع جمعاً متسقاً وثيقاً بين حياة الإنسان المادية والروحية، فلا يذر الإسلام جانباً من جوانب الإنسان ليكون هملاً بغير حسبان أو رعاية، ولكنه ينظم جميع هذه الأركان. هذه الأركان التي يتألف من مجموعها الإنسان ليكتمل بناؤه الشخصي.

ولكل من هذه الجوانب الإنسانية مطلب أصيل يقرره الإسلام ويدعو لتحقيقه من غير نكران.

فمطلب العقل: يتحقق في شحنات الفكر والمعرفة التي يستمد منها العقل مضمونه وفحواه ليكون الإنسان واعياً متبصراً وليكون مثقفاً راشداً.

ومطلب البدن: كفاؤه من الممارسات المادية والغريزية وهي أمور لا

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

مناص من تقريرها والاعتراف بها، فهي حقيقة تنطق بها طبيعة الكائن البشري فلا يبقى بعد ذلك مجال لإنكار مصطنع، وهي ممارسات صحيحة ومشروعة على أن تكون في النطاق المهذب المرسوم الذي شرعه الإسلام من غير إفراط ولا تفريط ومن غير مغالاة أو تنطع.

ومطلب الروح: أن يظل العبد مستديم الصلة بربه برباط معنوي وثيق يقوم على العقيدة المتوطدة في صميم النفس البشرية، ولا ريب أن العبد يحس إحساساً عميقاً مستكناً في صميم فطرته وتكوينه أنه مسوق في شوق روحي لاهف إلى الله، وأنه دائم الإحساس بأنه عبد لله يلوذ به ويلجأ إليه في توسل وخشوع وضراعة، وهو في هذا الإحساس لا يخالطه شيء من تكلف، ولكنه إحساس ذاتي دافق يربطه بربه ربطاً ويشده إلى السماء شداً ليجد نفسه وكيانه في رحاب الله على غاية من الراحة والاستقرار والسكون، وتلك ميزة يستشعرها المؤمنون إيماناً صحيحاً مستقيماً.

ومطلب النفس: أن تنمو وتترعرع على نحو متزن مهذب بعيد عن المزالق وكل مظاهر التطرف والزلل، والإسلام يرعى النفس بأعظم أسباب الرعاية لتظل سليمة مستقيمة خالية من الأمراض وظواهر الخلل، إنه يصون النفس من كل ما يشينها أو يجر إليها أسباب الغواية والضلالة والفتون مما يوصم النفس بوصمة الشذوذ الملوث.

هذه المطالب جميعاً يقررها الإسلام ويدعو في تشريع واقعي دقيق منظم لتحقيقها في واقع الحياة، وذلك هو الموقف الأسلم الذي يقفه الإسلام من أمور الحياة جميعاً، وهو موقف تتجلى فيه الواقعية المثالية التي يتفرد بها الإسلام وحده دون غيره من الأنظمة والمبادئ والأديان.

أما التوازن في الثقافة الإسلامية، فإنه يعني أن الإسلام بثقافته يحرص على مراعاة هذه الجوانب جميعاً، فلا يعتمد جانباً دون جانب ولا يركز على مطلب في الإنسان دون غيره، ولكنه يوزع اهتمامه وحرصه على الجوانب كلها في آن واحد من غير محاباة أو تمييز مثلما تفعله المبادئ والأنظمة الوضعية التي صنعها البشر، فإن هذه المبادئ والأنظمة تركز تركيزاً

خطيراً على تحقيق المطالب الشهوانية إطفاء لغلواء الغريزة الظامئة التي لا ترتوي والتي تزداد نهماً باطراد، وهي كلما لقيت بغيتها من قضاء الشهوة استزادت وقالت: هل من مزيد؟!

وعلى ذلك، فإن هذه المبادئ الوضعية لم تؤت خيراً ولم تقدم للبشرية والأجيال غير مزيد من الأهوال والمعاناة ومزيد من المكابدة والأنانية والتعصب، وهي مبادئ سوف تفضي بالضرورة إلى الفشل الذريع وإلى أوخم العواقب، ولا نعني بذلك أن تنهار هذه المبادئ والأنظمة في يوم وليلة أو تتلاشى في برهة عاجلة من الزمن، ليس ذلك هو المقصود من وخيم العواقب الفاشلة، فقد يمتد الباطل لتكون له صولة منتفخة جائلة في الأرض لعقود أو قرون، فإن كلاً من النجاح أو الفشل لا يقاس بالزمان الذي تعيش خلاله هذه المبادئ، ولكن المقياس الصحيح لذلك هو النوعية والكيفية للفرد أو الجماعة، وهو ما سماه الإسلام العاقبة، فإذا ما كان الفرد سليماً صحيحاً وكان المجتمع نقياً متيناً متماسكاً كان بمثابة برهان على نجاح المبدأ وصدقه وصلاحه، أما إن كان كل من الفرد والجماعة فاسداً معيباً في ذاته، فإن ذلك برهان على الإخفاق المؤكد والإفلاس الشامل لهذه المبادئ.

ولا ريب أن المجموعات البشرية التي ترزح تحت وطأة المبادئ الوضعية الكافرة لهي في فساد وخراب ذاتيين بكل ما في الفساد والخراب من معنى، فإنها مجموعات قد تلاشت في نفوسها معاني الخير والفضيلة والرحمة وانكمشت في كياناتها كل ظواهر الإيثار والسخاء والشهامة والمروءة حتى باتت قطعاناً من البشر الأناني الفظ الذي تتجلى في طبائعه أسوأ مظاهر القسوة والفظاظة والانحدار، وذلكم هو الفشل بعينه.

لكن الإسلام وهو يمتاز بالشمول والتوازن، فإنه تتحقق فيه أسباب الصلاحية لجميع الأحوال والظروف، وذلك لأنه ـ كما بينا ـ يعالج كافة الجوائح والمشكلات البشرية ويحرص على النظر لجميع الأطراف والجوانب في الإنسان من غير محاباة أو تمييز.

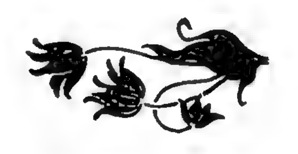
خامساً: تمتاز الثقافة الإسلامية بالإيجابية.

وهذه علامة بارزة تميز الإسلام عن غيره من الأديان الأخرى التي تتسم بالسلبية والركود أو الدوران حول رموز أو طقوس أو شكليات لا تبرحها.

لكن الثقافة الإسلامية وهي وليدة رسالة الإسلام فإنها تنبذ السلبية نبذاً لا هوادة فيه وتتنافى مع الانكماش المتوقع الذي لا يناسب هذا الدين المتحرك النشط، وهو دين يوجب على المسلم أن يمارس تعامله في الواقع بغير تقاعس أو عجز، وإلا جاء يوم القيامة حاملاً وزراً لنكوصه عن الواجب وتقصيره في أداء الأمانة المنوطة به في هذه الحياة.

وظواهر الإيجابية التي توجبها الثقافة الإسلامية متداخلة في جميع دروب الحياة، وعندئذ يكون المسلم حيوياً وذا همة وتطلع عاليين، فهو آمر بالمعروف ناه عن المنكر وهو قائل كلمة الحق بلا خشية من أحد أو تحسب للومة لائم، وهو مجاهد بلسانه وقلمه وكل أسباب الجهاد الأخرى، وهو متعاطف مع الآخرين ليعيش معهم في تعاون متآزر فلا يتخلى عن إخوانه عند الشدائد، وهو كذلك خشوع متبتل في محرابه لما يغمر قلبه من مخافة الله فيعبد الله كأنما يراه[1].

بقلم: الدكتور أمير عبدالعزيز



(١) معالم الثقافة الإسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان، ص٨٦ ـ ٩١، ط٣.



خواطر
حول الأدب الإسلامي

شبكة علاقات بين الأدباء الإسلاميين

ما أثاره الأخ الصديق الدكتور «عماد الدين خليل» في عدد «الأمة» ربيع الأول ٦ ـ ١٤هـ، تحت عنوان (ملاحظات نقدية) ـ أثار في نفسي ـ وربما في نفوس أخرى ـ الكثير من الأشجان والأحزان، وأيضاً بعض الأحلام والآمال، والدكتور (عماد) واحد من قلة مؤمنة ومخلصة للأدب الإسلامي في إطاره الناضج والفعَّال، وتشغله دائماً قضية المواجهة مع الأدب المنحرف الذي نما وتطور بفعل الأعاصير الإجرامية العاتية، القادمة من خارج الديار الإسلامية، وفعل بعض العاقلين من أبناء هذه الديار! وكانت حركة الدكتور عماد في اتجاهين متكاملين، **الأول**: مجال الإبداع، فكتب القصيدة والمسرحية، **والثاني**: مجال المتابعة، فتناول كثيراً من الأعمال الأدبية التي تنطلق من مفهوم إسلامي، وتصدى لأكثر من عمل أدبي خبيث يهدف إلى تدمير الشخصية الإسلامية، ويبث في أعماقها اليأس والخراب والاستسلام للواقع المرير والمريض!.

لذا كانت دعوته في (الأمة) الغراء، إلى تكوين «شبكة العلاقات» بين أدباء الأمة الإسلامية في هذا الزمان، ليست مجرد تعبير عن رغبة أو حلم، بل خطوة جادة وواعية على طريق العمل الحقيقي لتأصيل مفهوم الأدب

الإسلامي في واقعنا الأدبي المعاصر، الذي بات يَغُصُّ بالكثير من التيارات والاتجاهات التي تتفق على معاداة الإسلام وأهله، وتسخر من قيمه ومفاهيمه، وأدبائه وكتابه.

ولا ريب أن هناك كثرة كاثرة من القراء والمتلقين تسعى بشغف إلى قراءة الأعمال الأدبية ذات المضمون الجيد، والصياغة الراقية، والبناء الفني الشائق، وفي الوقت نفسه تنفر من الأدب، الدميم الذي ينخفض بمستوى الذوق، ويشوه الوجدان والإحساس، ويخرب الأذهان والعقول.

وهناك ـ في تصوري ـ فرصة ملائمة لقيام أدب إسلامي يملأ الساحة الأدبية ويطرد منها التيارات المعادية، أو على الأقل يحاصرها، ويضعها في موقف الدفاع عن النفس، ويعكس المعادلة القائمة الآن، والتي تضع الأدباء الإسلاميين في قاع المجتمع الأدبي المعاصر.

إن الواقع الأدبي الراهن غير طبيعي، وغير ملائم أو مطابق لحقائق العلاقات والقوى الاجتماعية... فالأقلية المعادية للتصور الإسلامي تحظى بما كان ينبغي أن تتمتع به الأغلبية ذات التصور الإسلامي الناضج، وتتحرك على مساحة عريضة إعلامياً وصحفياً، وتتحكم في دور النشر ومجالاته، وتملك بعدئذ القدرة على الترويج والدعاية إلى أبعد الحدود.

لقد استطاعت هذه الأقلية أن تستفيد من المتناقضات العديدة التي تعيشها معظم البلاد الإسلامية، وتبث بالخداع والمكر والنفاق إلى العديد من المواقع الإعلامية والصحفية والثقافية المؤثرة... فلم يعرف الناس ـ خاصة الأجيال الحالية ـ إلا الأدباء «اللادينيين» واليساريين الذين يعادون الدين الإسلامي سراً وجهراً، وقد حققت الأقلية المعادية هذا النجاح لعوامل عديدة نستطيع أن نجملها فيما يلي:

لنتبين كيف يتحرك الخصوم:

أولاً: المناصرة والمحاصرة، المناصرة للموالين، والمحاصرة للخصوم، وتبدأ المناصرة من أبسط الأشياء إلى أعقدها، فما يكاد أحدهم ينشر أو يذيع قصة أو قصيدة أو رواية أو مسرحية حتى يجد من ينشر ويذيع

الأخبار في الصحف والدوريات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، ثم تنعقد الندوات، وتخصص الدراسات والمقالات لتقديمه، والتعريف به، والإشادة بما قدمه، حتى لو كان صاحبنا لا يجيد تركيب جملة، أو صياغة فقرة، أو تحبير صفحة، والإلحاح الدعائي كفيل بأن يزرع في الأذهان والأمخاخ اسم صاحبنا ويفرضه على الواقع الأدبي كأمر واقع.

وقد رأينا عدداً كبيراً من كتَّاب وأدباء الدرجة الثالثة يفرضون على الحياة الأدبية تحت لافتة «الكاتب الكبير» و«الشاعر الكبير»، ومحصول الواحد منهم لا يتجاوز خمس قصص قصيرة، أو قصيدة واحدة يلقيها في شتى المحافل والندوات ولا يعرف الناس له غيرها.

والمحاصرة تفرض على كل أديب يشتم منه انتماء إسلامي حقيقي، فلا يكتب عن إنتاجه، ولو مجرد خبر صغير في صحيفة سيارة، فضلاً عن كتابة دراسة أو إذاعة ندوة مسموعة أو مرئية، وقد عانى كبار الأدباء الإسلاميين في حياتهم من الحصار «اللاديني» فمات بعضهم كمداً بعد أن استشعروا الغبن والاضطهاد في حياتهم، ويكفي أن نشير مثلاً إلى: محمد عبدالحليم عبدالله، وعلي أحمد باكثير، وعبدالحميد جودة السحار، ومحمود حسن إسماعيل رحمهم الله. . . وغيرهم، بل أن شاعرة كبيرة مثل: «نازك الملائكة» ـ بعد أن تجاوزت مرحلتها الإلحادية واتجهت نحو الإسلاميات ـ صاروا يتجاهلون قصائدها، ولا يذكرونها في تحقيقات أدبية أو مؤتمرات شعرية، بالرغم من التقدير الذي نالته لدى الجهات الأكاديمية الرفيعة المستوى، ولكن منطلق الحياة الثقافية على المستوى الإعلامي والدعائي يختلف بالضرورة عن منطلق الجهات الأكاديمية الراقية.

ومن أساليب المحاصرة: التنفير من الكتابات الأدبية الإسلامية، واعتبارها نوعاً من (الردة)! إلى الوراء، ووصم أصحابها بالسلفية والرجعية والجمود والتحجر. . . وقد يأخذ الأمر غطاء مزيفاً لتوجيه الاهتمامات من منطلق المذاهب الأدبية، فيقال مثلاً: هذا أديب (رومانسي)، ولا يصلح للتعامل مع روح العصر، وذاك أديب (كلاسيكي) تجاوزه الزمان بقرون،

وفي المقابل يتم الترويج (للواقعية) أو (الواقعية الاشتراكية) أو (ما بعد الواقعية)... إلخ.

ومن المؤسف أن بعض جامعاتنا العربية الإسلامية قد ضمت نفراً من أعداء التصور الإسلامي، فأخذوا يفرضون على طلابهم ـ خاصة في الدراسات العليا ـ دراسات نقدية لشخصيات وتيارات معينة[1]، وهذه التيارات وتلك الشخصيات لا تنتمي بالضرورة إلى دائرة التصور الإسلامي، ولنا أن نتخيل ما يحدث لدارس يتقدم بدراسة أدبية إسلامية، أو ينطلق من تصور إسلامي، لنرى كم هي كثيرة تلك العقبات التي توضع أمامه بدءاً من التسجيل حتى المناقشة. إن هذا النفر من الأساتذة قد تشبع بروح غريبة على روح الأمة وخصائصها، ولذا لا يتردد في محاصرة كل صوت إسلامي تحت حجج واهية، ولكنها لديه أقوى من القوة، فهو القانون، وهو النظام، وهو الحكم وقد أوكلته لوائح الجامعات إلى ضميره العلمي ويا له من ضمير!.

ثانياً: الحركية أو «الديناميكية» وتعني أن هذه الأقلية المعادية للتصور الإسلامي في الإبداع والنقد وغيرهما، تمتلك طاقة حيوية، وقدرة كبيرة على الحركة والنشاط في شتى الاتجاهات، خاصة في مجالي الإنتاج والتسويق ـ إذا صح التعبير ـ فأدباؤها لا يكفون عن الكتابة والإبداع في الأجناس الأدبية كافة، القصة والرواية والشعر والمسرح والملحمة والمقالة النقدية والخاطرة...

أما التسويق، أو ترويج الإنتاج، فمسألة على درجة كبيرة من الاهتمام لديهم. إنهم يستخدمون منابر النشر الخاصة استخداماً جيداً، ويعدونها

---

(١) بل إن الأمر تجاوز هذا المستوى غير المقبول أكاديمياً وعلمياً، وبلغ عند بعض أدعياء الحداثة أن أجبروا الدارسين من الطلاب والطالبات على إنتاجهم وحده، واعتباره المرجعية الفنية والمنهجية العليا. بل هي الميزان دون غيرها ترويجاً لما يكتبون من غثائيات يسوقونها على أنها النماذج الكبرى للحداثة بأشكالها المختلفة، مستغلين الاعتبارات السياسية الموجهة ضد الإسلام والإسلاميين، ومستفيدين في الوقت نفسه من سلبية المثقفين وأنانياتهم.

ـ بالرغم من تواضعها أحياناً ـ إعداداً جيداً، بحيث تخرج في ثوب متناسق، غير مهلهل تتكامل فيه اللمسات الفنية والفكرية تصميماً وإخراجاً، ثم يحاولون النشر في المنابر الرسمية والحكومية بالوسائل والأساليب الممكنة كافة، ولا يكفون عن طرق أبوابها أو الطرق عليها حتى تنفتح أمامهم أو تسقط جثة هامدة! وقد فعلوا ذلك ـ ولا يزالون ـ في أكثر من موقع وأكثر من مكان. وعلى سبيل المثال، فقد كانت إحدى الدول العربية الكبيرة تصدر في عقد الستينيات الميلادي ما يقرب من عشر دوريات أدبية بين أسبوعية وشهرية، فضلاً عن كتب عديدة كانت تصدر بغزارة عن الدائرة الثقافية المختصة، فإذا بزعماء هذه الأقلية المعادية وأفرادها يتحركون تحركاً نشطاً وفعالاً في أكثر من مجال صحفي وإعلامي وإداري للسيطرة على الدائرة ودورياتها ودور نشرها، وقد ظلوا يطرقون بقوة حتى تهاوت أمامهم القلعة وتحطمت وأغلقت الدوريات جميعها، وتمت سيطرتهم على مؤسسات النشر وأرهبوا الوزير المختص حتى خرج في تعديل وزاري!!.

إن هذه الأقلية المعادية تتحرك من خلال تخطيط مرسوم تعززه الحركية و(الديناميكية)، وهذا هو السر في قدرتهم على الإنتاج والتسويق، والسيطرة بعد ذلك على الساحة الأدبية سيطرة محكمة، تجعل لهم الصوت الأعلى والأقوى.

ثالثاً: الجبهة، وتعني أن أفراد هذه الأقلية المعادية يتحركون من خلال انتماء موحد، بالرغم من تباين تياراتهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية، التي تضم أقصى اليمين وأقصى اليسار، وهذا الانتماء يجعلهم يتوحدون أمام التصور الإسلامي لطمسه ومهاجمته، أو قتل صاحبه كمداً وصمتاً، وانطلاقاً من (ميكافيليئتهم) فإنهم لا يتورعون عن استخدام الوسائل والأساليب كلها لتحقيق غاياتهم وفرض آرائهم دون أن يعبؤوا بأبسط قواعد المنطق، ولنأخذ مثالاً قريباً إلى الذهن يتعلق بالدكتور (طه حسين) وموقعه الفكري والأدبي، وأبسط قواعد المنطق هنا تقول بأن الرجل له أكثر من جانب، وعلينا ـ منطقياً ـ أن نتتبع هذه الجوانب، ونرى مدى الصواب والخطأ فيها، ثم نصدر حكمنا على الرجل، ونضعه في مكانه الذي يفرضه الحق والعدل،

ولكن القوم لم يعجبهم ما بدا لبعض الباحثين الإسلاميين من أن الرجل قد أخذ أكثر مما يستحق، ووضع في مكانة أكبر مما يجب بسبب الدعاية التي أثيرت حوله، وأن هناك من هم أكبر منه حجماً في العلم والأدب والمواقف، كذلك فإن هذه الأقلية لم تقبل بما ذهب إليه بعض الباحثين الإسلاميين حول مواقف الرجل في قضايا دينية وسياسية تثير الشك والريبة، وتطرح أكثر من علامة استفهام، وبدلاً من المناقشة العلمية والموضوعية للآراء المطروحة فإن معسكر المعادين ـ من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ـ أعلن حالة الطوارئ ووقف جبهة واحدة ضد ما أثير حول الرجل، وانطلق أفراده يصمون الباحثين بالنعوت والصفات التي نعف عن ذكرها، ورفعوا (طه حسين) إلى درجة (القديس) ـ يغفر الله لنا ولهم ـ وجعلوا منه ذاتاً معصومة لا تمس، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1]، وهكذا يجد القارئ نفسه أمام (جبهة) قوية متماسكة قد تتناحر فيما بينها (يميناً ويساراً) ولكنها أمام الرأي الإسلامي تتوحد، وتتعاضد، وتتعانق لتشن حملاتها، وتصعد هجماتها، وتكثف قذائفها!.

هذه بعض ملامح العمل الذي حققت به الأقلية المعادية والمسيطرة نجاحها على الساحة الأدبية في العقود الماضية، واستطاعت أن تطرد الأدب الذي يحمل تصوراً إسلامياً إلى مؤخرة الحياة الأدبية والثقافية بوجه عام، وقد يقول قائل: إن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ذات تأثير كبير في هذا الوضع، ونحن نؤمن بصحة هذا القول إلى حد كبير، ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نعفي أنفسنا ولا الذين يحملون عبء الكتابة من خلال تصور إسلامي، من المسؤولية ففي الوقت الذي يقوم فيه المعادون للتصور الإسلامي بتدعيم مواقعهم، نجد على الطرف الآخر ما يمكن أن يكون النقيض تماماً، ويمكن أن نلخص الواقع الأدبي في الجانب الإسلامي في ثلاث كلمات هي: التخاذل، الترهل، الصغائر، ولن أتحدث عن هذه

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥.

الكلمات تفصيلاً، وإن بدت قاسية في ظن بعضهم، ولكن يكفي أن ننظر إلى صفحة أدبية يتولاها واحد من هذا الجانب، وصفحة أدبية يتولاها واحد من الجانب الآخر، لنرى الفارق...

إنه كبير بالطبع، فهنا صفحة أدبية حركية نشطة فعالة، وأخرى ميتة (استاتيكية) بلهاء، وما ذلك إلا لحيوية الأول وكسل الثاني! والثاني يمثلنا للأسف الشديد! وإن كان هناك استثناء فلا يقاس عليه.

إن علاقاتنا الأدبية كأدباء مسلمين يجب أن تعتمد على الحيوية والنشاط وتبتعد عن الترهل والخذلان، وهذا من أوجب واجبات اللحظة وضروراتها، وتقصيرنا في حق بعضنا، أو إغاظة بعضنا البعض ـ كما يحدث أحياناً ـ جرم لا يغتفر في وقت صعب يفرض علينا جميعاً أن نتكاتف، ونتعاضد، ونتعانق. أعرف أحد الباحثين الإسلاميين كان يعد رسالة أكاديمية تغطي جانباً إسلامياً حيوياً في مجال الدراسة الأدبية، وكانت هذه الرسالة تتعرض لنقاط تتعلق بأدباء غير مسلمين وكان الباحث مضطراً لمخاطبة الفريقين من الأدباء ـ المسلمين وغير المسلمين ـ المعنيين بالأمر، ترى من الذي استجاب للباحث المسلم؟ لقد كانت الاستجابة السريعة والفعالة من غير المسلمين! تصوروا! أما الإسلاميون ـ غفر الله لنا ولهم ـ فقد تلكأ معظمهم وصمت بعضهم، والنفر القليل هو الذي استجاب سريعاً وبفعالية! وللقارئ أن يقارن ويحلل ويحكم.

إن أدباء ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ يجب أن يكونوا على مستوى هذه الخيرية، وينبغي أن يكونوا عوناً على التصدي للأدب المنحرف، والمضامين الهابطة، والأطر الرديئة، وأيضاً عليهم أن يحققوا ذواتهم الأدبية من خلال تضامنهم، وتعارفهم وتناصحهم دون ضيق بالنقد الذاتي، أو ملل من الدعوة إلى النماذج الراقية إبداعاً وتقويماً.

وهذا القول، لا يعني أن الساحة الأدبية قد خلت من أدباء إسلاميين يمتازون بالحيوية والحركة والنشاط، فهناك عدد لا بأس به، ومنهم من

يترجم طاقاته إلى أعمال بارزة على طريق نهضة الأدب الإسلامي، وليست فكرة المؤتمرات الإسلامية الخاصة بالأدب الإسلامي إلا نتاجاً لجهد هذه الكوكبة المخلصة، صحيح أن هذه المؤتمرات لم تحقق الثمار المرجوة كلها لقصور في الإعداد أو الترتيب أو التخطيط، ولكن مجرد انعقادها في حد ذاته شهادة للقلة المؤمنة بدور الأدب الإسلامي كما يشهد لها ذلك النشاط الملموس الذي يأتينا من أقصى المغرب الإسلامي في هيئة مجلة أو كتاب أو بحث جامعي، وهذا بالطبع قاعدة من القواعد القوية التي تحيي الأمل في محاولة تكوين شبكة العلاقات بين الأدباء الإسلاميين.

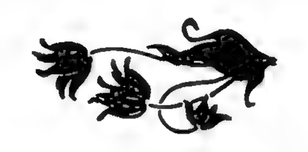
إنني أرى في المبادرات الشخصية فرصة ملائمة لتكوين شبكة العلاقات، وليس مهماً أن تكون الشبكة من خلال التعارف والتلاقي وجهاً لوجه، يكفي أن تكون في هذه المرحلة عبر البريد، فذلك - في رأيي - يساعد على المحاورات الهادئة والمثمرة، إن شاء الله، خاصة لو أخذ هذا الحوار طابع التساؤلات والإجابات حول الأفكار السائدة كافة في الحياة الأدبية لدى الأطراف والتيارات جميعاً، كذلك فإن تبادل الإنتاج الأدبي يتيح فرصة طيبة للتعرف على الكم والكيف، وحبذا لو قامت الدوريات الإسلامية بمساندة الأدباء الإسلاميين، فتخصص مساحات أدبية صرفة، للتعريف بالإنتاج الأدبي الإسلامي في أقطار الأمة كافة، لقد بدأت بعض المجلات الإسلامية الشهرية بالفعل بتخصيص صفحات للكتب الإسلامية المتنوعة، ولكننا نأمل أن يحظى الأدب بصفحات خاصة به تثار فيها القضايا الملحة، أو تعرض من وجهة نظر إسلامية بأسلوب حيوي ومؤثر.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الأساتذة المتخصصين في الأدب الإسلامي يستطيعون - من خلال وجودهم في الجامعات والمعاهد والمدارس - أن يساعدوا على تنمية الأدب الإسلامي، بتوجيه الناشئة، وتقويم إنتاج المعاصرين، وربطه بإنتاج السابقين، والتنظير للأجناس الأدبية الوافدة، وترشيد النظريات النقدية التي لا تتلاءم مع طبيعة التصور الإسلامي... إلخ.

إن هموم الأدب الإسلامي في هذا العصر تثير كثيراً من كوامن النفس، ولكننا مطالبون الآن بالعمل، الجاد الصبور الدؤوب، بدءاً من اكتشاف المواهب الأدبية حتى تقويم الأعمال الكبرى، وتوجيه الأدباء إلى تغطية المجالات البكر في حياتنا وتاريخنا، ولن يتم هذا إلا إذا اعتبرنا المسألة قضية أمة تسعى إلى البعث والنشور بعد أن أصبحت قصعة الأمم.

ترى هل استطعت أن أعبِّر عن بعض ما يجري في الواقع الأدبي؟ أم أن آمالي العراض دفعتني إلى حلم من أحلام اليقظة؟ لست أدري تماماً، ولكنني أطرح الأمر فقد يرى غيري ما أراه، وقد يرى بعضهم عكس رأيي، وفي الحالين، فإن الحوار سوف يثمر عن شيء نستطيع من خلاله أن نعالج أمتنا الجريحة ونبني غدها الجميل، والله من وراء القصد[١].

بقلم: حلمي محمد القاعود



---

(١) مجلة الأمة، عدد ٧١، ذو القعدة ١٤٠٦ ـ جوليت ١٩٨٦.




الأدباء الدعاة

. . .شهد النصف الثاني من القرن الماضي تحركاً إنسانياً ملحاً في سبيل البحث عن الذات، وتحديد الهوية البشرية، ونفض الغبار المتراكم على الأذهان والقلوب ومحاولة تضميد الجراح التي أحدثتها الحروب الطائفية في بعض البلدان العربية، وما كاد القرن الحالي ينتصف حتى كانت الجروح قد ازدادت وتقيحت، وحتى نبتت الأمراض النفسية في النفوس، وشعر الفرد بالتمزق والضياع، وإذا بالإنسان الذي جحد ربه وأعرض عنه يعترف اليوم بأنه جحد إنسانيته وقتل نفسه إذ أصبح خواء في كل شيء. . .

وفشل الأطباء العاديون في جلب السعادة للبشر، وأصبحت أقراصهم أشبه بقطع من المحار، لا تمنح تهدئة ولا تشفي من سقم، واضطر الناس إلى قرع أبواب الدين يستمطرون الطمأنينة والاستقرار والسعادة.

أما كهنة الكنيسة، فقد أعلنوا إفلاسهم منذ أن جعلوا النصرانية مرقعات من البوذية والوثنية، وجعلوا التعاليم كلمات جوفاء خالية من أي مدلول روحي يجتذب الأفئدة ويسر البصائر.

وأما أهل المسجد، فنجح منهم من نجح في إعادة الناس إلى دين الله وقليل ما هم، وفشل رهط حسبوا الدين تقليداً أعمى وحركات آلية تؤدى بين جدران أربعة من وقت لآخر، وأنكروا أن يكون لديهم ومن اتبعهم بإحسان رأي في شؤون الحياة العامة أو الخاصة بتلك الدولة التي لا يملكون لها إلا الطاعة. . . فلا أمر بمعروف، ولا نهي عن منكر.

وأمام هذين الموقفين، ولكثرة ما نرى هاتين الصورتين، حسب الناس أن الدين من اختصاص علماء الدين فقط، وبنوا على هذا الاعتقاد: أن من لم يكن من علماء الدين فهو معفى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعليه أن يسكت حتى يأتي المعني بالأمر والنهي، بل أن من الناس من ذهب إلى حظر المحرمات على علماء الدين وإباحتها لغيرهم.

والحق أن كل مسلم رجل من رجال الدين مسؤول عنه أينما كان إنساناً عادياً أو وزيراً أو رئيساً أو غير ذلك، ومن واجبه أن يطبق مواد الشريعة في ما يعرض عليه دون مواربة. وكل مسلمة مسؤولة كذلك في حدود ظروفها الخاصة والعامة.

وهذا ما فطن إليه شباب الحركة الإسلامية في العصر الحديث وشيوخها من المهتمين بالدراسات الحديثة عموماً، وبالأدب خصوصاً، حيث اكتشفوا الوظيفة التبشيرية للأدب، فعملوا على تصوير الأوضاع المزرية التي يتردى فيها العالم اليوم محاولين إصلاح الأفراد لتغيير هذه الأوضاع لأن ﴿ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]، لذا كان الأديب يرى أنه ينبغي فتح الأعين لمعرفة الربان الذي يقود سفينتنا في هذا العالم لأنه ينبغي أن لا يقودها إلا المؤمنون:

ولكن سفينة عالمنا

غدت من زمان بعيد هيّنة

بأيدي طواغيت عالمنا!!

فإن لم نفق ونرد العباد

إلى العصبة المؤمنة

فعما قريب ستهوي بنا

بلى... سوف تهوي بنا

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

وإذا هوت بنا السفينة فلن ينتشلنا إلا بقايا إيمان نتشبث بها خشية الهلاك... لكنه إيمان يجب ألا يكون دون جهاد «المجاهد الحق» كما وصفه يوسف العظم ذلك «الجندي المجهول» الذي أهدى إليه قصيدته «المجاهد الحق» بالكلمات التالية: «إلى الذي هجر رغد العيش، وأغفل من حياته الثورة والمكانة والجاه، وعاش في كهف من كهوف الجهاد بقلب طهور، ويد متوضئة (وعينين لن تمسهما النار أبداً: «عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»)[1].

هكذا كان الأدباء الدعاة يرون أنهم قد جعلوا: «أمة وسطاً» ليكونوا «شهداء على الناس» يصورون الإنسان السوي الذي لا يهبط إلى درك الحيوانية ولا ينساق وراء رغباته ونزواته. وإذا حدث أن انزلق مرة استغفر الله وآب إليه...

إنه الإنسان المسلم الذي لا ينحط عن درجة الإنسانية، وقد يرتفع إلى رتبة الملائكة المقربين، لذا ينتقد الأديب الداعية، التعلق بالأشكال والأمجاد الزائفة، ويعيب على إخوانه المسلمين قصر الهمة والاكتفاء بكسرة الخبز والتقصير في الواجب:

وهم الجمع ثوب أو رغيف	وصك من رصيد أو حواله
وألقاب يتيه بها قرود	وليس لها معان أو دلاله
سعادته شقاء فيه شقاء	ولقد رفعت معاليه السفاله
سيادته يقيم على هوان	سماحته يعيش مع الضلاله
فخامته هزيل ليس يدري	بأن الناس قد فضحوا هزاله
ودولته يعيش مع الأماني	ويخشى أن تفاجئه البطاله

وهذه سخرية لاذعة مليئة بالمرارة والألم، لأن قسماً كبيراً منا ينخدع بالألقاب فيهجر القيم والأخلاق، ويلعن الدعاة، ليحظى عند ذوي السلطان

---

(١) شرح السنة، ج١٠، ص٣٥٥.

بلقب «المفكر» أو «عميد الأدب» أو «أستاذ الجيل» إلى غير ذلك من الألقاب التي يحن إليها ضعاف الإيمان وضعاف العقول، وهذه المرارة والأسف على وضع الأفراد نحسها تجاه وضع أولئك الذين يهرجون ويصرخون تنديداً وتهديداً، وتبقى الأرض محتلة، لأنهم لا يريدون الأخذ بمفتاح النصر الوحيد. . . ذلك المفتاح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. . . يهجرون الدين فيهزمون، ويتشبث به أعداؤهم فينتصرون، وينتصر الأعداء بأنبيائهم، وننهزم بشياطيننا:

الزق والرق والمزمار عدتنا	والخصم عدته علم والآت
وشرعة الله في القرآن نهجرها	وشرعة الخصم تلمود وتوراة
وعدة الخصم صاروخ وطائرة	ونحن عدتنا الكبرى قرارات

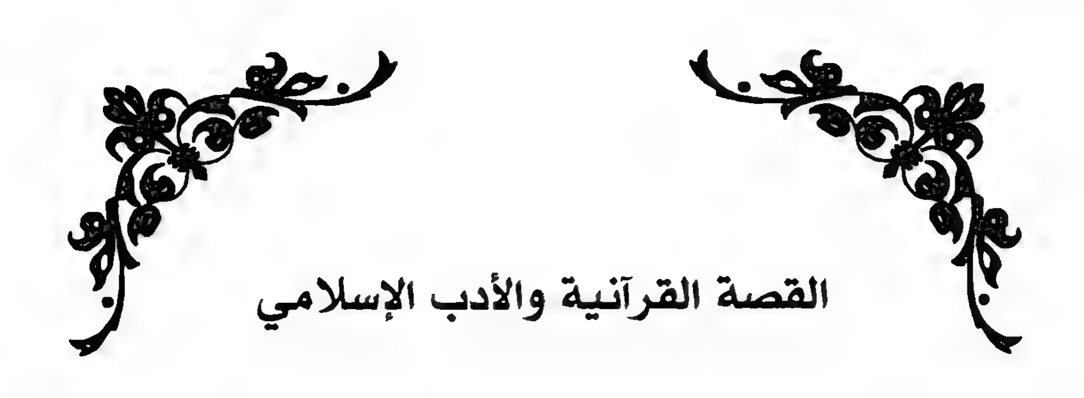
ولعل المتأمل ذا النظرة الموضوعية، يرى أن الأدباء الدعاة خاصة، كانوا ناجحين في تصوير الإنسان الذي كان الأدب من أجله، أكثر من بقية الأدباء المعاصرين الذين يصورون «الهزيمة والضياع وسط عالم مليء بالضجيج»، بينما الوضع الصحيح هو ـ كما فعل الأدباء الدعاة ـ أن يكون مع هذا التصوير رفع للمرء إلى الأعلى، أو قل انتشاله من تلك الهوة، لأنه ما فائدة الأديب إذا كان آلة تصوير جامدة، إنه بهذا الموقف يجعل الأدب قتلاً وانتحاراً، والأدب يجب أن يكون حياة وإحياء[1].

بقلم: محمد يحيى بيلاهي



---

(١) مجلة الأمة، العدد السادس والستون، السنة السادسة، جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ ـ فبراير (شباط) ١٩٨٦.



القصة القرآنية والأدب الإسلامي

القرآن هو المدرسة الأولى والأساسية للأدب الإسلامي... تلك هي البديهة المؤكدة التي يجب أن نؤمن بها ونضعها موضع التطبيق فهو ـ أي القرآن ـ معين العقيدة الصافية، وثبت القيم الأخلاقية الرفيعة، وينبوع الأساليب اللغوية المتنوعة المعجزة والقواعد النحوية الصحيحة، ودستور المسلم في أمور الدنيا والآخرة، ومقياس الصدق في العلاقات الإنسانية فردية كانت أو جماعية، وهو أولاً وأخيراً صورة صادقة للالتزام في الفكر والآداب والسلوك والعلم...

ولهذا، فإن الأديب المسلم، لا يستطيع أن يجيد تعبيره عن الكون والحياة والإنسان والمخلوقات، إلا إذا استلهم مضامين القرآن وواظب على قراءته وفهمه واستيعاب ما فيه... ويجب ألا يتبادر إلى ذهن المتشككين أو المرتابين أن هذا المفهوم يعني تعطيلاً للإبداع الفني الحديث أو تجميداً للقيم الجماعية في دنيا الآداب، فالقرآن قمة لا يدانيها بشر والجوانب الفنية والنفسية والتأثيرية فيه قد بلغت شأواً فريداً بعيد المنال، وكان هذا الأداء الإلهي الفذ قادراً على اجتذاب الفطر السليمة، وعلى إقناع العقول السوية والتغلغل إلى أعماق الوجدان الحي، ثم الخروج بالإنسان إلى نطاق الفعل المتبصر والحركة الواعية والتغيير الإيجابي وإيجاد مجتمع الخير والعدل والفضيلة مع الانتصار على سلبيات الفكر والسلوك... وهي الغاية التي طالما راودت أحلام الفلاسفة والأدباء والعقائديين في قديم الأزمان وحديثها، لأن القرآن ـ كما أشرنا ـ وضع الأسس الصحيحة «لفن الكلمة الجميلة

المؤثرة» سواء أجاءت تلك الكلمة في إطار القصة القرآنية أو في آيات الأحكام أو ضمن السرد المحكم والوصف الدقيق للأحداث والشخصيات والأمثال والقواعد العامة واحتدام الصراع بين مكونات الكون والحياة. وهذه كلها أمور تفرغ لها كثيرون من العلماء القدماء والمحدثين، ولا يزال كنز العطاء القرآني عامراً بالأسرار المعجزة والآيات القاهرة وسيظل كذلك إلى ما شاء الله.

فالقرآن بكل مضامينه المتكاملة وأشكاله التعبيرية الرائدة مدرسة أدبية متفوقة، متميزة فهو كما قال بعضهم: «ليس شعراً وليس نثراً، ولكنه قرآن» لأنه يفوق فنون القول مجتمعة أو متفرقة، ولذا عجز المشركون أن يأتوا بآية واحدة مثل آياته ولأمر ما جاءت كلمات «البلاغ» و«البيان» و«الإبلاغ» و«التبيان» تبلور رسالة الإسلام. وتحددت وظيفة الكلمة وقيمة الأسلوب في صنع الإنسان المؤمن الذي لا يؤثر فيه الشرك والخوف والعبودية والظلم والرذيلة والفساد مما يؤكد للأديب المسلم ـ أبد الدهر ـ أن للأدب أو «فن الكلمة الجميلة المعبرة» رسالة يؤديها ووظيفة يقوم بها.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾[1].

لم يكن النسق القرآني المعجز الذي لا يباري مؤنساً للعزائم أو مقعداً للهمم أو باعثاً على الفتور أو معطلاً للإبداع البشري في مجال التعبير الأدبي، ورسولنا ﷺ هو الذي قال: **«إن من البيان لسحراً، وإن في الشعر حكمة»**[2]. ودعا حسان إلى الخروج ليواجه شعراء القوم بشعر العقيدة الصادقة ولم لا؟ والقرآن هو النبع الذي يستقي منه الشعراء والأدباء؟ وماذا يضير الكلمة «المسؤولة» أن تترجم عن فكر الدعوة وأصولها بشتى الوسائل والأساليب وأن يكون «لكل مقام مقال» وأن تكون مخاطبة الناس «على قدر عقولهم»؟

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٢) شرح السنة، ج١٢، ص٢٦٣.

وقد يكون من المفيد أن نتناول في هذه العاجلة موضوعاً هاماً من موضوعات القرآن الكريم وهو القصة. والمعروف أن فن القصة ـ قديماً وحديثاً ـ له قدرة فائقة في الاستئثار بنفس السامع أو القارئ وفي التأثير عليها كما يتميز بالتشويق والجذب يستوي في ذلك الصغار والكبار والمتعلمون والأميون، ولهذا أفردت لها آداب الأمم حيزاً كبيراً من تراثها وتفننت في إبداعها وملأتها بكل ما هو مثير وأخاذ، فأدخلوا فيها السحر والخرافات والبطولات والمآسي وصاغوها شعراً ونثراً وسرداً ومسرحيات وجاءت الكتب السماوية وحفلت بالقصص كذلك، وكان القرآن الكريم مدرسة متميزة في الأداء القصصي ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ...﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[2]، ويقول أيضاً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ...﴾[4].

القصة القرآنية لها مزايا عدة منها:

١ ـ ارتباطها بالحقيقة والواقع التاريخي.

٢ ـ أنها أحسن القصص بأسلوبها ومضمونها وتأثيرها وغايتها.

٣ ـ أنها تقدم للتعليم والعظة والعبرة.

٤ ـ تنوّع أشكالها فقد تكون قصيرة جداً، وقد تكون طويلة، وقد تكون بين بين، وقد يروى جزء من القصة في مكان ومختصر باقي الأجزاء ثم تفصل الأجزاء المختصرة في موقع آخر من كتاب الله، حيث يقتضي الموقف ذلك التنوع في الأسلوب أو العرض أو الأداء.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٢.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

٥ ـ الحبكة الدقيقة.

٦ ـ الاستنارة أو لحظة التنوير قد تأتي في شكل عبرة أو حكمة أو تقرير موجز لأن القرآن يضع الهدف من القصة فوق الاعتبارات الفنية المصطنعة.

٧ ـ البعد عن الغموض والإبهام استناداً إلى طبيعة القرآن الكريم من أنه دعوة وبلاغ وإبلاغ وبيان وتبيين، ومن ثم فإن القصة فيه تحرص على الإشباع العقلي والوجداني دون حيرة وإبهام حتى يتبلور التأثير ويتوحد فكراً ونفساً ويمهد السبيل لرحلة جديدة من التفكير والتذكير واتخاذ موقف واضح.

٨ ـ الحرص على استيعاب الأبعاد المختلفة للشخصية وخاصة في نطاق الانفعالات النفسية والتفاعلات العقلية والممارسات السلوكية.

٩ ـ التركيز في بعض الأحيان على «جزئية» خاصة في القصة لها أهميتها وإيحاءاتها وخطرها على الحدث الكلي للقصة.

١٠ ـ توظيف «الكلمة» في الحصيلة أو النسق العام توظيفاً فريداً فتنطبع في الذهن وتفعل فعلها في النفس وتبدو كعنصر أساسي.

١١ ـ أن يتم البناء الفني بدونها لمن يقرأ أو يسمع.

١٢ ـ يأتي التكرار فيها وكأنه صيغة جديدة تبعث على الاهتمام والمتابعة ولا تبعث في النفس أدنى ملل ودونما حشو.

١٣ ـ شعور الاستمتاع والرضى والحماسة حين تسمع أو تقرأ بالنسبة لكافة مستويات الثقافة ومراحل العمر المختلفة.

١٤ ـ إعطاء المرأة نصيبها في القصص القرآني.

١٥ ـ التركيز على القضايا الأساسية للإنسان مثل: التوحيد ـ العبادة ـ

الخير ـ العمل ـ الصدق ـ الجهاد ـ الإيثار ـ الوفاء ـ المحبة ـ العلاقات الإنسانية ـ الصبر ـ الاستقامة... إلخ.

وتشغل قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) معظم آيات السورة وتتمازج فيها الأحداث المثيرة الشيقة وتبدأ من طفولة يوسف وغيرة إخوته منه، ومؤامرة التخلص منه وتداوله في سوق الرقيق، واستقراره في قصر عزيز مصر، وافتتان المرأة بجماله، ووقوعه مرة أخرى في براثن الغدر والمكيدة، وإدخاله السجن ظلماً، وسنوات الجدب التي حلّت بمصر، وقيام يوسف بالدعوة إلى الله في سجنه، وخروجه لتنفيذ خطة ناجحة للنجاة من خطر الجوع في سنوات الجدب والجفاف، ثم الأمل الذي يلازم أباه الحزين في العودة: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، وتبتسم الحياة... ويلتقي الأب بولده الصالح وهو في قمة مجد ولده يوسف الصديق الذي أيده الله بنصره، ونجاه من شتى الفتن وأظهر الحق وأبان عن قدرته الغالبة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، والناظر في قصة يوسف يرى عجباً فليس هناك عنصر من عناصر القيمة الفنية المعروفة إلا ونجده فيها، سواء في الشكل أو المضمون في الحوار أو الوصف في العقدة أو المقدمة أو لحظة التنوير في رسم الشخصيات والبيئات. ولنضرب لذلك مثلاً بسيطاً عن جو القصر الذي تعيش فيه امرأة العزيز:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾[3]، وهنا يظهر

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٣) سورة يوسف، الآيات: ٢٣ ـ ٢٥.

الزوج لدى الباب وسرعان ما ترتبك الزوجة فيتفتق ذهنها عن حيلة ماكرة، ومن ثم تتهم يوسف عليه السلام بأنه هو الذي حاول الاعتداء عليها... ويأتي الحكم فيظهر براءة يوسف، ولكن الضجة تثور في المدينة: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ...﴾[1]، ألا ترى ذلك (السيناريو) المذهل في حركة المرأة التي اشتعل جسدها بالشهوة وأعماها الهوى كيف تنقضّ على يوسف وتمزق ثيابه، ثم يدفعها الحقد الشيطاني لتلصق به تهمة هو منها براء، وتتمادى في هوسها ورغبتها الآثمة فتعلن على النسوة دون حياء أنها مصرة في اندفاعها الأرعن وأنها سوف ترمي بيوسف في السجن إذا لم ينصع لإرادتها المنحرفة، والغريب أن تنفذ ما هددت به بالرغم من براءته وثبوت طهارته...

إنني أسوق هذا الجزء بالذات من القصة الطويلة الفذة، لأنه يفصح إلى حد كبير عن مواصفات «القصة القرآنية» وشموليتها على الأبعاد المختلفة للحدث والشخصيات والحوار وتصوير الحركة الهادفة الموحية المؤثرة والإحاطة الحكيمة بالمشهد وهو ما نسميه (بالسيناريو) وما يضطرم فيه من أقوال وأفعال وظلال وحرارة وإضاءة، كما أسوق هذا المثل لمن يتحرجون أو يتورعون عن التعرض لمشاعر المرأة وعواطفها خاصة في حالة الزيغ والانحراف والانسياق وراء إغراءات الإثم ولواعج الشهوة وأقول لهؤلاء جميعاً: إن الأثر العام أو الكلي لدى المتلقي هو ما نهدف إليه دونما تزيد أو مبالغة تشط بنا عن القصد أو تهوي بمشاعرنا إلى جوانب الهلكة. ولا شك أن المتتبع لقصة يوسف عليه السلام سوف يستشعر معاني الراحة

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢.

والرضى حينما يصل إلى السطور الأخيرة في القصة حين تعترف امرأة العزيز بالحقيقة وتعلن طهارة نبي الله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[1]، وهناك قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل التي تفيض بالعديد من القصص المتميزة ذات الفصول الفريدة، حيث نرى أحداث قارون والسامري وفرعون والتيه وجالوت وطالوت وشعيب، وقصص سليمان وداود ونوح وابنه وقومه وإبراهيم وقومه والمسيح ومريم، ونلاحظ في هذه القصص وغيرها القضايا الرئيسية التي تمس واقع الإنسان في دنيا والعالم الآخر وما يحف به...

وبعد.. أليس هذا هو «القصص الحق»؟ أليس هذا هو «أحسن القصص»؟

وهل هناك إبداع أسمى من إبداع «البديع» سبحانه.

إن القصة بالمفهوم الإسلامي فَنٌّ سام بكل معنى الكلمة، وأنه يستمد سموه من عظم الرسالة التي يبلغها للبشر بأسلوبه الممتع المؤثر وتفوق المثل الذي يعرضه ولن نستطيع بحق أن نبدع أدباً إسلامياً حقيقياً دون النظر إلى كتاب الله والتمعن في آياته والاستيعاب لقصصه والتأدب بآدابه والتشبع بمنهجه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2]. لقد قدمت دراسات عديدة في الإعجاز البياني القرآني، وعكف بعض الباحثين على دراسة القصة القرآنية، واهتم بعضهم بمقارنة قصص القرآن بالقصص الذي ورد في الكتب السماوية الأخرى، وحاول بعضهم النبش في مظان قديمة مدعياً البحث عن أصول القصص الوارد في الكتب السماوية، وبعض الباحثين استسلموا لأوهام المستشرقين النصرانيين عامة وخلصوا إلى نتائج غاية في الغرابة والزيف؛

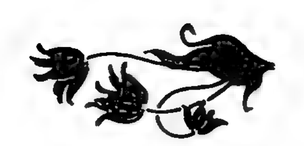
---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٥١ ـ ٥٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٠.

لكن كم واحد من أولئك وهؤلاء حاول أن يبتدع فناً قصصياً معاصراً يستلهم تراثنا العظيم ويتعلم منه معنى الالتزام ويسمو بالكلمة الجميلة المؤثرة إلى آفاقها الإلهية السامية حتى يصبح الفن الحديث بحق إعلاماً إسلامياً صادقاً بكل ما تحمله هذه العبارة من معان إيجابية بناءة؟[1].

د. نجيب الكيلاني



(١) مجلة الأمة، العدد ٥٦، شعبان ١٤٠٥هـ، ص١٩١٧، أفريل ١٩٨٥م.



حول الرواية الإسلامية

الالتزام في الأدب قضية قديمة، ومعادة، شغلت الأدباء والنقاد العرب وغير العرب... وما تزال شاغلهم الأكبر حتى الآن، فمنهم من يؤمن بمبدأ الكتابة للكتابة (المدرسة التعبيرية)، ومنهم من يؤمن بمبدأ التفاعل والاندماج، أي التزام الأديب في كتاباته بقضايا عصره ومجتمعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ورفض كل ما عداها (المدرسة التأثيرية)، ومنهم المعتدلون الذين يؤمنون بحياد الأدب...

وطبيعي أن تتباين وجهات النظر حول وظيفة الأدب، ومدى مسؤولية الأديب، وإذا جرتنا هذه التوطئة إلى الحديث عن الرواية الإسلامية كنوع من أنواع الكتابات الأدبية، ولو نظرنا إلى المطروح منها خلال العشرين سنة الماضية لهالنا أن بضعة أسماء تعد على أصابع اليد الواحدة قد اضطلعوا بها كل حسب إمكاناته، وظروفه، أذكر منهم: «سعيد العريان» و«علي أحمد باكثير» و«عبدالحميد جودة السحار» و«نجيب الكيلاني»، وقد يتساءل بعضهم... لماذا لم أضف «طه حسين» و«جرجي زيدان» و«نجيب محفوظ» إلى قائمة الروائيين والقصاصين الإسلاميين، خصوصاً وأن معظم كتابات طه حسين الأخيرة كانت تدور حول موضوعات إسلامية، وأن روايات جرجي زيدان ـ رغم نصرانيته ـ كانت تتكئ على التاريخ الإسلامي، والفتوحات الإسلامية كمنبع أساسي لها، كما أن «نجيب محفوظ» قد اتجه في بعض قصصه إلى طرح تصور لبعض الأمور المتصلة بالعقيدة الإسلامية كالبعث والحساب. لكنهم إذا ما أمعنوا النظر في طروحات «طه حسين» الإسلامية

لوجدوا أنها رؤية تاريخية بحتة متأثرة إلى حد كبير بآراء ونظريات المستشرقين الحاقدين على الإسلام (مرجليوث) وغيره... ولا يمكن عدها في عداد الروايات الإسلامية التي نصبو إليها ولا تعدو كونها ـ ردود فعل ـ مقصودة لسقطات اجتماعية وسياسية. (راجع كتابيه: الشعر الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر)...

أما روايات «جرجي زيدان» فقد كتبت لتشويه ومهاجمة الإسلام مظهرة حكامه وقواده العظام في صورة اللاهين العابثين الذين لا هم لهم إلا المتعة والبذخ كما صورت الانتصارات الإسلامية على أنها مجرد صُدَفٍ، أو خيانة في صفوف الأعداء (العباسة أخت الرشيد، أو أرمانوسة المصرية).

أما معالجات «نجيب محفوظ» الدينية (بعض قصصه القصيرة ـ كالسماء السابعة وغيرها) ـ مع اعترافنا بداءة بأستاذيته في فن الرواية والقصة ـ فينقصها الانتماء والثبات العقيدي والرؤية الصائبة لأمور لا تصح الحيرة أو الجدل في ماهيتها، وهي مجرد تهويمات غير مدروسة لنواح لا يجوز أن يتصدى لها غير دارس ـ على افتراض بأنه حسن النية ـ وبأن تصوره مجرد اجتهاد جانبه الصواب...

قلت في صدر حديثي: إن ساحة الرواية الإسلامية خالية الآن إلا من بضعة أسماء تعد على أصابع اليد الواحدة...

ذكرت منهم «نجيب الكيلاني» وهو الأغزر إنتاجاً، ونجيب الكيلاني ابن بار للثقافة الإسلامية الأصلية، تربى في رحاب القرآن الكريم، ونهل من معينه الثر الذي لا ينضب عطاؤه صبياً ثم شاباً ثم رجلاً كامل النمو الفكري والعقلي، لذا فلا عجب أن يكون اتجاهه إسلامياً خالصاً (انظر روايته: الطريق الطويل...) ولا أكاد أعرف روائياً إسلامياً غيره مزج الخيال الأدبي ـ الفن بالتاريخ ـ الإسلامي ـ وخرج بهذا المزج (الفنتأريخي) الذي لا ينكره رجال الأدب ولا يغضب رجال التاريخ، وعلى الرغم من أن ـ الكيلاني ـ ما زال متمسكاً بكلاسيكيته القديمة في المعالجة والحوار، إلا أنه تخلص من الكتابة عن البيئات الشعبية المغلقة بعكس الحال مع نجيب محفوظ، وانفتح

على البيئات الأكثر رحابة وشمولاً ليغطي الهدف الكبير الذي سعى إليه (سلسلة رواياته الحديثة: نور الله ـ عمر يظهر في القدس ـ قاتل حمزة ـ عذراء جاكرتا ـ عمالقة الشمال، وأخيراً رحلة إلى الله).

نور الله:

ورواية (نور الله) التي نحن بصدد التعرض لها تصور الصراع الدامي الذي خاضته الدعوة الإسلامية إبان ظهورها ببساطتها وسماحتها وقوة بيانها في مواجهة اليهودية بدهائها وتاريخها وبأوتوقراطيتها ممثلة في «كعب بن الأشرف» و«حيي بن أخطب» و«كعب بن أسد»، يعضدهم فريق المشركين بقيادة «أبي سفيان بن حرب»، وفريق المنافقين وعلى رأسهم «عبدالله بن أبي بن سلول» ويعترف الدكتور بتهيبه ورهبته عندما شرع في كتابة الرواية فيقول:

«. . . ومن ثم فإني أخوض التجربة معترفاً بأن شيئاً من التهيب والرهبة يواكب خطواتي لما يتوهج به هذا العصر من عظمة فوق كل تصور وبطولات أسمى من كل وصف ـ مقدمة الرواية ـ»، وتشير الرواية إلى خيانات اليهود المتوالية برغم المعاهدات التي أبرموها مع رسول الله ﷺ وبأنهم لا عهد لهم ولا خلاق، يقول الدكتور في ص ١٠٤ من الجزء الأول:

أقبل ـ حيي بن أخطب ـ تحت ستر الليل، وقصد لتوّه دار ـ عبدالله بن أبي ـ وكان لقاءاً حاراً فياضاً بألوان المشاعر والانفعالات المتبادلة، وانصرفا إلى مكان أمين لا يعكر وحدتهما فيه أحد، وتمتم «عبدالله»: لقد أقبلت قريش لتثأر لعذابنا الطويل. . . وأردف «حيي بن أخطب»: ولعذابها وأحزانها وشرفها المثلوم أيضاً قال «عبدالله»: هذا حق يا ابن أخطب. . . إن دعوة ـ محمد ـ ترمي بسهامها في قلب أعظم مقدسات العرب وتواجه أضخم تجمعاتها في سذاجة وغرور. . . ماذا يظن ـ محمد ـ؟ هل يعتقد أنه قادر على ضرب العرب جميعاً، وتغيير معتقداتهم؟ أيحسب أنه بعدد من الأفكار والبيان الساحر قادر على تحويل العقول والمعتقدات الراسخة؟. . . والله لو

أخذ العرب الخطر الإسلامي مأخذ الجد لسحقوه بين يوم وليلة...».

والرواية تشير كذلك إلى سماحة الإسلام مع خصومه، وقصة زواج النبي ﷺ من «صفية بنت حيي بن أخطب» يذكرها التاريخ بتجلة وانبهار. فعلى الرغم من أن «حيياً» كان عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين، ومات بسيف القصاص يوم - بني قريظة - إلا أن الرسول الأعظم ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[1]، نظر للأمر بعين الحكمة النبوية الصائبة فهو: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾[2]، يقول الدكتور في صفحة: ١١٧ من الجزء الثاني:

واقترب منها الرسول ﷺ وقال: **«لم يزل أبوك من أشد الناس عداوة لي حتى قتله الله...»** رفعت عينين صافيتين إلى الرسول وقالت:

«يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]... وقال رسول الله ﷺ في قوة يقين، ورجاحة عقل، وفساحة صدر: **«اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية، فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك»**[4]... قالت صفية وقد أشرقت ملامحها بالحب والإيمان: «يا رسول الله لقد هديت إلى الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى رحابك، وما لي في اليهودية أرب، وخيرتني بين الكفر والإسلام، والله ورسوله أحب إلي من العتق والرجوع إلى قومي...».

وسرعان ما أعتقها الرسول وتزوجها... صورة باهرة من صور التسامح والحنكة السياسية التي تتوفر لأعظم القواد والساسة... والرواية تصور المكائد والدسائس التي كانت تحاك سراً خلف جدر «بني قريظة» وفي

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣، ٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٤) هذه العبارات لم ترد في مدونات السيرة النبوية، وإنما هي مما تخيله الكاتب في إطار عملية إبداعية تتمثل في تحويل أحداث التاريخ إلى محاكاة أو رؤى.

حصون «خيبر» والمحاولات المستميتة لاغتيال الرسول الكريم ﷺ، وتنتهي الرواية بفتح مكة، ويحتشد أئمة العناد والحقد فيها هلعين أمام الرسول ﷺ، ويتوجه إليهم الرسول ﷺ قائلاً:

«ماذا تظنون أني فاعل بكم»[١] يقولون: «خيراً... أخ كريم وابن أخ كريم...»[٢]، فيشير بيده الكريمة قائلاً: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»**[٣]....، ويتعالى التكبير والهتاف في أنحاء مكة... وهكذا دخل ـ محمد ﷺ ـ أم القرى، ودخل في ركابه التاريخ، وقد فتح سجله الكبير ليسجل إلى الأبد أروع قصة خالدة... القصة التي تمتد عبر القرون والأجيال تقهر التحديات، وتحمل ـ نور الله ـ إلى شتى الأرجاء...» وهذا الصراع وإن كان قد اختفى بعد سقوط «خيبر» إلا أنه ظل مختبئاً في الصدور، يطفو على السطح قليلاً، ثم يتقوقع من جديد. وكانت نتيجته ما نراه الآن جميعاً...

لقد استطاع «نجيب الكيلاني» في روايته الطويلة ـ نور الله ـ أن يمزج بمهارة شديدة الفن بالتاريخ، وهذه جرأة تحسب له، وما أحسب أن أديباً مسلماً غيره أقدم على هذه الخطوة الجريئة التي نجحت إلى حد بعيد في ـ توصيل ـ بعض وقائع هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام ـ بأمانة والتزام شديدين ـ في ثوب روائي سلس... بعيداً عن التعقيدات التي يصادفها القارئ في بعض كتب السيرة...

وإذا ما انتقلنا لرواية أخرى، تصدرت رواية (عمر يظهر في القدس) قائمة الروايات الجادة... العميقة... الرفيعة المستوى حواراً وأسلوباً ومعالجة، وهي امتداد حديث للرواية السابقة من حيث تصوير الصراع السابق ذكره، وإن اختلفت طريقة العرض، وتباينت المسميات... «فعمر بن الخطاب» يعود للدنيا مرة أخرى (تصوراً بحتاً بعيداً عن فكرة التناسخ)،

---

(١) للمؤلف.

(٢) للمؤلف.

(٣) للمؤلف.

ويظهر في القدس بالذات... يقول الدكتور في ص١٠ حوار دار بين الراوي والقادم الغريب:

- «سلام عليك»... صمت في ارتباك: «من أنت»؟ قال، والابتسامة تعانق كلماته: «فرض عليك أن ترد السلام على من يقرئك السلام...» قلت وأنا ألهث: «وعليكم السلام فمن أنت؟» قال وقد أحنى رأسه حياء وتواضعاً: ...«اسمي عمر بن الخطاب» صرخت في دهشة: «من»؟

قال: «ما الذي يزعجك يا ولدي؟...» قلت: «حسبتك خليفة رسول الله»، قال: «إنه كذلك...» ويدخل «عمر» المدينة بعد أن تنزاح الصدمة عن نفس محدثه ويتجول في المدينة متعجباً من مظاهر التغيير التي طرأت على المدينة متذكراً زيارته الوحيدة لها، ونكوصه عن الزيارة الثانية عندما تفشى بها الطاعون، ويلتفت «عمر» حوله فيرى أشياء عجيبة، ويسمع أصواتاً وأسماء لا يعرف كنهها... السيارة... الطائرة... البندقية... الراديو... أمريكا... روسيا، ويجيبه مرافقه عن كل تساؤلاته، ويتعرف على كل شيء... أحوال المسلمين... فضائح اليهود... الاختراعات الحديثة، ويصطدم ببعض المشاكل ولكنه بصدقه وإيمانه وصرامته يتخلص منها الواحدة تلو الأخرى.

ويبدأ - عمر - بعد جولات التكشف في إسداء النصح، وعرض الحلول وذلك من خلال حوار صحفي ذكي قامت به إحدى الصحف اليهودية، ومن خلال أحاديثه مع أصحابه، ويتجمع من حوله أتباع كثيرون، وترتعد السلطات هلعاً من خطورته خصوصاً وأن من اليهود من انضم لدعوته - راشيل - وتقرر السلطات بمخطط مدروس إلصاق التهم الدنيئة به بغرض تلويثه، والقضاء عليه معنوياً فيصورونه - كذباً - في وضع غير لائق بخليفة رسول الله ﷺ مع تلك الفتاة المسماة - راشيل - لكنهم يفشلون فشلاً ذريعاً بعد أن نفت - راشيل - ما نشرته الصحف يقول الراوي في ص١٥٣: «دق قلبي وارتعشت مفاصلي، وزاغت نظراتي لكنني تماسكت، وتلقفت الجريدة، وحاولت أن أجري على سطورها مستطلعاً... كانت هناك صورة

للخليفة ولراشيل... صرخت محتداً: «إنها خدعة سافلة...» هذا ما حدث»... «لا يمكن... أنا أعرفه... تلك قضية مختلفة من أساسها... هل يعقل أن يتصرف أمير المؤمنين كفتى مراهق فيخطف قبلة أو يقوم بحركة شائنة!! أنتم تكذبون...».

وتنتشر قصة ظهور ـ عمر ـ في أنحاء البلاد، ويعجب الناس من وقفته الصلبة في مواجهة السلطات المدججة بأحدث أنواع الأسلحة، وفي مواجهة الأكاذيب والترهات التي ملأت الصحف والمجلات، ويبهرون بآرائه التي لاقت استحساناً، وطروحاته التي لاقت قبولاً من قطاع بشري عريض، وتحاول السلطات اغتياله... لكن الله يرد الذين كفروا لم ينالوا خيراً...، ويقرر خلصاء الخليفة خطة سريعة لتهريبه إلى أقرب بلد عربي، ويأبى ـ عمر ـ الانصياع لرأيهم في البداية قائلاً: «يا أبنائي... لا يهم شخصي... أن أسجن أو أموت، هذا شيء يحدث كثيراً لحملة المبادئ... المهم أن تنطلق الكلمات وأن تعيش في فكر الناس ووجدانهم، وأن يحملوها للآخرين...» ولكنه يوافقهم في النهاية، وتنفذ الخطة بدقة وعناية، ويصل الفريق لنقطة خارج الحدود، وتأخذهم سنة من النوم يصحون بعدها فلا يجدون للخليفة أثراً وتنتهي الرواية نهاية (ميلودرامية) مؤثرة ويتمتم الدكتور عناني ـ أحد أحباء الخليفة قائلاً: «آه يولد الفجر من بين براثن الظلام، وبقلب المؤمن فرحة أبدية... برغم العذاب، يا لروعة السفر...».

تلح على «نجيب الكيلاني» في هذه الرواية قضية ـ المثل أو الأنموذج ـ المفتقد في عصرنا المادي المغرق في فلسفات الإلحاد والشك... تلك الفلسفات التي استهوت بعض مفكرينا، فاحتضنوها وروجوا لها... تعضدهم بعض القوى الخبيثة الحاقدة بغرض تشكيك الأجيال الجديدة في معتقداتهم الإسلامية مستخدمين بذكاء شديد أجهزة الإعلام الحديثة كالتلفاز والسينما والفيديو... تلك الأجهزة التي تجاهل خطورتها المفكرون الإسلاميون، ولم ينتبه لها إلا بعضهم أخيراً...

قلت: إن القضية الأنموذج ـ تلح على «نجيب» إلحاحاً كبيراً، ولأنه

غير متوفر فلا تجد غضاضة من استعانة سيرة إحدى الشخصيات التي كان لها دور بارز وخطير في ذيوع وانتشار الدعوة، ولا يتكئ «نجيب» على الشخصية بقدر ما يتكئ على مجموع القيم والمبادئ والخصال الإسلامية التي تحلت بها كالعدل والحلم والصدق والأمانة والبساطة والشجاعة والصرامة في الحق، وقد نجح «نجيب» إلى حد بعيد في اختيار وتوظيف - أنموذجه - من خلال تصور إسلامي بارع فيما يدعو إليه من قيم ومبادئ. . .

وبعد:

تجيء هذه الروايات في وقت نحن فيه بأمس الحاجة إلى من يبصرنا بأنفسنا وماضينا. . . تجيء والصراع على أشده بين الصهيونية العالمية التي تعضدها القوى الكبرى وبين الإسلام الذي يقف في مواجهة التحديات. . . وما أشبه الليلة بالبارحة. . .

وحقائق التاريخ تؤكد أن الجولة في صالح الإسلام والمسلمين إذا ما اتحدوا. . . ولسنا هنا بصدد تحليل الروايتين فنياً، ووضعهما على مشجب مدرسة من المدارس الأدبية المختلفة، وإنما نحن نلمس العمل لمساً خفيفاً، تاركين الأكاديميين من رجالات النقد عملية التحليل والتنقيب عن القيم الفنية - الجمالية - في هذه الأعمال الوثيقة الصلة بوجدان الإنسان المسلم وهمومه. . .

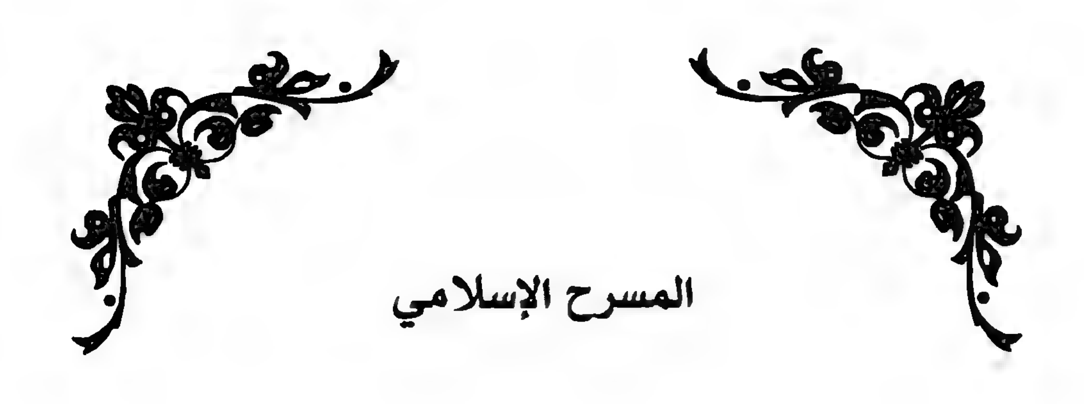
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[(١)(٢)].

بقلم: فوزي صالح

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٩، ١٠.

(٢) مجلة الأمة، العدد السادس والأربعون، السنة الرابعة، شوال ١٤٠٤هـ/ تموز (يوليو) ١٩٨٤م.



المسرح الإسلامي

لم لا يكون المسرح منبراً حديثاً للدعوة الإسلامية؟

مسرح إسلامي!!... لماذا؟

هذا سؤال ولو أنه محدد بالمسرح.. إلا أنه في واقع الأمر يعتبر أحد العناصر لسؤال أكثر شمولاً يتضمن كل وسائل الثقافة والإعلام؟

بمعنى أن نتساءل أيضاً عن مدى أهمية السينما الإسلامية والإذاعة الإسلامية، والتلفزيون الإسلامي، والأدب الإسلامي، والفن الإسلامي...

وإذا كان المناخ الفكري والثقافي له أثر هام في تكوين الاتجاهات وتغيير المسارات وتحديد الإطارات للسلوك الاجتماعي والاقتصادي والتذوق العام، فقد لا تستطيع وسيلة بمفردها أن تشكل هذا المناخ، مما يدفعنا - ونحن نتصدى للحديث عن المسرح - إلى أن نتأمل نوافذ الثقافة والإعلام، بل وبرامج التربية والتعليم العربية...

فهل يا ترى نجد فيها ما ينشده المجتمع من دعم للقيم الروحية، وتوضيح للأسس والمبادئ الجادة؟ هل نلمس ما يأخذ بيد الشباب إلى الطريق المستقيم بالقدوة الصالحة؟

هل نلمح شعاعاً من أمل لإخراج جماهير الشباب من البحر المتلاطم بالأمواج الفكرية العاتية في ظلام الليالي المدلهمة؟

بل هل يقف الشباب على مجرد عتبات المبادئ للعقيدة والعبادات السلوك الإنساني الإسلامي؟

كل هذه الأسئلة وغيرها كثير... لا يمكن الإجابة عليها إلا من خلال دراسات علمية دقيقة، وقياس سليم للاتجاهات حالياً...

ولسنا هنا بصدد القيام بتلك الدراسات العلمية، ولعله يكفينا محاولة وضع أيدينا على نموذج واحد من وسائل الثقافة والإعلام، ثم على زاوية لإحدى مواد الدراسة بمنهاج التربية والتعليم... لنقف على بعض الإيجابيات وبعض السلبيات... فقد يكون في هذا بعض من شعاع يوضح الإجابة على التساؤلات الحيوية النابعة مما نلمسه من جهل واضح فاضح بأبجديات العبادات والمبادئ الدينية، ومن تفشي ظواهر الانحراف واللامبالاة.

أولاً: نموذج من وسائل الثقافة والإعلام:

وسائل الثقافة والإعلام من سينما ومسرح وإذاعة وتلفزيون وصحافة وغيرها لها مجالاتها المؤثرة في نفوس الجماهير وعقولها وقلوبها...

وإذا أردنا أن نختار وسيلة من هذه الوسائل فقد يقع اختيارنا على (التلفزيون)... ورغم أنه أحدثها، فقد يكون أخطرها، ذلك لأنه يعرض ضمن ما يعرض أفلاماً سينمائية عربية وأجنبية، كما يصور ويعرض مسرحيات مختلفة الاتجاهات والأساليب، فوق أنه نفسه إذاعة مرئية ومسموعة، وله مجال سحري مؤثر ورهيب.

كيف نجعل التلفزيون نعمة كبرى لإسعاد البشرية؟

(التلفزيون):

هذا الجهاز الحضاري الخطير دليل مادي على قدرة الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، فهو جهاز ينقل من أعمق أعماق الأستديوهات المغلقة بعوازل كثيفة... أدق ذبذبات الصوت والصورة إلى الناس في مساكنهم،

التي يفصلها عن مكان الإرسال آلاف الحواجز والجدران، فيعيشون في المجال المغناطيسي للشاشة السحرية مع كل ما فيها ومن فيها من شخصيات مرئية مسموعة، ولعل ما ينقله التلفزيون العربي من أحداث هامة بواسطة الأقمار الصناعية من كافة أنحاء العالم في لحظة حدوثها بوضوح تام، وبالألوان ما يؤكد هذا... فهل يخفى على الله من شيء في الأرض أو في السماء؟

هذا الجهاز نعمة كبرى من نعم الله... لإسعاد البشرية... ما في ذلك شك... وقد ينقلب... فيكون خلاف ذلك إلى حد كبير.

ونبدأ بذكر بعض الإيجابيات فيما يعرضه التلفزيون من برامج دينية مشرفة مثل احترام إذاعة الأذان للصلوات في مواعيدها، ولو أدى الأمر إلى قطع البرامج المعروضة مهما كانت أهميتها، ومثل الندوات والبرامج الإعلامية والإخبارية والثقافية الجيدة وغيرها...

تخطيط هادف لهدم القيم:

ثم يرتجف القلب والقلم حينما تتصدى لذكر بعض الجوانب الخطيرة في برامج التلفزيون... حيث أصبحت جرعات الجنس والجريمة التي يبثها كثيفة بالنسبة لساعات إرساله، علماً بأن هذه العروض في الأفلام والتمثيليات والرقصات والأغنيات والحلقات العربية والأجنبية كأنها منتقاة بتخطيط لا يهدف إلا إلى تحطيم القيم والتقاليد العربية والإسلامية، وأخطر ما في هذا الأمر هو التفنن والتفوق في إخراج هذه الألوان التي تجسد الجرائم وتجعل الخيانة الزوجية، والاغتصاب، بل وتبادل الزوجات... محوراً تدور حوله الكثير من النماذج، حتى تترسب في وجدان الجيل الجديد. وكأنها عادات راسخة ومتفشية في المجتمع... تدعو الشباب إلى ممارستها وتقليدها في غيبة من تجسيد القدوة الصالحة... مما يجعل الآباء والأمهات في حرج بالغ أمام تلك العروض الطاحنة للمثل والأخلاقيات، وهي تتسلل من هذا الجهاز السحري الخطير مخاطبة غرائز الفتيات والشبان في فحش مقذع وتعرية متبجحة.

ماذا يفعلون:

ولا يملك أولياء الأمور في المنازل حيالها إلا أن يكتموا أنفاسهم، ويغضوا أبصارهم ويعيشوا في حيرة تزيد من نبض قلوبهم، ويتمنوا لو تمكنوا من إغلاق الجهاز، أو لعل الله يتداركهم ويلطف بهم فتنقطع الكهرباء، ويتعطل الإرسال تلقائياً حتى تهدأ نفوسهم ويجف عرقهم ويزول خجلهم...

ولقد صارت مواعيد الحلقات المسلسلة والأفلام مقدسة لدى الجماهير تقديساً يتغلب على كثير من الواجبات المهمة، ولا يمكن قبول التبرير بأن هذه الأعمال هي ترجمة لما في كتب الأدباء المعروفين... فإننا شعب غير قارئ، إذ أن نسبة الأمية في الوطن العربي نسبة كبيرة وخطيرة، وتقلل من قيمة الكتاب وأثره، كما أن هذه الأعمال لو حولت إلى أفلام سينمائية فإن الاختيار أساس لمشاهدتها، ولكن التلفزيون ذلك الجهاز الذي يشاهده الصغير والكبير، والفتاة، وربة البيت، والعاملة، وحتى الزوار والجيران في شوق ولهفة، فتحفر عروضه في الوجدان والعقل والقلب ما يبقى أثره حاضراً مهما طال الزمن.

وفي رمضان:

ومنذ أعوام غير قليلة، والتلفزيون في ليال رمضان يصر على تكثيف برامج اللهو والتسلية بالاستعراضات الراقصة والغنائية والفكاهية المبتذلة، وتغليبها على البرامج الجادة مما يجعل الليالي الكريمة في شهر القرآن لهواً وعبثاً... بدلاً من أن تكون ملائمة للقيام والعبادة والنسك والتفقه في أمور الدين والشريعة والتربية الإسلامية الحقة...

مطلوب إعادة النظر في برامج التربية الدينية بمدارسنا ومعاهدنا...

ثانياً: زاوية من برامج التربية والتعليم:

كذلك لسنا بصدد التصدي لبرامج التربية والتعليم التي تحتاج إلى

متابعة علمية شاملة لكافة المراحل والأنظمة والتطورات على هدي من الأسس والأهداف الكبرى التي تنشدها الدولة، مما يحتاج إلى مؤلفات ومجلدات من لجان وهيئات متخصصة لا من مجرد أفراد... ولكن ما يعنينا هو الإشارة ـ مجرد الإشارة ـ إلى زاوية مما تتضمنه إحدى تلك الزوايا من مقررات التربية الدينية، هل هي كافية لمخاطبة واستثارة الوازع الديني لدى الطلاب، وإزالة ما ران على العقول والقلوب من شوائب مادية عاتية، وإشباع الجوع والفراغ العقائدي وتمزيق الستر الكثيفة التي حجبت نور الإيمان وشمس اليقين؟

هل مجرد عقد امتحان في التربية الدينية، وجعلها مادة نجاح ورسوب يحقق ما نأمله من تدريس هذه المادة من توضيح وتعميق المفاهيم الدينية، ومن ممارسة السلوكيات الإسلامية الخالصة، فمن تذوق حلاوة الحلال، والإحساس بمرارة وجرم العيب والحرم؟ هل المدرسون للتربية الدينية متخصصون وعلى مستوى المادة وأهدافها؟

أين القدوة؟

لعل ما نلاحظه من الظواهر المتفشية في نسبة عالية بين طلابنا من انصرافهم عن العبادات، وجهلهم بأمور دينهم، وعدم الإحساس بأهمية الممارسة السلوكية لمبادئ الإسلام التي تحددها الأوامر والنواهي، لعل هذه الظواهر هي الإفرازات الطبيعية للمناخ الفكري العام... مما يجعلنا نضيء مصباحاً أحمر لإعادة النظر في برامج التربية الدينية من المرحلة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية.

ومن المؤكد أن هذا لا يتم ولا يتحقق إلا (بالمربي الديني) لا مدرسي الدين.

فهل هو موجود ضمن هيئات التدريس بالصور المثلى؟

كان يتولى تدريس الدين في الماضي أساتذة متخصصون درسوا العلوم

الدينية واللغوية في المعاهد الدينية والأزهرية بكافة مراحلها، ثم دار العلوم نحو اثني عشر عاماً.

أما اليوم، فقد أصبحت دار العلوم تقبل طلابها من بين حملة الثانوية العامة، وقد يكون مجموع درجاتهم متواضعاً، وقد لا يكون التحاقهم بدار العلوم عن رغبة وإنما عن طريق الإرغام الذي تفرضه أسس التنسيق، وبالتالي فإن صلتهم بالدين ودراسته محدودة وغير كافية، فوق أنها مفروضة.

وحتى معاهد إعداد المعلمين للمرحلة الابتدائية (قاعدة الهرم التعليمي)، والتي تضم ملايين التلاميذ في أنحاء الوطن العربي...

كانت هذه المعاهد تشترط لمجرد الالتحاق بها حفظ القرآن الكريم بأكمله، وكانت خطة الدراسة بها تتضمن الكثير من علوم التفسير والحديث والفقه لمدة خمسة أو ستة أعوام كاملة.

أما اليوم، فإن هذه المعاهد لا تشترط حفظ أي جزء من القرآن الكريم، وخطة الدراسة فيها لا تركز كثيراً على المواد الدينية...

الدرس المشاع:

وإذا كان لكل مادة أساتذتها المتخصصون، فإن مادة التربية الدينية ليس لها مثل ذلك، لأنها مضافة إلى مدرسي اللغة العربية وهم يضيقون بتدريسها، ويتمنون إعفاءهم منها.

ولعل الأمر بهذه الصورة القاتمة يحتاج إلى مراجعة شاملة لإعداد (المربي الديني) المتخصص، في بيئة مفعمة بالروح الدينية الحقة، حتى يمتلئ عقله وقلبه ووجدانه بالمبادئ والمثل الإسلامية، وحتى تتكون فيه القدوة الصالحة المؤثرة في الطلاب تأثيراً إيجابياً بخلق المناخ الصالح لاستنشاق الهواء النقي. وإيقاظ الضمير العام والحد من مظاهر الانحراف، والتمسك بالقيم والمبادئ، وتكوين عادات الصلاة والصيام وتوقير الكبير، والعطف على الصغير، والصدق والأمانة والإخلاص والوفاء... بالقدوة والحوافز... حتى نسهم في تنشئة المسلم عملاً وسلوكاً، فلا يكون مجرد

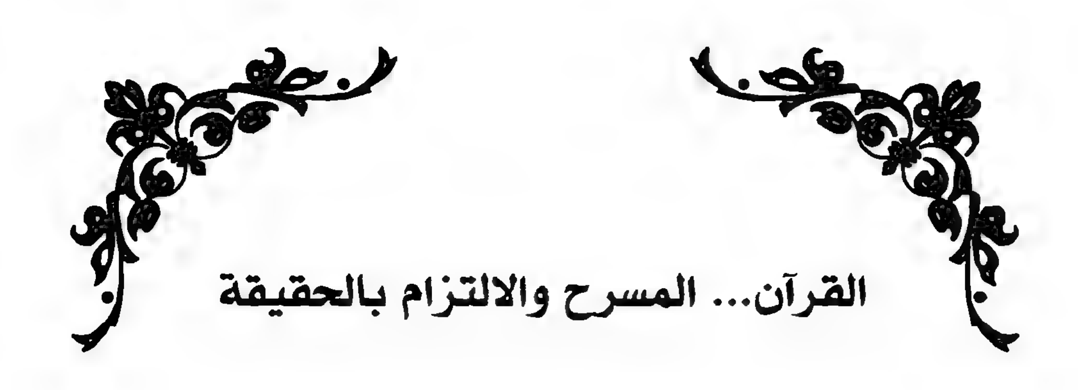
(اسم مسلم) (في شهادة الميلاد) من هذين النموذجين، والعرض الموجز لهما.. نجد أننا في مسيس الحاجة إلى (مسرح إسلامي) يساعد مع غيره من مجالات الثقافة والتربية والإعلام الأخرى في المناخ الذي نبتغيه لصالح الفرد والمجتمع، خاصة وأن أثر المسرح في هذه الأيام لم يعد قاصراً على قاصديه، ولكن أثر المسرح أصبح خطيراً... حيث أن العروض المسرحية تدخل كل بيت، وتخاطب الملايين من جماهير الشعب عن طريق الإذاعة وعن طريق الشاشة السحرية الصغيرة (التلفزيون).

والسؤال الذي نطرحه في نهاية هذا المقال: لم لا يكون المسرح منبراً حديثاً للدعوة الإسلامية؟[1].

بقلم الأستاذ: أحمد شوقي



(١) منار الإسلام، العدد التاسع، السنة التاسعة، رمضان ١٤٥٤هـ/ يونيه ١٩٨٤م.



القرآن... المسرح والالتزام بالحقيقة

كتاب في مقال:

الموقف:

...في البدء: ولد المسرح دينياً... في أمتنا عرف المسرح بالسخرية من هذا الدين! تلك ولادة غير شرعية.

ازدهر لفترة في مصر وسائر بلدان أمتنا... ولكن حقائق عدة غابت عن ذهن المتفرج... فكثير مما رآه وأسماه مسرحاً: قمامة لندن وباريس!

وخير الأعمال المعروضة بضاعة مستوردة، وأغلب جوانبه الفكرية:

إسقاطات أيديولوجية وسموم عقائدية، والأبواب مفتوحة لكل راغب عن الدعوة الإسلامية أو مزج لعادات وتقاليد جاهلية!.

لكن الإيجابيات ـ سمة الشخصية الإسلامية ـ لا تدع الباحث يقف كالمتفرج... وجاء الدكتور محمد كاظم حسن الظواهري من كلية اللغة العربية في الأزهر الشريف ليقدم لنا أطروحته للدكتوراه متناولاً ثلاث قضايا:

ـ الأصالة والتأثر.

ـ الفصحى والعامية.

ـ الالتزام.

ويجعلها تحت عنوان: **قضايا النص المسرحي المعاصر في مصر...**

ريادة المسرح نشأة مستوردة:

أكثر من خمسين في المائة من النصوص المسرحية المعروضة مستوردة، مترجمة أو مقتبسة، بل وصلت إلى مائة في المائة في أحيان كثيرة خاصة في سنوات الركود، فهناك تناسب طردي بين الاستيراد والركود.

وذلك أدى إلى:

١ ـ استيلاء الآداب الأجنبية على العاملين في هذا الحقل، وما يتبع ذلك من تشبع القلوب والعقول بمضامينه وأشكاله، حتى إن كانت هذه المضامين وتلك الأشكال مما يخالف الأعراف الفنية والأدبية والاجتماعية والاعتقادية.

وعليه، فإن أَيَّ إفراز أدبي، أو تصور، أو نقد، سوف يكون نابعاً من منطلقات لا تمثل روح الفن العربي الإسلامي، وسوف يكون خالياً من الأصالة المطلوبة لفن أمة آخذة في النمو والازدهار، بعد أن أفقدتها كبوتها أمام أعدائها شخصيتها المتفردة بين الأمم على مر التاريخ.

٢ ـ ضحالة وقلة النتاج الأدبي المسرحي الذي يجود به الكتاب بالنسبة لما ينتظر منهم، فهو من جهة الكم لا يملأ الفراغ المتاح، ومن جهة الكيف لا يفرض نفسه على أهل هذه الضعة، أو على جمهور المتلقين، لأنه في جملته صور شائهة لا تصل إلى مستوى الأدب الغربي، لا في فنياته ولا في أصالته بالنسبة لأهله، لا ولم تصل هذه الصور إلى درجة الصفاء والأصالة بحيث تمثل أمتنا العربية الإسلامية.

الاستيراد... والفصل التعسفي بين الفن والأخلاق!

ولأن المسرح أداة فعالة، ولها سحر وسلطان على الناس، فقد حرص التغريبيون على طمس هذه الحقيقة بإيهام أمتنا بأن الفن شيء والفكر والأخلاق شيء آخر، وصدق بعضهم هذا المفهوم، وردده الكثيرون من

أدبائنا تحت رداءات الموضوعية والعلمية، وكان هذا وما يزال من أخطر المفاهيم الأجنبية المستوردة فكان قيداً على الأخلاق والمثل والقيم كيلا تنفذ من خلاله إلى المسرح، وفي الوقت نفسه كان يفتح الباب ـ وما يزال ـ على مصراعيه أمام الأدب المكشوف وكل ما يناقض القيم والمفاهيم الإسلامية مما يعرض ويزخر به فن المسرح.

والأدب المسرحي الغربي الذي تأثر به كتّابنا مبني على فقدان الثقة بالخالق عز وجل! وعلى عدم الإيمان بجدوى الوجود والحياة، وعدم الإيمان بمعقولية العقل ومنطقة الفكر، بل أنه يزخر بروح تشاؤمية مفرطة نتيجة عدم الإيمان، ونتيجة للفصل التعسفي بين الفن والأخلاق والدين رغم نشأة هذا الفن والمسرح أساساً في ظل الدين!

الصراع بين الفصحى والعامية، قضية إسلامية في المقام الأول، ومناصرة الفصحى واجب إسلامي صميم:

لقد كان النص المسرحي هو المجال الأرحب لتزويد العامية بأغزر تراث مكتوب لم تكن تحلم به.

الهزيمة والشلل النصفي!

يقول الدكتور الظواهري: بوقوع أحداث **١٩٦٧م**، حدث ما يشبه الشلل النصفي للمسرح، إذ فقد الكثير من حيويته، على الرغم من عدد المسرحيات التي خرجت لتعبر عن الأحداث (كالمسامير) لسعد الدين وهبه، وقضية فلسطين (٤) مسرحيات، ولكن منذ ذلك الوقت لم يستطع الكثير من المؤلفين أن يستمروا في أداء الدور الذي كان ينتظر منهم أن يقوموا به.

ومنذ عدة سنوات مضت. . . وإلى اليوم، يعيش المسرح في مصر على بقايا ونتحات ما جاد به كتابه في مرحلتي النمو والازدهار رغم استيرادها!.

النهاية الطبيعية:

وقد يبدو أن هذه النهضة وهذا النمو، وتلك الخاتمة المأساوية المحزنة للمسرح في مصر، كانت وليدة تفاعلات بيئة فنية وسياسية واجتماعية، واستجابة للمتغيرات التي تمليها طبيعة المرحلة، ولكن الواقع والدراسة المتعمقة يثبتان أن هذه الظواهر كانت إلى حد بعيد وليدة تأثيرات أجنبية، وأن هذه النهاية التي آل إليها أمر النص المسرحي في مصر كانت نهاية طبيعية جداً لأدب تنكر لشخصية مجتمعه ومعتقداته وأخلاقه وذوقه وفنه... ولم يكن قريباً من أسس الفن المسرحي ذاته!.

لغة الحوار المسرحي... بين العامية والفصحى:

أثبتت الأيام، أن افتراض حسن النية في قضية الصراع بين العامية والفصحى لا يجدي، وأنه ضرب من الغفلة أو السلبية أو التعامي عن الحقائق!

فقد ثبت لدينا أن الدافع الأول والرئيسي للدعوة للعامية ـ بشتى صور هذه الدعوة ـ هو الحقد على الإسلام والقرآن الكريم، وأن المحرض الذي دفع إليها وأغرب ببذل الجهد في سبيل نشرها هم ورثة الصليبية من المبشرين، إما من النصارى أو اليهود، وأما من المخدوعين بحضارة أوروبا وبهرجها وزين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً!.

والملاحظ أن:

أول من تولوا كبر هذه الدعوة ـ إلى العامية ـ كانوا من المهتمين بالمسرح ومنهم المؤلفون المسرحيون.

أن المسرح كان ـ منذ وجد في بلادنا ـ وما يزال هو المجال الرحب الواسع الصدر لهذه الدعوة، ولم يدخر وسعاً في خدمتها ومدها بكل أسباب الاستمرار والبقاء، وكذلك هو كل دعوة هدامة أو غرض مريض.

المتصدون العزل!

وقامت قوى أربع تقود الصراع لنصرة العامية على الفصحى في سائر المجالات وخاصة المسرح:

- أعداء الإسلام من المستعمرين وعملائهم.
- حركة التنصير باسم الوطنية.
- حركة التنصير باسم الفرعونية.
- الهازلون.

ولم يقف في ساحة هذا الصراع من أنصار الفصحى إلا أفراد من رجال الفكر والأدب والدعوة الإسلامية أمثال: الشيخ محمد عبده، والشيخ علي يوسف، والشاعر حافظ إبراهيم، والأديب مصطفى صادق الرافعي.

ولا يخفى أن هؤلاء ـ على فضلهم ـ ومن على شاكلتهم، لم يكونوا على علم بأسلحة أعدائهم، وأولها المسرح، وربما أيضاً لم يكونوا على علم بأهدافه، كما أن المعركة كانت دائرة بعيداً عن الساحة التي يقفون فيها، ولهذا استشرى هذا الداء في التأليف المسرحي أكثر من أي مجال آخر، وعلى الرغم من أنه قضي عليه في كثير من المجالات كالصحافة والأدب القصصي، وأصبح الشغل الشاغل لمؤلفي المسرح من أتباع هذه الدعوة تحقيق غاية كبرى وأمل منشود هو محاولة مد العامية بتراث مكتوب ودعامة تكون عموداً فقرياً لها، فيدفع بها إلى مصاف اللغات الأدبية والمكتوبة ذات التراث الفكري والفني... ولكن هيهات!

اللغة العربية ومعالم الشخصية:

لقد مثلت اللغة في كيان أمتنا الإسلامية معالم شخصيتنا لا أداة حوار فقط كما في الأمم الأخرى... ولقد فطن الأعداء والخبثاء إلى هذا فحاربوا الإسلام في شخصها، ولقد شهد القرن الرابع عشر الهجري تأجج نيران الحقد على الإسلام بهذا الأسلوب الخبيث، قام به عدد من المستشرقين والمستغربين، منهم (لويس عوض) و(سلامة موسى).

وظل (لويس عوض) يحرص بين الحين والآخر ـ كما فعل في العام الماضي وأصدر كتابه (مقدمة في فقه اللغة العربية) ـ على طعن اللغة ومحاولة تجديد الدعوة إلى نبذ اللغة العربية واستبدال لغة أوروبية بها، حروفها لاتينية أو على الأقل إحلال العاميات العربية محلها لتفتيت وحدة العرب وحبسهم عن تراثهم وتفريق المسلمين أشتاتاً من تحت رايتهم. . .

فالقضية: الفصحى والعامية، هي قضية إسلامية في المقام الأول!.

العامية ومجال المسرح:

ولقد كان النص المسرحي هو المجال الأرحب لتزويد العامية بأغزر تراث مكتوب لم تكن تحلم به. . . وكتاب المسرح ـ بعد هؤلاء ـ لهم دوافع قد تتفق معهم أو تختلف في تفضيلهم الكتابة بالعامية، فالجانب الأكبر منهم: يدفعه الجهل وإيثار السلامة، والأخير: يؤثر مصالح الهيئات والحرص على رضاها، والثالث: تجود عليهم العامية بزاد طيب من القفشات والنكات والتوريات التي لها في ذهن السامع خلفية تزيد من جرعة الإضحاك المبتغاة. . . ولو على حساب القيم الدينية والفنية، والرابع: هم جماعة من الماركسيين الذين يتخذون العامية شعاراً للغة الشعب والطبقة العاملة، وهؤلاء جميعاً يدعون إلى أن العامية تستطيع أن تقوم بمتطلبات الفن وشؤون الحياة وأنها لغة شاعرة!؟

لغة المسرح المثلى:

وعلى الرغم من هذا كله. . . فقد قصرت الدراسة نفسها على أن تتجه اتجاهاً محايداً علمياً ينطلق في سبيل البحث واستنباط مقومات اللغة الفنية للنص المسرحي، وذلك بعد استعراض أساليب الكتاب في التعبير المسرحي، ومآخذ النقاد واختلافهم ومعاركهم وآرائهم حول النص المسرحي ولغته.

وتوصل الباحث إلى أن القرآن الكريم هو أنموذج المثل الأعلى للفن

الإسلامي، وأن النظرية المثلى في علم الجمال وقواعدها وقوانينها يسهل استنباطاً من أعطافه. . .

وبهذا المركب الصعب نستطيع أن نثبت أن شموخ وجلال الفن في النص الرباني لا يحول بينه وبين أن يصبح مثلاً أعلى لحوارات البشر في آدابهم التي تقف دونه بمراحل لا يحصيها إلا علام الغيوب!.

ولنا في هذا أن نتساءل عن الحقيقة في ما يسمى بعالمية الأدب ولغته، فلقد استطاع الغرب أن يفرض علينا تراثه الأدبي، ونجح في إقناع الأمم المبهورة به بعالمية هذا التراث، ووضع نصب أعيننا نماذج من أعمال كبار كتابه عبر التاريخ وقال لنا: احذوا حذوها ما استطعتم، فسمعنا وأطعنا وغفلنا عن عدة حقائق:

أن عالمية هذه الآداب والنماذج حكم قضي به غيرنا وسلمنا به.

أن هذه الآداب لا تخلو من مآخذ تؤاخذ عليها أو أمور تختلف عما ألفنا من عادات وتقاليد، وحس جمالي وفني، ولا تخلو كذلك من لمحات كثيرة تسيء إلينا.

إن هذه النماذج مهما كانت جودتها، فإننا نملك في تراثنا الأدبي ما هو أعظم منها.

الحاجة لمنهج جديد:

إن حاجتنا لمنهج جديد لدراسة القرآن الكريم حاجة ملحة، وإن اقتصار الجهد على جهود علماء البلاغة النظرية وتقعيد القواعد مع إهمال الجانب التطبيقي للنص عامة. . . أمر واجب النظر فيه من جديد حسب واقعنا.

ولقد حاول بعض المفسرين أن يعثروا على مواضع التناسق في آي القرآن فلم يصلوا إلا للترابط المعنوي في بعض المواضع دون بعضها الآخر، ودون الاهتداء إلى حقيقة شاملة.

أما الباحثون في البلاغة وفي إعجاز القرآن وهم الذين خلي بينهم وبين البحث في صميم العمل الفني في القرآن، فقد شغلوا أنفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى وغلبت على بعضهم روح القواعد. . . رجل واحد من البلاغيين هو الإمام عبدالقاهر الجرجاني هو الذي أوشك أن يصل إلى شيء كبير، لولا أن قصة المعاني والألفاظ لاحقته وظلت تتخايل له من أول كتابه دلائل الإعجاز إلى آخره.

يقول الدكتور الظواهري:

إننا في أشد الحاجة إلى منهج جديد لدراسة هذا الكتاب المعجز، على أن يضع المنهج نصب عينيه أموراً ثلاثة:

١ ـ البحث عن الأصول العامة للجمال الفني في القرآن الكريم، وبيان السمات المطردة التي تميز هذا الجمال عن سائر ما عرفته اللغة العربية وغيرها من أدب وتفسير الإعجاز الفني تفسيراً يستمد من تلك السمات المتفردة في القرآن الكريم.

٢ ـ الإفادة من القرآن الكريم إلى أبعد مدى في وضع حجر الأساس لصرح نقدي فريد تنبع قواعده من مصدر غير ذي هوى، وتتم على أساسه الدراسة النقدية للنص المسرحي كنص أدبي، ويتم تقويمه.

٣ ـ البحث في مقومات اللغة اللازمة للحوار المسرحي، متعقباً في ذلك الآداب الأجنبية والأدب العربي، ومستفيداً من كل جهد سابق في هذا المجال ومستنبطاً الأسس والقواعد التي تتشكل من خلالها سمات الحوار الفني للمسرحية. . .

وهنا يقدم لنا المنهج مثلاً أعلى للغة الفنية، متمثلاً في القرآن الكريم.

المسرح الشعري. . . وغنائية الشعر العربي:

وكان هناك في نهاية القضية تساؤل طرحته الدراسة:

ـ هل تتعارض هذه الغنائية وطبيعة الحوار المسرحي؟

هذه الغنائية بهذا التركيز في شعرنا صالحة وضرورية للمسرح الشعري الذي يرقى بالناس فوق الحياة المادية التي يحيونها، وبهذا النثر المرقع الذي يسمونه شعراً يجب محوه من بين الأساليب التي تصلح للغة الحوار المسرحي، ولا يبقى إلا الشعر الحقيقي يليه النثر الفني الذي يتحرك بروح الشعر، ليدفع الحوار والحدث بعامل المقاومة... وهو ما وجدناه في أسلوب باكثير، وفي أسلوب الحكيم قبل أن يتدنى إلى مستوى... اللغة الثالثة ـ التي ليست هي فصحى العامية ولا عامية الفصحى إنما هي العامية بعينها ـ.

الأدب المسرحي وقضية الالتزام:

يقول الباحث:

إن القضية هي فقدان التصور الإسلامي لمعنى الفن ووظيفته في هذه الحياة وعلى المسلم أن يعي خصائص التصور الإسلامي لكل شيء ومقوماته ثم يطبقها على الفن وفي يسر متناه يجد نفسه وقد خرج من هذا التيه: خرج بالحقيقة:

الحقيقة المطلقة التي عناها (هوجو) بقوله: (**ليس المسرح بلد الواقع، ولكنه بلد الحقيقة**).

الحقيقة التي لم يستطع بشر أن يتوصل إليها بمعزل عن الوحي الإلهي...

لقد بذل الإنسان أقصى جهد فلم يعد مجهوده أن يكون تخرصات تخطئ أكثر مما تصيب، فكان من نتاجها المذاهب المادية في العلم كنظرية (داروين) وفي الفلسفة كفلسفة (نيتشه) و(كانت) وغيرهما، وفي المجتمع والتاريخ والاقتصاد كنظرية (ماركس) ووجودية (سارتر) وفي النفس كنظرية (فرويد)... وغيرها. ولكن أحداً لم يستطع قط أن يتوصل إلى الحقيقة المطلقة كما صنع الإسلام، إذ فسر للناس لغز الحياة المحير وعرفهم الغاية

من خلقهم وهي: عبادة الله تعالى بمعناها الواسع الذي يشمل الحياة كلها، في إطار من الصلاح والإصلاح والسعي إلى مرضاة الله سبحانه.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[١].

الحقيقة في العمل المسرحي:

إن العمل المسرحي ليس نسخة من الطبيعة، وليس تقليداً لها، وإنما هو تكثيف لها، وهو ما فهمه (هوجو) من قول (هوراس) عن الدراما: إنها انعكاس للحقيقة، لأننا لا يمكننا أن نتصور أن علاقة الدراما بالحقيقة علاقة محاكاة أو انعكاس، ولكن الدراما هي الحقيقة، والفن الحقيقي هو الذي تهيمن عليه الحقيقة المجردة.

بين طبيعة الدراما والحقيقة:

وما دامت الدراما هي الحقيقة، والحقيقة في تصورنا الإسلامي مطلقة مجردة علوية فهل يعقل أن نتبع هذه الحقيقة المطلقة، ثم يبقى على الأرض شيء من موجبات الصراع الذي هو عنصر أساسي في الدراما؟

يقول الباحث:

إن الشيطان ما زال قائماً بيننا، لم يرحل عن أرضنا، وهو يعمل بجد ونشاط، إذن فأقوى موجبات الصراع باق في تصورنا الإسلامي، ومع أعمال الحقيقة المطلقة التي ينبغي على الأديب المسلم أن يلتزم بها.

فالالتزام في الإسلام إنما هو التزام بالحقيقة الواحدة وما ينبثق عنها تصور أعمق وأكبر وأشمل، لا يسع المجتمع المسلم وأفراده إلا أن يلتزموا به إن أرادوا أن يتخطوا ما فرض عليهم من التخلف في عصور الضعف والاستعمار، حتى يلحقوا بركب التطور البشري.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

لقد رسخ هذا التطور مثلاً في نفس علي باكثير، ودأب على تجليته من خلال الالتزام بالحقيقة في سائر أعماله الأدبية مسرحية وقصصية وشعرية.

الالتزام بالحقيقة... والمذاهب الأدبية:

تنطلق الدراسة في هذه النقطة من مبدأ يعد المذاهب الأدبية والفلسفية أمراضاً أو جراثيم حضارية أصيب بها المجتمع الأوروبي ثم صدرت إلينا، وإذا أخذنا فرنسا كقطاع من هذا المجتمع وجدنا أن ما يسمى بالكلاسيكية قد ولد فيها بأوامر ملكية وبابوية لمقاومة تأثير الشعر الغربي في مجتمع فرنسا، فكان الكاردينال (ريشيليو) يصدر تعليماته للمؤلفين بكتابة مسرحيات تحاكي أعمال الرواد من الإغريق والرومان وتمجد التضحية بالنفس والمال والأحباب في سبيل الواجب... ولما بدأ المجتمع يغلي بالثورة على الحكومة ـ حكومة الإقطاع ـ راجت أفكار تدعو إلى الحرية الذاتية والفردية وإطلاق العنان للعواطف المكبوتة والثورة على كل قيد يكبل الإنسان والمجتمع... فكانت الرومانسية التي أغرقت هذا المجتمع في الفوضى والثورة التي أكلت نفسها بنفسها ولم يكن من مقاومة هذا التيار بعد أن استفحل خطره فوجدت الحاجة إلى مذهب جديد يوائم الروح العملي والعلمي الذي واكب ركب التقدم، فكانت الواقعية التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر ميلادي وهكذا كانت تولد المذاهب في المجتمعات الغارقة في فراغ من العقيدة الحقة، ومن الأسف أن يتابعها في هذا مجتمع مسلم.

هل أصف ـ بعد ذلك ـ شاعراً كشوقي بأنه شاعر كلاسيكي؟

إن رفض هذه المذاهب الأدبية نابع من اعتماد التصور الإسلامي والالتزام به ـ بالحقيقة المطلقة ـ نبعاً فياضاً لا بديل له ليكون دستور حياتنا الفنية، ورفضاً لكل محاولة يقوم بها كتابنا ونقادنا في محاكمتنا إلى فكر مستورد!.

وبعد...

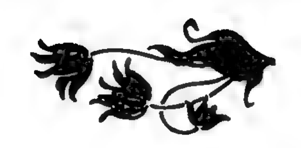
فإن رسالة الدكتور كاظم الظواهري للدكتوراه خرجت من الجامع الأزهر...

فهل آن الأوان ليحمل رجاله ـ رجال اللغة العربية وأدبها ـ لواء ظهور الأدب الإسلامي والمسرح الإسلامي ظهوراً يصبح به تياراً فعالاً ومؤثراً في حياة البلدان الإسلامية... فيظهر ذوو الحق... وتختفي إلى الأبد جاهلية الفن والأدب في القرن الخامس عشر الهجري؟!.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[١] صدق الله العظيم[٢].

تأليف: د. محمد كاظم الظواهري

عرض: أبو علي حسن



(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) مجلة الأمة، العدد ٢٦، ديسمبر ١٩٨٦م.




ملحق (أ)

خطوط عريضة لمنهج أكاديمي مقترح لتدريس الأدب الإسلامي في المعاهد والجامعات

هذه خطوط عريضة تتضمن عدداً من المفردات الأساسية، وتستهدف تقديم منهج أولي لتدريس مادة الأدب الإسلامي في المرحلة الجامعية.

وهذه المفردات تتقبل ـ بطبيعة الحال ـ التغير والتبديل والزيادة والنقصان، كما يتضمن كل منها حشداً من الجزئيات والفروع والتفاصيل، وقد يضاف إليها الكثير فيما بعد، وهذا لن يتأتى إلا من خلال التجربة، أي الممارسة التدريسية التي هي المحك الأساسي لاختبار المناهج وتحديد المفردات.

المهم ـ أولاً ـ هو وضع صيغة منهجية مفتوحة، ولكنها تلتزم في الوقت نفسه أكبر قدر ممكن من التوازن والتماسك والتسلسل المنطقي، والتغطية الدقيقة للمسالك التاريخية والنقدية والمقارنة والجمالية وتراعي ـ كذلك ـ الصيغة الأكثر قدرة على توصيل هذه المادة البكر إلى عقل الطالب الجامعي الذي يكاد يتلقاها أول مرة.

وفيما يلي عرض مركز للمفردات الأساسية للمنهج المقترح، يتوخى تجاوز إيراد حشود من الجزئيات والتفاصيل التي تندرج كل مجموعة منها ـ بالضرورة ـ تحت هذه المفردة أو تلك.

ويمكن أن تتولى مجموعة من الباحثين والأدباء الإسلاميين تنفيذ هذا المنهج من خلال توزيع أبوابه وفصوله عليهم، كل حسب إمكاناته وتخصصه، شرط أن يكونوا جميعاً على علم مسبق بخارطة الكتاب المنهجي الذي سيسهمون في بنائه، من أجل أن يتحقق العمل التأليفي بأكبر قدرٍ من التوازن والتكامل والانسجام والفهم المشترك، ومن أجل أن يكون نسيجه متوحداً قدر الإمكان.

الباب الأول: نظرية الأدب الإسلامي:

الفصل الأول: الأسس الجمالية.

الفصل الثاني: العناصر الأساسية.

الفصل الثالث: الإسلامية والمذاهب الأدبية.

الفصل الرابع: المنظور النقدي.

الباب الثاني: قراءة إسلامية لتاريخ الأدب العربي:

الفصل الأول: المفهوم التاريخي والمفهوم العقيدي.

الفصل الثاني: الأدب العربي والرؤية الجديدة.

الفصل الثالث: تطور الأنواع الأدبية من منظور إسلامي.

الفصل الرابع: نمو حركة النقد في إطار إسلامي.

الفصل الخامس: دراسة وتحليل لعدد من النماذج الأدبية (القديمة).

الباب الثالث: الأدب الإسلامي في اللغات الأخرى:

الفصل الأول: طبيعة الرؤية الإسلامية (البحث عن الجذور).

الفصل الثاني: الأنواع الأدبية.

الفصل الثالث: دراسة وتقويم لأشهر الأدباء على مر العصور.

الباب الرابع: الأدب الإسلامي المعاصر:

الفصل الأول: مرحلة البدايات.

الفصل الثاني: مرحلة التبلور.

الفصل الثالث: الأنواع الأدبية.

الفصل الرابع: دراسة وتقويم لأشهر الأدباء المعاصرين.

الباب الخامس: دراسة مقارنة وتقويم للمذاهب والحركات الأدبية على ضوء الرؤية الإسلامية:

الفصل الأول: المذاهب العالمية.

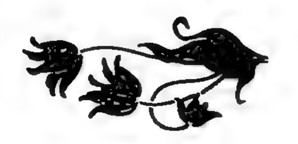
الفصل الثاني: المعطيات العربية المعاصرة.

الباب السادس: النصوص والفهارس:

الفصل الأول: نماذج من النصوص المنتقاة، يتوخى في اختيارها التركيز والتغطية الدقيقة المتوازنة.

الفصل الثاني: الفهارس، وتعتمد المحاولات الجادة التي استهدفت فهرسة الأدب الإسلامي على مر العصور، وتتوخى ملء الفجوات كافة من أجل تقديم فهرسة أقرب إلى الدقة والشمول لمعطيات الأدب الإسلامي بكافة أنواعها ومراحلها وبيئاتها[(١)].

بقلم: الدكتور عماد الدين خليل



(١) مجلة الأمة، العدد ٦٨، شعبان ١٤٠٦هـ/ نيسان (أبريل) ١٩٨٦م.

تعليق: ما يلاحظ على هذا الجهد الطيب والقيم أن الجانب الأدبي فيه معزول عن الجانب الاجتماعي للأمة الإسلامية بمختلف أبعاده وساحاته وذلك ما يتنافى مع حقيقة قوة وعمق العلاقة بين الأدب والحياة الاجتماعية واقتراح د. عماد الدين ـ حفظه الله ـ ينبغي أن يرتبط بالأمة الإسلامية نشأة، وتطوراً في مرحلتي المد والجزر الحضاري، وبذلك تتجلى حقيقة المذهب الأدبي الإسلامي.




ملحق (ب)

رابطة الأدب الإسلامي

يسر الهيئة التأسيسية لرابطة الأدب الإسلامي أن تعلن عن قيام رابطة الأدب الإسلامية برئاسة العالم الجليل والأديب الكبير سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي ومقرها في مدينة لكنهو بالهند.

وأنها لبشرى سارة تزفها الهيئة التأسيسية لرابطة الأدب الإسلامي إلى الأدباء في كل مكان، داعية الأدباء الملتزمين بالإسلام، الغيورين على عقول الأجيال، إلى الانتساب إليها، والعمل على تحقيق أهدافها عن طريق الكلمة الملتزمة والإنتاج الأدبي الهادف، الذي يؤصل نظرية الأدب الإسلامي، ويوجد تياراً أدبياً مميزاً قادراً على مواجهة التيارات الأدبية المنحرفة.

إن قيام هذه الرابطة لأمل كبير طالما هفت إليه قلوب المخلصين من حملة الأقلام المتلهفين إلى خدمة الدعوة الإسلامية بالكلمة الطيبة التي أثنى عليها الله عز وجل في محكم كتابه حيث قال:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾[1] الآية.

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

وإن قيام هذه الرابطة ليضع الأدباء أمام مسؤولياتهم في خدمة الإسلام وحفظ أمانة الكلمة التي تستمد جوهرها من مشكاة الوحي وهدي النبوة[١].

والله ولي التوفيق

الهيئة التأسيسية
لرابطة الأدب الإسلامي



تعليق:

(١) هذه الدعوة المباركة من الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله ما تزال في الواقع مجرد أمل يتطلع إليه الشاعرون بمسؤوليتهم أمام الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة، ويحول بينهم وبين تحقيقها في الواقع المعيشي اعتبارات شتى منها:

أ ـ سلبيات الموروث التاريخي عامة، وبخاصة انقسام المسلمين على أنفسهم، وزوال وحدتهم، وتحولها إلى مذاهب، وتيارات، وجماعات متصارعة، ومتنافرة، وعاملة على تكريس الفرقة والانقسامات، والخلافات بين المسلمين عن عمد أحياناً، وعن غير عمد أحياناً أخرى.

ب ـ مفهوم (وحدة المسلمين الذي تتغلب فيه المعاني السياسية على المعاني الشرعية القائمة على الشورى وقيم القرآن والسنة عامة مثل التعاون على البر والتقوى).

ج ـ أن كل آمال المسلمين الأدبية وغيرها لا تتحقق إلا بجهد عظيم، ومتحرر من القيود السلبية للتاريخ، وبخاصة: قيود الفرقة، والخلافات، وعوائق الواقع وبخاصة وصاية الحكام والمسؤولين غير العاملين بالقرآن والسنّة في سياساتهم الوطنية القائمة على الفساد، والرشوة، والمحسوبية، والعرقية والتبعية غير الواعية لخصوم الإسلام.

د ـ تحرير جهود المسلمين من الوصايات السياسية والحزبية والمفاهيم المستوردة لبعث كيان الأمة الإسلامية الموحد.




ملحق (ج)

ملامح عامة لرابطة الأدب الإسلامي

أسباب إنشاء الرابطة:

إن غربة الأدب الإسلامي وسيطرة الأدب الغازي على العالمين العربي والإسلامي وواجب الدعوة إلى الله عن طريق الكلمة الأصيلة الملتزمة، كل ذلك يدعو الأدباء الإسلاميين إلى إنشاء رابطة تجمع صفوفهم وتشد كل واحد منهم بعضد أخيه، وترفع صوتهم وتوقفهم على واجبهم أمام تجمعات الأدباء المنحرفين وتهيىء لهم أن يتعاونوا لتأصيل نظرية الأدب الإسلامي كي تواجه نظريات الماركسيين والليبراليين والوجوديين في الأدب وغير ذلك من المذاهب الأدبية غير الإسلامية في العالم.

أهداف الرابطة:

تهدف الرابطة إلى تحقيق الأهداف التالية:

أولاً: تعريف الأدباء الإسلاميين ـ على اختلاف لغاتهم وأجناسهم ـ بعضهم ببعض، وجمع كلمتهم، وإقامة التعاون بينهم ليكونوا قوة إسلامية سلاحها الكلمة الأصيلة الملتزمة بالإسلام.

ثانياً: العمل على تأصيل نظرية الأدب الإسلامي وإظهار الملامح السائدة في الأدب الإسلامي قديمه وحديثه.

ثالثاً: تحقيق مبدأ عالمية الأدب الإسلامي.

رابعاً: العمل على تأصيل نظرية النقد الإسلامي، على أن تتصف بالموضوعية والنصف والبعد عن القوالب المستوردة والأساليب المبهمة.

خامساً: رسم منهج إسلامي مفصل للفنون الأدبية الحديثة:

أ ـ القصة.

ب ـ المسرحية.

ج ـ السيرة الأدبية.

سادساً: الاهتمام بالتفسير الإسلامي للأدب والعمل على إنجازه.

سابعاً: إعادة كتابة تاريخ الأدب العربي من وجهة نظر إسلامية.

ثامناً: إظهار صلة الأدب الإسلامي الحديث بالأدب القديم، والرد على المحاولات الداعية إلى الانفصام بين أدب أمتنا في الماضي والحاضر.

تاسعاً: دراسة الأدب الإسلامي المعاصر في البلاد الإسلامية وإظهار الخصائص المشتركة للأدب الإسلامي في العالم.

عاشراً: القيام بدراسات موسعة لعدد من الأدباء الإسلاميين وبخاصة الذين صاغوا أدبهم بإحدى لغات الشعوب الإسلامية.

حادي عشر: تعريف الشعوب الإسلامية بآداب بعضها، بترجمة آثارها الأدبية إلى عدد من لغات الشعوب الإسلامية الأخرى.

ثاني عشر: تشجيع الأدب الذي يهتم بقضايا المرأة المسلمة وتشجيع نتاج الأديبات المسلمات.

ثالث عشر: رسم منهج إسلامي لأدب الأطفال والبالغين والشباب.

رابع عشر: التصدي للدعوات الأدبية المشبوهة والمنحرفة.

خامس عشر: مناصرة حركات التحرر الإسلامي والإسهام فيها بالكلمة الجريئة الأصيلة.

سادس عشر: الدفاع عن حرية الفكر والتعبير بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية.

سابع عشر: الدفاع عن حقوق الأدباء الإسلاميين المعنوية والمادية.

ثامن عشر: تهيئة وسائل النشر والتوزيع لأدباء الرابطة بجميع الوسائل الممكنة.

مبادئ عامة:

إن رابطة الأدب الإسلامي تنطلق من أهدافها وأعمالها واختيار أعضاءها من الالتزام بالمبادئ التالية:

أولاً: الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون في حدود التصور الإسلامي لها.

ثانياً: الأدب الإسلامي أدب ملتزم، والتزام الأديب فيه التزام عفوي نابع من التزامه بالعقيدة الإسلامية ورسالته جزء من رسالة الإسلام العظيم.

ثالثاً: الأدب طريق مهم من طرق بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح وأداة من أدوات الدعوة إلى الله والدفاع عن الشخصية الإسلامية.

رابعاً: الأدب الإسلامي مسؤول عن الإسهام في إنقاذ الأمة الإسلامية من محنتها المعاصرة، والأدباء الإسلاميون أصحاب ريادة في ذلك.

خامساً: الأدب الإسلامي حقيقة قائمة قديماً وحديثاً يبدأ من القرآن الكريم والحديث النبوي ومعركة شعراء الرسول ﷺ مع كفار قريش ويمتد إلى عصرنا الحاضر ليسهم في الدعوة إلى الله ومحاربة أعداء الإسلام والمنحرفين عنه.

سادساً: الأدب الإسلامي هو أدب الشعوب الإسلامية على اختلاف

أجناسها ولغاتها، وخصائصه هي الخصائص الفنية المشتركة بين آداب الشعوب الإسلامية كلها.

سابعاً: يقدم التصور الإسلامي للإنسان والحياة والكون ـ كما نجد في الأدب الإسلامي ـ أصولاً لنظرية متكاملة في الأدب والنقد وملامح هذه النظرية موجودة في النتاج الأدبي الإسلامي الممتد عبر القرون المتوالية.

ثامناً: يرفض الأدب الإسلامي أي محاولة لقطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوى التطور أو الحداثة أو المعاصرة، ويرى أن الأدب الحديث مرتبط بجذوره القديمة.

تاسعاً: يرفض الأدب الإسلامي المذاهب الأدبية التي تخالف التصور الإسلامي والأدب العربي المزور والنقد الأدبي المبني على المجاملة المشبوهة أو الحقد الشخصي كما يرفض لغة النقد التي يشوهها الغموض وتفشو فيها المصطلحات الداخلية والرموز المشبوهة، ويدعو إلى نقد واضح بنَّاء.

عاشراً: يستفيد الأدب الإسلامي من الأجناس الأدبية جميعها شعراً ونثراً ولا يرفض أي شكل من أشكال التعبير ويعني بالمضمون الذي يحدد طبيعة الشكل الملائم للأداء.

حادي عشر: إن رابطة العقيدة هي الرابطة الأصلية بين أعضاء الرابطة جميعاً ويضاف إليها آصرة الزمالة الأدبية التي تعد رابطة خاصة تشد الأدباء الإسلاميين بعضهم إلى بعض، ووحدة المبادئ والأهداف التي يلتزم بها[١].

والله ولي التوفيق

العنوان: الهند ـ لكنهو ٢٢٦٠٠٧، ص.ب: ٩٣.

P.O. BOX 93, LUCKNHOW 226007

INDIA

---

(١) منار الإسلام، العدد ٦، جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ/ مارس ١٩٨٥م.




الخلاصة

إن الأدب (أي أدب) إنما هو عنصر جوهري في كل حضارة، بل إنه صورتها النظرية بما يمثل من مفاهيم المفكرين الأخلاقيين، ويمثل الفنانين ومشاعر وآمال الصادقين ومعاناة أجيالها. الإنسانية عامة.

إن سقوطنا الحضاري أدى حتماً إلى سقوطنا الأدبي وذلك ما يفسر الإفلاس الأدبي، وظهور آداب التبعية، والحماية، والتغريب والاستلاب.

إن البعث الحضاري الإسلامي لا يمكن أن يتحقق في غياب أدب إسلامي رائد يوقظ النفوس والهمم، ويبذر فيها الأمل والعزم بعد عقود وقرون من الخمول والضياع والتبعية الذليلة.

إن الأدب خاصة والفن الإسلامي عامة بقدر ما هو حقيقة تاريخية ما تزال شواهدها قائمة شامخة ممثلة في أعلام الأدب والفكر ومؤلفاتهم وآثارهم أمثال: المعري والمتنبي والبحتري والجاحظ وأبو حيان وابن عبد ربه وابن حزم وابن شهيد ولسان الدين بن الخطيب، وغيرهم، فهو أيضاً واقع ومستقبل حتمي بقيمه الجمالية ومثله الأخلاقية، ومفاهيمه الموضوعية التي فرضت نفسها حتى على الأعداء زمن القهر بما تمثله من مزايا فذة.

إن الأدب الإسلامي كما تميز في القديم بمجالاته وخصائصه الفكرية والفنية وأشكاله، وخاصة تكامله مع الدين والأخلاق واستيعاب القضايا

الإنسانية عامة، فإنه في العهد الحديث ظل متميزاً بعدد من السمات الإيجابية الفكرية والفنية ومنها:

أ ـ رفضه للطبقية والتبعية والتناقض مع الدين والأخلاق.

ب ـ تصويره لواقع المسلمين الحقيقي النفسي والفكري والاجتماعي.

إن الأدب الإسلامي الحديث بقدر ما ظل محافظاً أميناً في تصوير خصائص النفس الإسلامية ورؤاها ومشاعرها وانعكاس أصداء الحياة عليها، فإنه في الوقت نفسه استوعب بعمق ما جد من سلبيات وإيجابيات على حياة المسلمين بنفس الأصالة والتفرد سواء في ذلك ما يتصل بتطور الجوانب الفنية للأدب الإسلامي أو في تفاعله واستيعابه للآثار الفنية غير الإسلامية من مقال وقصة ومسرحية ورواية... إلخ.

إن الأدب الإسلامي بقدر ما غطى كل الأشكال النثرية والشعرية التقليدية من مقال وقصة ومسرحية ورواية... إلخ. فإنه حافظ على إمكانيات إبداع أشكاله الخاصة به وتطويرها لضرورات جمالية اقتضتها وظائف الأدب في عصرنا الحديث مثل حواريات الأشرطة عامة، والمسرحيات والمشاهد والتعاليق... إلخ.

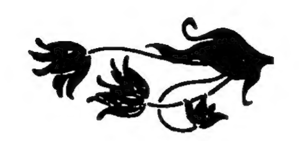
إن الأدب الإسلامي ليس ما نشر اليوم فقط، ولكنه كل ما يمكن أن يبدعه الأديب المسلم من رؤى وأشكال. فالإسلام تطور دائم ومواكبة صادقة لسنن الله في الحياة وليس جموداً ولا تحجراً كما يهرف بذلك الضالون.

إن الساحة الأدبية إبداعاً ونقداً من أجلّ وأخطر ساحات الدعوة الإسلامية، لذلك يجب على الأدباء المسلمين والإسلاميين خاصة الشباب منهم أن يقتحموا هذه الساحة بكل قوة واقتدار، بأدب إسلامي أخلاقي يدعو إلى الخير والفضيلة والإيثار ويحارب الشر والرذيلة والأنانية. وبذلك تترابط

عصور الأدب الإسلامي وتتوحد في نهج فكري وفني ثابت من خصائصه الالتزام بالإنسان وقضاياه العادلة ومثل الحق والخير والعدل والإحسان. وتلك رسالة ديننا الذي كنا به خير أمة أخرجت للناس، وبذلك فقط نسترد ما أراد الله لنا من عزة وكرامة وسيادة إن شاء الله تبارك وتعالى.

والله ولي التوفيق

د.أحمد الرفاعي شرفي





فهرست القسم الثاني

الموضوع	الصفحة

